الزمن العصيب

السنابل

الروايات المشهورة

الروايات المشهورة

١ ـــ جين إير
٢ ـــ فرانكنشتاين
٣ ـــ مونفليت
٤ ـــ دراكولا
٥ ـــ لورنادون
٦ ـــ دكتور جيكل ومستر هايد
٧ ـــ شي الملكة الأسطورة
٨ ـــ كونت مونت كريستو
٩ ـــ الرجل الخفي
١٠ ـــ الزمن العصيب



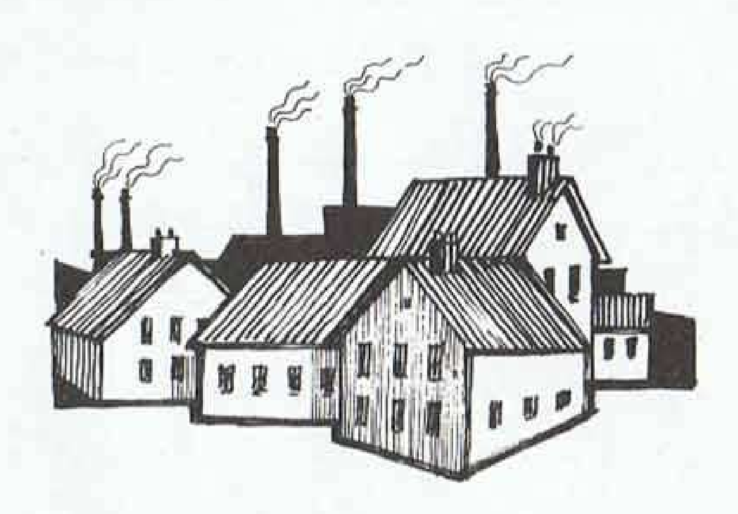
مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت





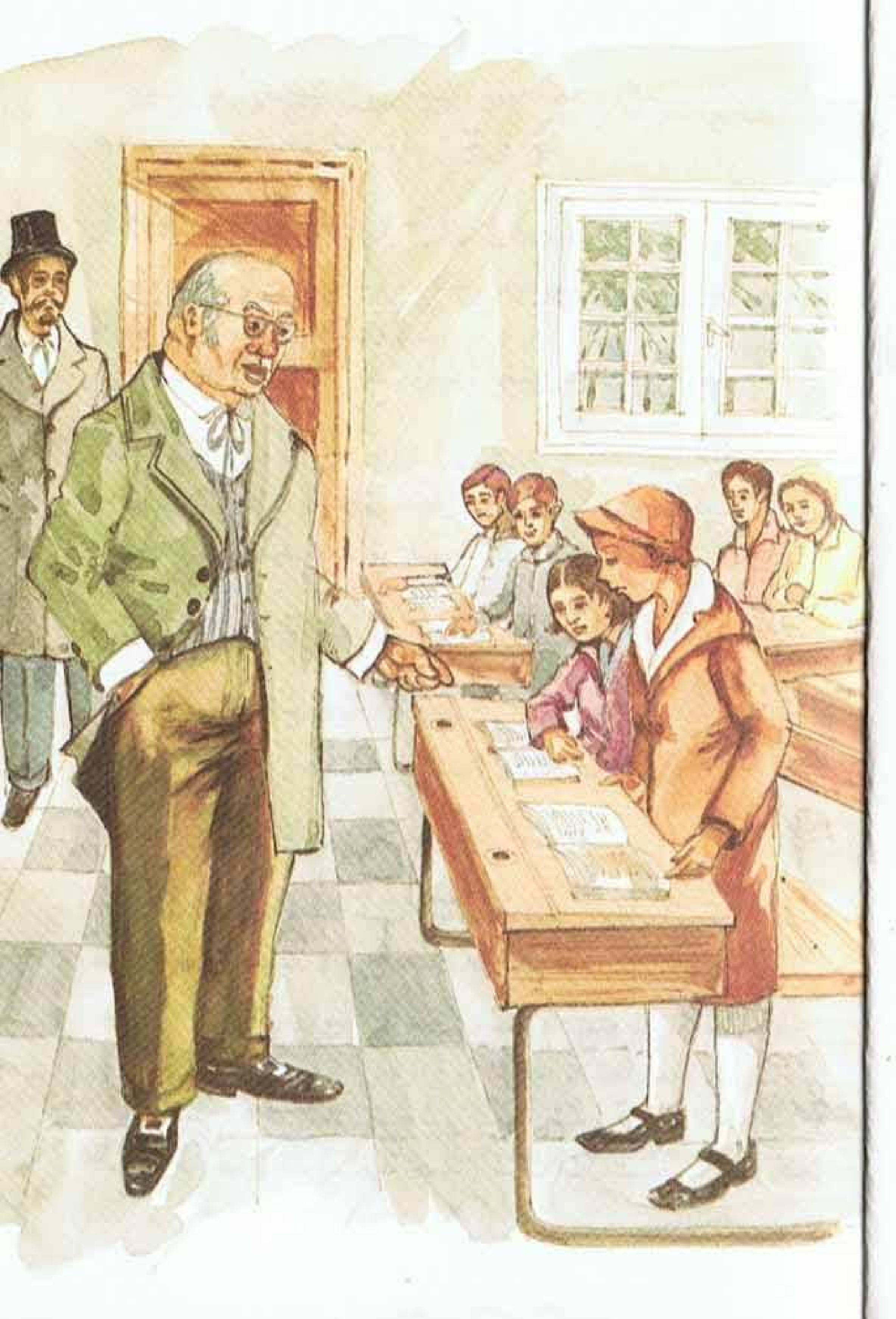
الروايات المشهورة

الزمن العصيب



تأليف : تشارلز ديكنز
إعداد : الدكتور اللواء السيد أبو مسلم
رسوم : ممدوح فهمي كراس

مكتبة لبنان
بيروت



الفَصْـــلُ ٱلأَوَّلُ

وَقَفَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند في أَحَدِ فُصولِ مَدْرَسَتِهِ يُخاطِبُ ٱلْمُدَرِّسَ : « إِنَّني أُريدُ ٱلحَقائِقَ ! وَلا نُعَلِّمْ هٰؤُلاءِ ٱلأَوْلادَ وَٱلْبَناتِ سِوى ٱلحَقائِقِ ! لَقَدْ دَأَبْتُ عَلى تَنْشِئَةِ أَوْلادي عَلى مَعْرِفَةِ ٱلحَقائِقِ ، وَأُريدُكَ أَنْ تُنَشِّئَ هٰؤُلاءِ ٱلأَوْلادَ عَلى مَعْرِفَةِ ٱلحَقائِقِ . فَلَنْ يَنْفَعَهُمْ في ٱلحَياةِ سِوى ٱلحَقائِقِ . »

كانَ ٱلفَصْلُ مَكانًا كَئيبًا مُرَبَّعَ ٱلشَّكْلِ ، يَجْلِسُ فيهِ عِشْرونَ تِلْميذًا هادِئينَ عَلى مَقاعِدِهِمْ ، عَلى حينِ كانَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند ، ناظِرُ ٱلمَدْرَسَةِ ، يَتَحَدَّثُ إِلى مُدَرِّسِ ٱلفَصْلِ . وَكانَ ثَمَّةَ شَخْصٌ آخَرُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا حَتّى تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ .

كانَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند يَمْلِكُ ٱلمَدْرَسَةَ ، وَقَدْ بَناها عَلى شاكِلَتِهِ مُرَبَّعَةَ ٱلشَّكْلِ : فَجِسْمُهُ مُرَبَّعُ ٱلشَّكْلِ ، وَلَهُ رَأْسٌ مُرَبَّعٌ وَأَصابِعُ غَليظَةٌ مُرَبَّعَةٌ . وَكانَتْ عَيْناهُ أَشْبَهَ بِنُقْرَتَيْنِ داكِنَتَيْنِ مُخْتَبِئَتَيْنِ في رَأْسِهِ ٱلأَصْلَعِ ٱلَّذي بَدا مُهَيَّأً لِأَنْ يَنْفَجِرَ مِنْ كَثْرَةِ ما حُشِيَ بِهِ مِنْ حَقائِقَ .

لَمْ يَكُنْ غرادْغرايْند يَرى فائِدَةً إِلّا في ٱلحَقائِقِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَعامَلُ إِلّا مَعَ ما يُمْكِنُ عَدُّهُ أَوْ قِياسُهُ ، وَيَرْفُضُ سِواهُ .

وَواصَلَ كَلامَهُ قائِلًا : « إِنَّنا في هٰذِهِ ٱلحَياةِ لا نَحْتاجُ إِلّا إِلى ٱلحَقائِقِ . ٱنْهَضي أَيَّتُها ٱلفَتاةُ رَقْمُ عِشْرينَ . إِنَّني لا أَعْرِفُ هٰذِهِ ٱلفَتاةَ ، فَمَنْ هِيَ ؟ »

نَهَضَتِ ٱلفَتاةُ رَقْمُ عِشْرينَ وَقَدِ ٱحْمَرَّ وَجْهُها خَجَلًا ، وَٱنْحَنَتْ بِٱحْتِرامٍ لِلسَّيِّدِ غرادْغرائِند . كانَتْ جَميلَةً ، سَوْداءَ ٱلشَّعْرِ وَٱلعَيْنَيْنِ .

قالَتْ : « سيسي جوب ، يا سَيِّدي . »

قالَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرائِند : « سيسي لَيْسَ ٱسْمًا . ٱسْمُكِ سيسيلْيا . »

اِنْحَنَتِ ٱلفَتاةُ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَقالَتْ وَحُمْرَةُ ٱلخَجَلِ ما زالَتْ عَلى وَجْهِها : « وَلٰكِنَّ أَبي يُناديني بِٱسْمِ سيسي . »

فَرَدَّ ٱلنّاظِرُ غاضِبًا : « إِذًا فَهُوَ مُخْطِئٌ ، وَعَلَيْكِ أَنْ تُخْبِريهِ أَنْ يَكُفَّ عَنْ ذٰلِكَ ؛ فَٱسْمُكِ سيسيلْيا جوب . ما هُوَ عَمَلُ والِدِكِ ؟ »

رَدَّتِ ٱلفَتاةُ : « إِنَّهُ يَعْمَلُ في ٱلسِّيرْكِ ، يا سَيِّدي . إِنَّهُ يَرْكَبُ ٱلخَيْلَ . »

وَيَبْدو أَنَّ ٱلنّاظِرَ لَمْ يُعْجِبْهُ ٱلرَّدُّ فَقالَ : « في ٱلسِّيرْكِ ؟ إِنَّنا لا نُريدُ أَنْ نَعْرِفَ شَيْئًا عَنِ ٱلسِّيرْكِ هُنا . إِنَّهُ يَرْعى ٱلخَيْلَ عِنْدَما تَمْرَضُ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

قالَتْ : « بَلى يا سَيِّدي ، إِنَّهُ يَفْعَلُ ذٰلِكَ أَيْضًا . »

قالَ ٱلنّاظِرُ : « إِذًا فَوالِدُكِ طَبيبٌ . إِنَّهُ طَبيبٌ لِلْخَيْلِ . وَٱلآنَ أَخْبِريني يا سيسيلْيا جوب : ما هُوَ ٱلحِصانُ ؟ هَلْ يُمْكِنُكِ أَنْ تُعَرِّفيهِ ؟ »

اِحْمَرَّ وَجْهُ ٱلفَتاةِ خَجَلًا ، وَخَفَضَتْ بَصَرَها ، وَلَمْ تُجِبْ .

قالَ ٱلنّاظِرُ : « إِنَّ ٱلفَتاةَ رَقْمَ عِشْرينَ تِلْميذَةٌ غَبِيَّةٌ ، فَهِيَ لا تَعْرِفُ ٱلحَقائِقَ ٱلأَساسِيَّةَ عَنْ حَيَوانٍ مَأْلوفٍ نَعْرِفُهُ جَميعًا . سَوْفَ أَسْأَلُ تِلْميذًا . » وَأَشارَ ٱلنّاظِرُ

بِإِصْبَعِهِ ٱلمُرَبَّعِ نَحْوَ غُلامٍ أَبْيَضِ ٱلوَجْهِ وَشَعْرُهُ خَفيفٌ فاتِحُ ٱللَّوْنِ يُدْعى بيتْزِر ، وَسَأَلَهُ : « وَٱلآنَ يا بيتْزِر : ما هُوَ ٱلحِصانُ ؟ »

أَجابَ ٱلغُلامُ : « إِنَّ ٱلحِصانَ يا سَيِّدي حَيَوانٌ ذو أَرْبَعِ قَوائِمَ ، يَأْكُلُ ٱلحَشائِشَ وَٱلحُبوبَ ، وَفي فَمِهِ أَرْبَعونَ سِنًّا ، وَيَتَساقَطُ شَعْرُهُ في فَصْلِ ٱلرَّبيعِ . وَمِنَ ٱلضَّروريِّ أَنْ تُرَكَّبَ لَهُ نِعالٌ (حَدْواتٌ) في ٱلبُلْدانِ ٱلَّتي يَكْثُرُ فيها سُقوطُ ٱلأَمْطارِ . وَيُعْرَفُ عُمْرُهُ بِعَلاماتٍ في أَسْنانِهِ ... »

رَضِيَ ٱلنّاظِرُ بِهٰذِهِ ٱلإِجابَةِ ، وَنَظَرَ نَحْوَ ٱلفَتاةِ وَقالَ لَها : « أَنْتِ أَيَّتُها ٱلفَتاةُ رَقْمُ عِشْرينَ ، هَلْ سَمِعْتِ ؟ هَلْ عَرَفْتِ ٱلآنَ ٱلحَقائِقَ ٱلأَساسِيَّةَ عَنِ ٱلحِصانِ ؟ »

اِشْتَدَّ ٱحْمِرارُ وَجْهِ سيسي ، وَٱنْحَنَتْ مَرَّةً ثُمَّ جَلَسَتْ . وَتَقَدَّمَ ٱلرَّجُلُ ٱلثّاني إِلى ٱلأَمامِ ، وَكانَ مُوَظَّفًا حُكومِيًّا لا يَتَعامَلُ هُوَ أَيْضًا إِلّا مَعَ ٱلحَقائِقِ .

قالَ : « لَقَدْ سَمِعْتُمْ أَيُّها ٱلتَّلاميذُ ٱلحَقائِقَ ٱلأَساسِيَّةَ عَنِ ٱلحِصانِ . وَٱلآنَ أَوَدُّ أَنْ أُوَجِّهَ سُؤالًا : لَوْ أَنَّكُمْ رَغِبْتُمْ في تَجْميلِ حُجْرَةٍ ، فَهَلْ تُعَلِّقونَ عَلى جُدْرانِها صُوَرًا لِلْخَيْلِ ؟ »

اِخْتَلَفَ ٱلتَّلاميذُ في ٱلرَّدِّ عَلى هٰذا ٱلسُّؤالِ ، فَقَدْ أَيَّدَ نِصْفُهُمْ هٰذا ٱلاِقْتِراحَ ، أَمّا ٱلنِّصْفُ ٱلآخَرُ فَقَدْ رَفَضَهُ .

أَوْمَأَ ٱلرَّجُلُ بِرَأْسِهِ قائِلًا : « بِٱلطَّبْعِ يَجِبُ أَلّا تُعَلِّقوا صُوَرَ ٱلخَيْلِ عَلى ٱلحائِطِ ! هَلْ سَبَقَ أَنْ شاهَدَ أَحَدُكُمْ حِصانًا يَروحُ وَيَجيءُ فَوْقَ ٱلحائِطِ ؟ »

قالَ بَعْضُ ٱلتَّلاميذِ : « نَعَمْ يا سَيِّدي ! » وَلٰكِنَّ أَصْواتَهُمْ ضاعَتْ وَسْطَ ضَجيجِ

ٱلأَصْواتِ ٱلَّتي قالَتْ : « لا يا سَيِّدي ! »

قالَ ٱلرَّجُلُ : « كَلَّا بِٱلطَّبْعِ ! فَٱلخَيْلُ عَلى ٱلحائِطِ لَيْسَتْ مِنَ ٱلحَقيقَةِ في شَيْءٍ . »

وَأَيَّدَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرائِند رَأْيَ ٱلرَّجُلِ قائِلًا : « هٰذا صَحيحٌ لِلْغايَةِ ! » وَواصَلَ ٱلرَّجُلُ حَديثَهُ قائِلًا : « يَجِبُ أَلَّا يَكونَ لَدَيْنا شَيْءٌ غَيْرُ حَقيقِيٍّ . » ثُمَّ وَجَّهَ ٱلسُّؤالَ ٱلتّالي :

« لَوْ رَغِبْتُمْ في شِراءِ سَجّادَةٍ ، فَأَيُّ نَوْعٍ تَشْتَرونَهُ ؟ هَلْ تُفَضِّلونَ شِراءَ سَجّادَةٍ عَلَيْها تَصاويرُ أَزْهارٍ ؟ »

أَدْرَكَ ٱلتَّلاميذُ أَنَّ إِجابَتَهُمْ بِكَلِمَةِ : « لا » تَحْظى بِٱلإِعْجابِ وَٱلرِّضا فَصاحوا جَميعًا : « لا ! لا نَشْتَري مِثْلَ هٰذِهِ ٱلسَّجّادَةِ . » وَلٰكِنَّ سيسي جوب وَٱثْنَيْنِ آخَرَيْنِ أَجابوا : « نَعَمْ يا سَيِّدي ، نُفَضِّلُ شِراءَها . »

اِنْزَعَجَ ٱلرَّجُلُ وَٱتَّجَهَ نَحْوَ ٱلفَتاةِ وَسَأَلَها مَرَّةً ثانِيَةً : « أَيَّتُها ٱلفَتاةُ رَقْمُ عِشْرينَ ، هَلْ تَشْتَرينَ سَجّادَةً عَلَيْها تَصاويرُ أَزْهارٍ ؟ »

اِحْمَرَّ وَجْهُ سيسي خَجَلًا ، وَٱنْحَنَتْ وَأَجابَتْ : « نَعَمْ يا سَيِّدي ، فَأَنا أُحِبُّ ٱلأَزْهارَ ؟ »

فَقالَ ٱلرَّجُلُ : « وَلٰكِنَّ ٱلنّاسَ تَمْشي عَلى ٱلسَّجاجيدِ بِأَحْذِيَتِهِمُ ٱلثَّقيلَةِ ، فَهَلْ تُحِبّينَ أَنْ يَدوسوها بِأَحْذِيَتِهِمْ ؟ »

رَدَّتِ ٱلفَتاةُ : « وَلٰكِنَّ ٱلأَحْذِيَةَ لَنْ تُتْلِفَ ٱلأَزْهارَ ٱلَّتي عَلى ٱلسَّجّادَةِ . إِنَّني

أُحِبُّ أَنْ أَتَخَيَّلَ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلسَّجّادَةِ حَديقَةً جَميلَةً . »

فَصاحَ ٱلرَّجُلُ : « تَتَخَيَّلينَ ؟ ماذا تَعْنينَ بِهٰذِهِ ٱلكَلِمَةِ ؟ لَيْسَ لَكِ أَنْ تَتَخَيَّلي . » وَقاطَعَهُ ٱلنّاظِرُ قائِلًا بِلَهْجَةٍ حازِمَةٍ : « سيسيلْيا جوب ! إِنَّني أَمْنَعُكِ مِنْ أَنْ تَتَخَيَّلي أَيَّ شَيْءٍ . »

صاحَ ٱلرَّجُلُ مُؤَكِّدًا : « الواقِعَ ! ٱلواقِعَ ! »

وَكَرَّرَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرائِند قَوْلَ ٱلرَّجُلِ : « الواقِعَ ! ٱلواقِعَ ! »

قالَ ٱلرَّجُلُ : « في هٰذِهِ ٱلمَدْرَسَةِ يَجِبُ أَنْ يَنْسى ٱلجَميعُ كَلِمَةَ « أَتَخَيَّلُ » . وَعِنْدَما تَرْسُمونَ شَيْئًا فَلا تَرْسُموا خُيولًا أَوْ زُهورًا ؛ فَهٰذِهِ ٱلأَشْياءُ إِذا ما رُسِمَتْ عَلى ٱلوَرَقِ لَمْ تَعُدْ واقِعًا . وَإِذا قَرَأْتُمْ أَوْ كَتَبْتُمْ فَٱقْرَأوا وَٱكْتُبوا ٱلحَقائِقَ فَقَطْ . هَلْ فَهِمْتُمْ ما أَقولُ ؟ هَلْ فَهِمْتِ أَيَّتُها ٱلفَتاةُ رَقْمُ عِشْرينَ ؟ »

أُجابَتْ سيسي : « نَعَمْ يا سَيِّدي . » وَٱنْحَنَتْ وَجَلَسَتْ . كانَتْ صَغيرَةَ ٱلسِّنِّ جِدًّا ؛ فَبَدا لَها عالَمُ ٱلحَقائِقِ ٱلجامِدُ خالِيًا مِنَ ٱلجَمالِ وَٱلإِثارَةِ .

الفصـــل الثانـــي

عادَ آلسَّيِّدُ غرادغرايْند إلى مَنْزِلِهِ في تِلْكَ آللَّيْلَةِ يَغْمُرُهُ آلشُّعورُ بِآلرِّضا وَآلسَّعادَةِ ، فَسُرْعانَ ما سَيُحَقِّقُ تَلاميذُ مَدْرَسَتِهِ مِنَ آلتَّفَوُّقِ آلعِلْمِيِّ ما حَقَّقَهُ أَبْناؤُهُ آلخَمْسَةُ . وَمِنَ آلمُؤَكَّدِ أَنَّهُ لَنْ يَتَسَنّى لِأَحَدٍ أَنْ يَنالَ تَعْليمًا مِثْلَ آلَّذي نالَهُ أَوْلادُهُ آلخَمْسَةُ .

فَفي مَنْزِلِهِ آلمُسَمّى سْتون لُودْج أَعَدَّ غرادغرايْند لِأَبْنائِهِ غُرْفَةً لِتَكونَ فَصْلًا يَسْتَذْكِرونَ فيهِ دُروسَهُمْ ، وَلِتَكونَ مَحْبِسًا لَهُمْ أَيْضًا . فَما إِنِ آسْتَطاعوا آلمَشْيَ حَتّى دَفَعَهُمْ إلى أَنْ يَمْشوا إِلَيْها . وَعَلى هٰذا فَقَدْ شَبَّ أَبْناؤُهُ لا يَرْبِطُهُمْ بِطُفولَتِهِمْ شَيْءٌ سِوى ذِكْرى آلسَّبّورَةِ وَصورَتِها . وَلَمْ يَحْدُثْ أَنْ سَمِعوا قِصَّةَ آلدِّبَبَةِ آلثَّلاثَةِ ، وَلٰكِنَّهُمْ يَعْرِفونَ أَنَّ آلدُّبَّ حَيَوانٌ لَهُ أَرْبَعُ أَرْجُلٍ ، وَفَرْوَةٌ كَثيفَةٌ خَشِنَةٌ . وَلا يَعْرِفونَ عَنِ آلقَمَرِ سِوى أَنَّهُ أَرْضٌ صَحْراوِيَّةٌ جَرْداءُ خالِيَةٌ مِنَ آلهَواءِ . وَآلشَّمْسُ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ سِوى كَمِّيَّةٍ مِنَ آلغازاتِ آلمُلْتَهِبَةِ .

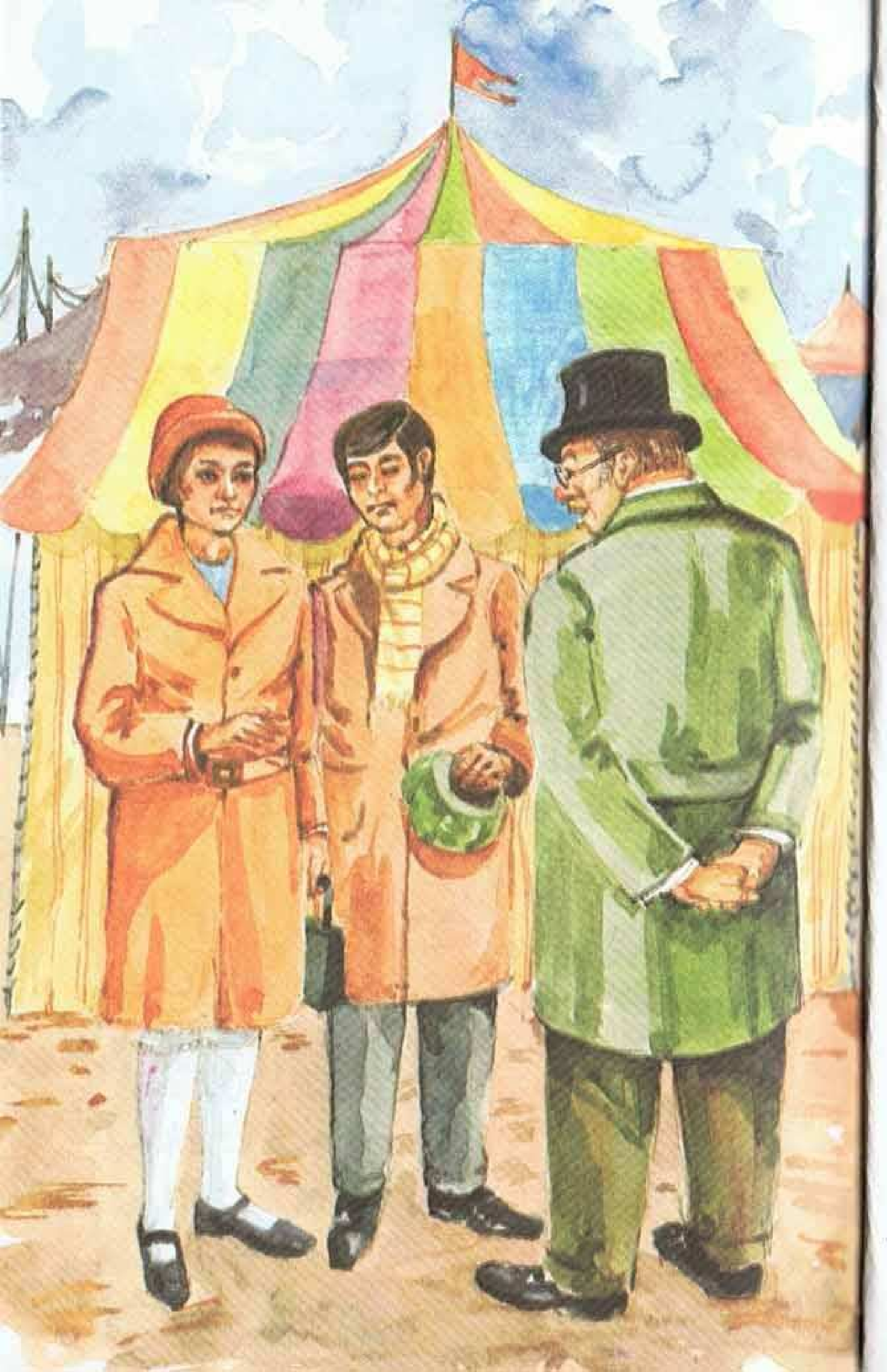
أَمّا آلمَنْزِلُ آلمُسَمّى سْتون لُودْج فَهُوَ مَبْنًى كَبيرٌ مُرَبَّعُ آلشَّكْلِ يَقَعُ عَلى بُعْدِ كيلومِتْرَيْنِ مِنْ مَدينَةِ كوكْتاون في شَمالِ غَرْبِ إِنْجِلْتِرا . وَهُوَ مَنْزِلٌ يَخْلو مِنْ كُلِّ لَمَحاتِ آلجَمالِ ، بِهِ سِتُّ نَوافِذَ عَلى يَمينِ آلبابِ آلرَّئيسِيِّ ، وَسِتٌّ مِثْلُها عَلى شِمالِهِ . وَثَمَّةَ آثْنَتا عَشْرَةَ نافِذَةً في آلواجِهَةِ آلخَلْفِيَّةِ . وَآلمَنْزِلُ بِصِفَةٍ عامَّةٍ شامِخٌ رَكينٌ مُتَوازِنُ آلجَوانِبِ ، كَما يَجِبُ أَنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَنْزِلُ سَيِّدٍ جَليلٍ . وَآلمَنْزِلُ مِثْلُ كُلِّ شَيْءٍ في حَياةِ آلسَّيِّدِ غرادغرايْند ، يُعَدُّ حَقيقَةً تَبْعُدُ كُلَّ آلبُعْدِ عَنِ آلخَيالِ .

كانَ آلسَّيِّدُ غرادغرايْند قَدِ آشْتَغَلَ بِآلتِّجارَةِ وَأَثْرى مِنْها . وَكانَ يَشْتَري آلقُدورَ وَآلأَواني مِنَ آلمَصانِعِ ثُمَّ يَبيعُها لِلْمَحالِّ آلتِّجارِيَّةِ . وَقَدْ حَقَّقَ أَرْباحًا عالِيَةً آعْتَبَرَها حَقيقَةً مِنَ آلحَقائِقِ لَمْ تُخْفِقْ مَرَّةً في إِدْخالِ آلسُّرورِ إِلى نَفْسِهِ . وَلَمّا تَوافَرَ لَهُ مَنْ يُساعِدُهُ في أَعْمالِ آلتِّجارَةِ آتَّسَعَ وَقْتُهُ لِلْقِيامِ بِأَعْمالٍ أُخْرى أَكْثَرَ أَهَمِّيَّةً ، وَهِيَ آلعَمَلُ آلحُكومِيُّ . فَقَدْ رَغِبَ أَنْ يَكونَ عُضْوًا في آلبَرْلَمانِ مُمَثِّلًا عَنْ مَدينَةِ كوكْتاون ، وَلِمَ لا ؟ فَقَدْ عاشَ في هٰذِهِ آلمَدينَةِ كُلَّ حَياتِهِ ، وَشَيَّدَ بِها هٰذِهِ آلمَدْرَسَةَ ، وَدَفَعَ آلكَثيرَ ثَمَنًا لِذٰلِكَ . وَمِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى فَإِنَّ خِبْرَتَهُ في عالَمِ آلتِّجارَةِ تُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَكونَ عُضْوًا ناجِحًا في آلبَرْلَمانِ ، وَخاصَّةً أَنَّ آلبَرْلَمانَ في رَأْيِهِ يَحْتاجُ إِلى رِجالٍ يَعْرِفونَ آلحَقائِقَ .

كانَ أَهالي آلمَدينَةِ يَعْتَبِرونَهُ رَجُلَ أَعْمالٍ مُمْتازًا وَجادًّا وَعَمَلِيًّا لا عَبَثَ أَوْ هَزْلَ مَعَهُ . وَكانَ سَعيدًا بِهٰذا آلرَّأْيِ ، وَآعْتَبَرَهُ بِدَوْرِهِ حَقيقَةً مِنَ آلحَقائِقِ آلَّتي يَفْخَرُ بِها ؛ لِذا فَإِنَّهُ لَمْ يَحْفِلْ بِأَنْغامِ آلموسيقى آلمُنْبَعِثَةِ مِنْ سيرْكِ سْلاري آلمُقامِ في طَريقِ عَوْدَتِهِ إِلى مَنْزِلِهِ . فَمِنْ رَأْيِهِ أَنَّ آلرِّجالَ آلعَمَلِيّينَ يَنْعَمونَ بِآلعَيْشِ بِدونِ آلموسيقى .

كانَ سْلاري قَدْ أَقامَ خِيامَ هٰذا آلسّيرْكِ عَلى مَشارِفِ آلمَدينَةِ ، وَوَقَفَ أَمامَ تِلْكَ آلخِيامِ وَقَدْ أَمْسَكَ بِيَدِهِ صُنْدوقَ آلنُّقودِ آلَّذي يَجْمَعُ فيهِ ثَمَنَ تَذاكِرِ آلدُّخولِ ، وَأَخَذَ يَصيحُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ : « هَيّا إِلى آلسّيرْكِ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ أَلْعابُ آلخَيْلِ ! شاهِدوا جوزفينَ عَلى حِصانِها آلأَبْيَضِ وَهُوَ مُنْتَصِبٌ عَلى قَدَمَيْهِ آلخَلْفِيَّتَيْنِ ! شاهِدوا آللّاعِبَ جوب آلَّذي يَرْكَبُ حِصانَهُ مَعَ كَلْبِهِ آلمُدْهِشِ آلمُدَرَّبِ مِريلِغْز ! شاهِدوا آللّاعِبَ تْشيلْدَرْز ! »

لَمْ يَتَوَقَّفِ آلسَّيِّدُ غرادغرايْند ، بِطَبيعَةِ آلحالِ ، أَمامَ آلسّيرْكِ ؛ إِذْ لا وَقْتَ لَدَيْهِ



لِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلتَّفاهاتِ . وَواصَلَ سَيْرَهُ مارًّا بِخَيْمَةِ ٱلسِّيرْكِ ٱلكَبِيرَةِ دونَ أَنْ يُعيرَ ٱلأَمْرَ ٱهْتِمامًا . وَلٰكِنَّ شَيْئًا شَدَّ ٱنْتِباهَهُ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ؛ إِذْ رَأى ثَلاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً مِنْ تَلاميذِهِ خَلْفَ ٱلخَيْمَةِ يَخْتَلِسونَ ٱلنَّظَرَ مِنْ ثُقْبٍ في جِدارِ ٱلخَيْمَةِ لِيُشاهِدوا ما بِداخِلِها . وَكانَ هٰؤُلاءِ ٱلتَّلاميذُ قَدْ تَغَيَّبوا عَنِ ٱلمَدْرَسَةِ في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ .

دَهِشَ ٱلنّاظِرُ وَلَمْ يُصَدِّقْ نَفْسَهُ ، وَلٰكِنَّهُ فَكَّرَ في أَنْ يَقْتَرِبَ لِيَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ . وَما إِنِ ٱقْتَرَبَ حَتّى عَرَفَ ٱثْنَيْنِ مِنْهُمْ عَلى ٱلفَوْرِ : ٱبْنَتَهُ لويزا ، وَٱبْنَهُ توماس . وَناداهُما بِحِدَّةٍ ، فَٱلْتَفَتا نَحْوَهُ وَقَدِ ٱحْمَرَّ وَجْهاهُما خَجَلًا . وَلٰكِنَّ ٱلفَتاةَ تَجَرَّأَتْ وَنَظَرَتْ إِلى أَبيها ، أَمّا ٱلغُلامُ فَقَدْ غَلَبَهُ ٱلخَوْفُ ، وَلَمْ يَجْرُؤْ عَلى ٱلنَّظَرِ إِلى أَبيهِ ٱلَّذي صاحَ قائِلًا :

« إِنَّ هٰذا أَغْرَبُ ما شاهَدْتُهُ في حَياتي ! ماذا تَفْعَلانِ هُنا ؟ »

أَجابَتْ لويزا : « أَرَدْنا أَنْ نَعْرِفَ ماذا يَدورُ داخِلَ هٰذا السِّيرْكِ . »

« ماذا يَدورُ في السِّيرْكِ ؟ ! »

« نَعَمْ يا أَبي . »

كانَتْ لويزا في ٱلسّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها ، وَكانَتْ جَميلَةً وَتَبْدو مِثْلَ ٱمْرَأَةٍ ناضِجَةٍ ، وَكانَ والِدُها يُدْرِكُ هٰذا . وَتَراءى لَهُ أَنَّها كانَتْ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ تَكونَ مَصْدَرَ مَتاعِبَ لَوْ كانَ غَيْرُهُ هُوَ ٱلَّذي قامَ بِتَرْبِيَتِها .

قالَ مُوَجِّهًا كَلامَهُ لِابْنِهِ : « إِنَّني أَلومُكَ عَلى مِثْلِ هٰذا ٱلتَّصَرُّفِ . كَيْفَ لِفَتًى لَهُ تَرْبِيَتُكَ وَثَقافَتُكَ أَنْ يَأْتِيَ بِأُخْتِهِ إِلى هٰذا ٱلمَكانِ ؟ »

رَدَّتِ ٱلْفَتاةُ بِسُرْعَةٍ : « أَنا ٱلَّتي أَتَيْتُ بِهِ يا أَبي . وَقَدْ طَلَبْتُ مِنْهُ ٱلْمَجيءَ مَعي . »

قالَ ٱلْأَبُ : « كَمْ يُؤْسِفُني سَماعُ هٰذا ! وَذٰلِكَ لا يُبَرِّرُ مَوْقِفَ تُوماس ، وَيَزيدُ مِنْ سوءِ مَوْقِفِكِ يا لِويزا . »

نَظَرَتِ ٱلْفَتاةُ إِلى أَبيها مَرَّةً أُخْرى ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَذْرِفْ دَمْعَةً واحِدَةً .

فَعادَ ٱلْأَبُ إِلى تَوْبيخِها قائِلًا :

« أَنْتِ ؟ !وَتُوماس أَيْضًا ؟ لَقَدْ فَتَحْتُ لَكُما كُلَّ سُبُلِ ٱلْعِلْمِ ، وَحَصَلْتُما عَلى أَكْبَرِ قِسْطٍ مِنَ ٱلتَّعْليمِ ، وَأَتَحْتُ لَكُما مَعْرِفَةَ كُلِّ ٱلْحَقائِقِ . وَمَعَ كُلِّ هٰذا أَجِدُكِ هُنا أَنْتِ وَتُوماس في هٰذا ٱلْمَكانِ ... في ٱلسيرْكِ ! أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْهَمَ هٰذا ٱلْمَوْقِفَ . »

قالَتِ ٱلْفَتاةُ : « كُنْتُ مُتْعَبَةً . وَقَدْ شَعَرْتُ بِٱلتَّعَبِ مُنْذُ أَمَدٍ طَويلٍ . »

« مُتْعَبَةٌ ؟ مِمَّ أَنْتِ مُتْعَبَةٌ ؟ »

« لَسْتُ أَدْري . مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فيما أَظُنُّ . »

« إِنَّكِ تَتَحَدَّثينَ مِثْلَ طِفْلَةٍ ، وَأَنا راغِبٌ عَنْ سَماعِ كَلِمَةٍ أُخْرى مِنْكِ . » وَساروا صامِتينَ حَوالى كيلومِتْرٍ ، إِلّا أَنَّ ٱلسَّيِّدَ غرادْغرايْند قَطَعَ ٱلصَّمْتَ بِأَنْ سَأَلَ لِويزا : « ماذا يَقولُ خيرَةُ أَصْدِقائِكِ لَوْ عَرَفوا بِهٰذا ؟ أَ لا يُهِمُّكِ هٰذا ؟ ماذا يَقولُ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي ؟ »

وَما إِنْ سَمِعَتِ ٱلْفَتاةُ هٰذا ٱلِاسْمَ حَتّى رَمَقَتْ أَباها بِنَظْرَةٍ فاحِصَةٍ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ

يَلْحَظْ نَظْرَتَها ، وَكَرَّرَ سُؤالَهُ : « ماذا يَقولُ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي ؟ » مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ دونَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْها جَوابًا . وَعِنْدَما وَصَلوا إِلى ٱلْبَيْتِ وَجَدوا ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي جالِسًا في ٱنْتِظارِهِمْ يَصْطَلي بِنارِ ٱلْمِدْفَأَةِ بِجِوارِ زَوْجَةِ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند . وَنَظَرَ إِلى لِويزا نَظْرَةً تَكادُ تَصْرُخُ : « هٰأَنَذا يا لِويزا ! »

كانَ جوشْيا باوِنْدِرْبي رَجُلًا فَظًّا ، ضَخْمَ ٱلْجِسْمِ ، أَحْمَرَ ٱلْوَجْهِ ، خَفيفَ ٱلشَّعْرِ ، إِذا تَكَلَّمَ بَدا صَوْتُهُ كَٱلْعاصِفَةِ . وَيُعَلِّقُ ٱلْبَعْضُ بِأَنَّ غِلَظَ صَوْتِهِ هُوَ ٱلسَّبَبُ في سُقوطِ شَعْرِهِ . وَهُوَ يَبْلُغُ مِنَ ٱلْعُمْرِ ثَمانِيَةً وَأَرْبَعينَ عامًا ، وَإِنْ بَدا أَكْبَرَ مِنْ عُمْرِهِ بِعَشْرِ سَنَواتٍ ، رُبَّما بِسَبَبِ ٱلْجِدَّةِ ٱلَّتي تَكْسو مَلامِحَ وَجْهِهِ . وَهُوَ عَمَلِيٌّ في تَعامُلِهِ مَعَ ٱلنّاسِ ، واسِعُ ٱلثَّراءِ يَمْتَلِكُ أَكْبَرَ مَصانِعِ ٱلْمَلابِسِ في ٱلْمَدينَةِ ، كَما يَمْتَلِكُ ٱلْمَصْرِفَ ٱلْوَحيدَ بِها . وَكانَ يَتَفاخَرُ دائِمًا بِأَنَّهُ رَجُلٌ عِصامِيٌّ ، وَلَمْ يَسْبِقْ أَنْ لَبِسَ حِذاءً في صِباهُ ، وَلَمْ يَكُنْ في جَيْبِهِ قِرْشٌ واحِدٌ في يَوْمٍ مِنَ ٱلْأَيّامِ ، لا لِسَبَبٍ إِلّا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ جَيْبٌ عَلى ٱلْإِطْلاقِ ، وَكَثيرًا ما كانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ طُفولَتِهِ ٱلتَّعِسَةِ ، وَيَحْكي كَيْفَ أَلْقَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلى ٱلشّارِعِ ، وَكَيْفَ أَنَّهُ لَمْ يَلْتَحِقْ بِمَدْرَسَةٍ قَطُّ ، بَلْ عَلَّمَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ يَشْعُرُ ٱلْآنَ بِفَخْرٍ لِما وَصَلَ إِلَيْهِ في نِهايَةِ ٱلْأَمْرِ .

نَظَرَ باوِنْدِرْبي إِلى لِويزا ، وَلٰكِنَّهُ تَحَدَّثَ إِلى تُوماس وَسَأَلَهُ : « إِنَّكَ لا تَبْدو سَعيدًا يا تُوماس ، فَما ٱلسَّبَبُ ؟ »

قالَتْ لِويزا : « كُنّا نُحاوِلُ مُشاهَدَةَ ٱلسيرْكِ ، وَلٰكِنَّ والِدَنا ضَبَطَنا . »

عَلَّقَ ٱلْأَبُ مُوَجِّهًا حَديثَهُ إِلى زَوْجَتِهِ قائِلًا : « إِنَّ مُشاهَدَةَ ٱلسيرْكِ أَمْرٌ سَيِّئٌ ، شَأْنُهُ في ذٰلِكَ شَأْنُ قِراءَةِ ٱلشِّعْرِ ، أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

رَدَّتِ ٱلزَّوْجَةُ قائِلَةً : « بَلى ! إِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْهَمَ كَيْفَ يُقْدِمُ توماس وَلويزا عَلى ذٰلِكَ ؟ أَ لَمْ تَكُنْ عِنْدَكُما واجِباتٌ مَدْرَسِيَّةٌ لِتَشْغَلَكُما ؟ أَنْتُما تَعْرِفانِ أَنَّكُما تَدْرُسانِ مِنَ ٱلحَقائِقِ ما يُصيبُ رَأْسي بِٱلصُّداعِ إِذا ما حاوَلْتُ قِراءَتَها ، بَلْ لا أَسْتَطيعُ أَبَدًا أَنْ أَتَذَكَّرَ بَعْدَ ذٰلِكَ نِصْفَ ما قَرَأْتُ . »

فَقاطَعَتْها ٱلفَتاةُ قائِلَةً : « هٰذا هُوَ ٱلسَّبَبُ ! »

لَمْ تَرُقْ هٰذِهِ ٱلإِجابَةُ ٱلأُمَّ ، فَقالَتْ : « لَيْسَ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ يا لويزا ! هَيّا ٱذْهَبي إِلى غُرْفَةِ ٱلدِّراسَةِ لِتَسْتَذْكِري شَيْئًا . كَمْ كُنْتُ أَتَمَنّى لَوْ كانَ لي كُلُّ فُرَصِ ٱلتَّعْليمِ ٱلمُتاحَةِ لَكُما . »

لَمْ تَحْظَ ٱلأُمُّ إِلّا بِقِسْطٍ بَسيطٍ مِنَ ٱلتَّعْليمِ ، وَلَمْ تَتَعَلَّمْ إِلّا عَدَدًا مَحْدودًا مِنَ ٱلحَقائِقِ . وَلَمْ يَتَزَوَّجِ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند بِها إِلّا لِأَنَّهُ كانَ يَرى أَنَّ رَأْسًا خاوِيًا أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ رَأْسٍ حُشِيَ بِٱلخَيالِ وَٱلأَوْهامِ .

وَبَعْدَ قَليلٍ جَلَسَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند وَحْدَهُ مَعَ باوِنْدِرْبي ، وَقالَ لَهُ : « إِنَّني قَلِقٌ يا باوِنْدِرْبي بِسَبَبِ ما رَأَيْتُهُ ٱليَوْمَ ؛ فَقَدْ تَلَقّى وَلَدايَ أَفْضَلَ قِسْطٍ مِنَ ٱلتَّعْليمِ ، وَأَعْني بِهٰذا ٱلحَقائِقَ ٱلعِلْمِيَّةَ . وَٱلآنَ ثَمَّةَ شَيْءٌ آخَرُ غَيْرُ ٱلعِلْمِ يَتَسَلَّلُ إِلى رَأْسَيْهِما . فَما ٱلَّذي دَفَعَهُما إِلى ٱلذَّهابِ إِلى ٱلسيرْكِ في رَأْيِكَ ؟ »

أَجابَ باوِنْدِرْبي ٱلرَّجُلُ ٱلعَمَلِيُّ : « إِنَّهُ ٱلتَّخَيُّلُ ٱلباطِلُ . »

فَقالَ لَهُ ٱلأَبُ : « أَرْجو أَلّا يَكونَ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ . وَلٰكِنَّكَ قَدْ تَكونُ في ٱلواقِعِ مُحِقًّا . »

قالَ باوِنْدِرْبي : « إِنَّ ٱلتَّخَيُّلَ ٱلباطِلَ شَيْءٌ بالِغُ ٱلضَّرَرِ لِأَيِّ إِنْسانٍ ، وَأَشَدُّ ضَرَرًا عَلى فَتاةٍ مِثْلِ لويزا . »

تَساءَلَ ٱلأَبُ مَرَّةً أُخْرى عَمَّنْ يَكونُ قَدْ حَدَّثَهُما أَوْ حَثَّهُما عَلى ما فَعَلاهُ ، فَرَدَّ باوِنْدِرْبي مُتَسائِلًا : « أَ لا توجَدُ بِٱلمَدْرَسَةِ تِلْميذَةٌ مِنَ ٱلسيرْكِ تَدْرُسُ مَعَهُما في ٱلفَصْلِ نَفْسِهِ ؟ »

وَخَفَضَ غرادْغرايْند وَجْهَهُ قائِلًا : « إِنَّها سيسيلْيا جوب ، وَقَدْ رَأَيْتُها ٱليَوْمَ . »

فَرَدَّ باوِنْدِرْبي بِسُرْعَةٍ : « إِذًا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرُدَها مِنَ ٱلمَدْرَسَةِ . اُطْرُدْها ٱليَوْمَ عَلى ٱلفَوْرِ . »



أُعْجِبَ غرادْغرايْند بِرَأْيِ باونْدِرْبي ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتّى يَأْتِيَ بِعُنْوانِ ٱلْفَتاةِ مِنْ مَكْتَبِهِ .

ذَهَبَ غرادْغرايْند لِيُحْضِرَ ٱلْعُنْوانَ مِنْ مَكْتَبِهِ ، عَلى حينَ ذَهَبَ باونْدِرْبي إِلى حُجْرَةِ ٱلدِّراسَةِ حَيْثُ كانَتْ لويزا تَجْلِسُ مَعَ توماس وَإِخْوَتِها ٱلثَّلاثَةِ ٱلآخَرينَ ، وَكانَتِ ٱلصَّغيرَةُ جين نائِمَةً فَوْقَ كِتابٍ مَفْتوحٍ عَلى صَفْحَةٍ مَليئَةٍ بِٱلأَرْقامِ .

وَعِنْدَما دَخَلَ باونْدِرْبي ٱلْحُجْرَةَ قالَ لِتوماس وَلويزا : « إِنَّ ٱلأَمْرَ عَلى ما يُرامُ ، وَسَوْفَ يَعْفو عَنْكُما والِدُكُما هٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ . وَٱلآنَ يا لويزا ! أَلا أَسْتَحِقُّ قُبْلَةً ؟ »

فَرَفَعَتْ خَدَّها نَحْوَهُ ، دونَ أَنْ تَرْفَعَ عَيْنَيْها ، فَقَبَّلَها ، وَقالَ لَها باونْدِرْبي : « أَنْتِ دائِمًا أَثيرَةٌ لَدَيَّ يا لويزا ! إِلى ٱللِّقاءِ ! »

وَما إِنِ ٱنْصَرَفَ حَتّى بَدَأَتِ ٱلْفَتاةُ تَحُكُّ خَدَّها لِتُزيلَ آثارَ ٱلْقُبْلَةِ ، فَٱحْمَرَّ خَدُّها مِنْ أَثَرِ ذٰلِكَ ، فَقالَ لَها أَخوها مُداعِبًا : « أَخْشى أَنْ تُحْدِثي نُقْرَةً في وَجْهِكِ وَأَنْتِ تَفْعَلينَ هٰذا يا لو ! »

رَدَّتْ عَلَيْهِ قائِلَةً : « لَكَ أَنْ تَقْطَعَ بِٱلسِّكّينِ ٱلْمَوْضِعَ ٱلَّذي قَبَّلَني فيهِ ، وَلَنْ أَصْرُخَ ! »

الفَصْلُ ٱلثّالِثُ

بَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ كانَ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي وَٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند يُسْرِعانِ في طَريقِهِما إِلى مَدينَةِ كوكْتاون ، وَكانَتْ وِجْهَتُهُما شارِعَ بود حَيْثُ يَسْكُنُ كُلٌّ مِنَ ٱلسَّيِّدِ جوب وَٱبْنَتِهِ سيسيليا .

كانَتْ مَدينَةُ كوكْتاون تُمَثِّلُ ٱلْقُبْحَ بِعَيْنِهِ ، وَلَوْ خَطَرَ لَكَ أَنَّ بِها أَيَّ سِمَةٍ مِنْ سِماتِ ٱلْجَمالِ لَكُنْتَ في ذٰلِكَ مُخْطِئًا كُلَّ ٱلْخَطَإِ ، فَلَيْسَ بِها مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ ٱلْجَمالِ ، أَوْ أَيُّ لَمْحَةٍ مِنْ لَمَحاتِ ٱلْخَيالِ . فَمَباني ٱلْمَدينَةِ ٱلَّتي بُنِيَتْ قَديمًا بِٱلطّوبِ ٱلأَحْمَرِ قَدْ تَحَوَّلَ لَوْنُها إِلى ٱللَّوْنِ ٱلأَسْوَدِ بِمُضِيِّ ٱلزَّمَنِ ، وَلِما تَراكَمَ عَلَيْها مِنْ أَتْرِبَةٍ وَدُخانٍ . فَكوكْتاون هِيَ مَدينَةُ ٱلْمَصانِعِ وَٱلآلاتِ وَٱلْماكيناتِ وَٱلْمَداخِنِ ٱلْعالِيَةِ ، وَتَمْتَلِئُ أَجْواؤُها بِسُحُبِ ٱلدُّخانِ وَٱلْبُخارِ . فَٱلآلَةُ ٱلْبُخارِيَّةُ مَعْبودُ ٱلْمَدينَةِ ، وَبِها قَناةٌ سَوْداءُ ٱللَّوْنِ ، وَنَهْرٌ ٱحْمَرَّتْ مِياهُهُ مِنْ جَرّاءِ ما يُلْقى فيهِ مِنْ مُخَلَّفاتِ مَصانِعِ ٱلْمَلابِسِ وَٱلْمَنْسوجاتِ .

وَبِٱلْمَدينَةِ ٱلْعَديدُ مِنَ ٱلشَّوارِعِ ٱلْمُتَّسِعَةِ ٱلْمُتَشابِهَةِ ، وَٱلْعَديدُ مِنَ ٱلشَّوارِعِ ٱلضَّيِّقَةِ ٱلْمُتَشابِهَةِ وَٱلْمُزْدَحِمَةِ بِٱلْمَنازِلِ ٱلَّتي يَتَشابَهُ ٱلسُّكّانُ ٱلَّذينَ يَعيشونَ فيها . فَهُمْ يَبْدَأونَ أَعْمالَهُمْ يَوْمِيًّا في ٱلسّابِعَةِ صَباحًا ، وَيَعودونَ إِلى مَنازِلِهِمْ في ٱلسّابِعَةِ مَساءً . وَلا يَخْتَلِفُ ٱلْيَوْمُ بِٱلنِّسْبَةِ لِهٰؤُلاءِ ٱلنّاسِ في شَيْءٍ عَنِ ٱلأَمْسِ ، وَلا ٱلْعامُ ٱلْحالِيُّ عَنِ ٱلْعامِ ٱلْماضي أَوِ ٱلْمُقْبِلِ في قَليلٍ أَوْ كَثيرٍ . وَتِلْكَ حَقائِقُ لا يَدْهَشُ لَها

سُكّانُ ٱلمَدينَةِ ؛ فَٱلحَياةُ في كُوكْتاون هِيَ ٱلعَمَلُ وَلَيسَتِ ٱلرّاحَةَ ، وَٱلعَمَلُ يَعْني ٱلحَياةَ لِيَوْمٍ آخَرَ أَوْ لِسَنَةٍ أُخرى .

وَبِٱلمَدينَةِ ثَماني عَشْرَةَ دارًا لِلْعِبادَةِ بُنِيَتْ بِٱلطّوبِ ٱلأَحْمَرِ ، وَكُلُّها مُتَشابِهَةٌ ، وَلا تَخْتَلِفُ في شَيْءٍ عَنِ ٱلسِّجْنِ ٱلَّذي بُنِيَ بِدَوْرِهِ بِٱلطّوبِ ٱلأَحْمَرِ أَيْضًا ؛ وَمَبْنى ٱلبَلَدِيَّةِ كانَ مِثْلَ ٱلمُسْتَشْفى وَٱلسِّجْنِ في ٱلشَّكْلِ وَٱلحَجْمِ وَلَوْنِ ٱلطّوبِ . وَلَمْ يَكُنْ يَتَجَلّى في هٰذِهِ ٱلمَباني ، وَفي عُقولِ ٱلنّاسِ ، سِوى ٱلواقِعِ ، ٱلواقِعِ ، ٱلواقِعِ .

وَرَغْمَ أَنَّ كُوكْتاون هِيَ مَدينَةُ ٱلواقِعِ وَٱلحَقائِقِ ، فَقَدْ كانَ لَها مَشاكِلُها ؛ فَٱلعُمّالُ وَعائِلاتُهُمْ لا يَتَرَدَّدونَ عَلى دورِ ٱلعِبادَةِ عَلى ٱلإِطْلاقِ ، بَلْ إِنَّهُمْ يُسْرِفونَ في ٱلشُّرْبِ ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلشّايُ أَوِ ٱلقَهْوَةُ شَرابَهُمْ ، حَتّى إِنَّ أَحَدَ أَعْضاءِ ٱلبَرْلَمانِ صَرَّحَ قائِلًا :

« إِنَّنا في حاجَةٍ إِلى قَوانينَ جَديدَةٍ لِنُجْبِرَ هٰؤُلاءِ ٱلنّاسَ عَلى ٱرْتِيادِ دورِ ٱلعِبادَةِ بِقُوَّةِ ٱلقانونِ ، وَنَحُدَّ مِنْ إِسْرافِهِمْ في ٱلشَّرابِ بِقُوَّةِ ٱلقانونِ . »

وَيَتَّفِقُ أَهالي كُوكْتاون مَعَ لويزا وَتوماس غرادْغرايْند في سِمَةٍ واحِدَةٍ ، وَهِيَ ٱفْتِقادُهُمْ لِشَيْءٍ مُهِمٍّ في حَياتِهِمْ ، وما يَفْتَقِدونَهُ لَيْسَ حَقيقَةً أُخْرى بِطَبيعَةِ ٱلحالِ ؛ فَلَدَيْهِمْ مِنَ ٱلحَقائِقِ أَكْثَرُ مِمّا يَحْتاجونَ . وَهٰذا يَدْعونا إِلى ٱلتَّساؤُلِ : هَلْ ما يَفْتَقِدونَهُ هُوَ ٱلخَيالُ ؟ أَمْ لَعَلَّهُ ٱلسُّرورُ وَٱلمُتْعَةُ ، كَتِلْكَ ٱلَّتي يَجِدونَها في سيرْكِ سْلاري ؟

مَرَّ باوِنْدِرْبي وَغرادْغرايْند بِٱلسّيرْكِ وَلٰكِنْ دونَ أَنْ يُلْقِيَ أَيٌّ مِنْهُما نَظْرَةً واحِدَةً عَلَيْهِ ، وَٱسْتَمَرّا في طَريقِهِما حَتّى وَصَلا إِلى نِهايَةِ شارِعِ بود ، حَيْثُ يَسْكُنُ ٱلسَّيِّدُ

جوب وَٱبْنَتُهُ سيسيلْيا . وَفَجْأَةً أَقْبَلَتِ ٱلفَتاةُ سيسيلْيا تَجْري مِنْ ناصِيَةِ ٱلطَّريقِ ، فَعَرَفَها ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند عَلى ٱلفَوْرِ ، وَصاحَ بِها : « قِفي ؛ إِنَّنا نُريدُكِ ! »

ٱسْتَدارَتِ ٱلفَتاةُ رَقْمُ عِشْرينَ وَعادَتْ إِلَيْهِما ، وَقالَتْ في صَوْتٍ لاهِثٍ : « نَعَمْ يا سَيِّدي . »

قالَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند : « إِنَّنا نَبْحَثُ عَنْ والِدِكِ جوب ، وَعَلَيْكِ أَنْ تَصْحَبينا إِلى غُرْفَتِهِ ؛ لِأَنَّنا نُريدُ أَنْ نَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ . »

فَرَدَّتْ سيسي قائِلَةً : « سَأَفْعَلُ ذٰلِكَ يا سَيِّدي ، وَلٰكِنْ إِنْ سَمِعْتُما نُباحَ كَلْبٍ فَلا تَفْزَعا ، إِنَّهُ مِريلِغز كَلْبُ والِدِيَ ٱلمُدَرَّبُ . إِنَّهُ لا يَعَضُّ عَلى ٱلإِطْلاقِ . »

وَلٰكِنَّ ٱلرَّجُلَيْنِ عِنْدَما وَصَلا ٱلمَنْزِلَ لَمْ يَجِدا ٱلكَلْبَ وَلا صاحِبَهُ هُناكَ ، فَطَلَبَتْ إِلَيْهِما سيسي أَنْ يَجْلِسا وَيَنْتَظِرا دَقيقَةً واحِدَةً حَتّى تَذْهَبَ وَتَبْحَثَ عَنْ والِدِها ، ثُمَّ أَحْضَرَتْ لَهُما كُرْسِيَّيْنِ ، وَخَرَجَتْ بِسُرْعَةٍ مِنَ ٱلغُرْفَةِ .

بَعْدَ دَقيقَةٍ واحِدَةٍ دَخَلَ ٱلغُرْفَةَ شابٌّ مُتَوَسِّطُ ٱلقامَةِ ، تَبْدو عَلَيْهِ عَلاماتُ ٱلقُوَّةِ ٱلجَسَدِيَّةِ ؛ فَصَدْرُهُ وَظَهْرُهُ وَرِجْلاهُ تَكادُ تُمَزِّقُ ، مِنْ فَرْطِ قُوَّتِهِ ، ٱلبِذْلَةَ ٱلَّتي يَرْتَديها .

كانَ هٰذا ٱلشّابُّ هُوَ ٱلسَّيِّدَ تشيلْدرز ٱلرَّجُلَ ٱلقَوِيَّ في سيرْكِ سْلاري . وَقَدْ قَدَّمَ نَفْسَهُ لِلزّائِرَيْنِ ، ثُمَّ سَأَلَهُما إِنْ كانا يَرْغَبانِ في مُقابَلَةِ ٱلسَّيِّدِ جوب ، فَرَدَّ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند بِٱلإِيجابِ ، وَأَضافَ قائِلًا : « لَقَدِ ٱنْصَرَفَتِ ٱبْنَتُهُ لِتَبْحَثَ عَنْهُ ، وَلَيْسَ لَدَيْنا في حَقيقَةِ ٱلأَمْرِ وَقْتٌ لِنُضَيِّعَهُ . هَلْ لَكَ أَنْ تَنْقُلَ إِلَيْهِ رِسالَةً مِنّا ؟ »

قالَ باوِنْدِرْبي : « إِنَّنا مِنْ طِرازِ أُولٰئِكَ ٱلنّاسِ ٱلَّذينَ يَعْرِفونَ قيمَةَ ٱلوَقْتِ ، أَمّا

أَنْتُمْ ، أَيُّها ٱلشَّبابُ ، فَلا تَعْرِفونَ قيمَةَ ٱلْوَقْتِ . »

فَرَدَّ ٱلسَّيِّدُ تشيلْدَرْز قائِلًا : « إِذًا لا تُضَيِّعْ وَقْتَكَ . » وَٱسْتَدار ناحِيَةَ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند وَقالَ : « إِنَّ والِدَ ٱلْفَتاةِ قَدْ ذَهَبَ يا سَيِّدي . »

فَرَدَّ غرادْغرايْند مُتَسائِلًا : « ذَهَبَ ؟ أَيْنَ ذَهَبَ ؟ »

فَرَدَّ ٱلسَّيِّدُ تشيلْدَرْز : « لَقَدْ تَرَكَ ٱلسيرْكَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْظَ بِإِعْجابِ جُمْهورِ ٱلسيرْكِ طَوالَ ٱلْأَسابيعِ ٱلْماضِيَةِ ؛ لِهٰذا فَقَدْ تَرَكَ ٱلْعَمَلَ بِهِ . »

قالَ باونْدِرْبي لِغرادْغرايْند : « إِنَّنا بَيْنَ قَوْمٍ غُرَباءَ . جوب لَمْ يَكُنْ مَحْبوبًا ؛ وَلِهٰذا هَرَبَ . رَجُلٌ مِثْلي ٱرْتَفَعَ بِنَفْسِهِ ... »

فَقاطَعَهُ تشيلْدَرْز قائِلًا : « غُضَّ مِنْ كِبْرِيائِكَ إِذًا قَليلًا . »

وَتَساءَلَ غرادْغرايْند : « وَلٰكِنْ ماذا بِشَأْنِ ٱلْفَتاةِ ٱبْنَتِهِ ؟ هَلْ تَرَكَها هُنا ؟ »

أُجابَ تشيلْدَرْز : « يُؤْسِفُني هٰذا . لَقَدْ كانَ هُوَ وَٱبْنَتُهُ شَديدَيِ ٱلتَّعَلُّقِ أَحَدُهُما بِٱلْآخَرِ ، وَلٰكِنَّ ٱلْأَبَ — وَقَدْ تَقَدَّمَ بِهِ ٱلْعُمْرُ — لَمْ يَعُدْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ في ٱلسيرْكِ ؛ وَهٰذا ما جَعَلَهُ يَشْعُرُ بِٱلْخَجَلِ مِنْ نَفْسِهِ . »

قالَ غرادْغرايْند بِدَهْشَةٍ : « أَلِهٰذا هَرَبَ وَتَرَكَها خَلْفَهُ ؟ »

لَقَدْ كانَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند رَبَّ أُسْرَةٍ ، رَغْمَ أَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ ؛ لِهٰذا فَقَدْ شَعَرَ أَنَّ ٱلْفَتاةَ رَقْمَ عِشْرينَ قَدْ أَصْبَحَتْ وَحيدَةً ٱلْآنَ في ٱلْحَياةِ .

قالَ تشيلْدَرْز : « لَقَدْ شَعَرَ جوب بِٱلْخَجَلِ مِنْ نَفْسِهِ حَتّى إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكانِهِ

ٱللِّقاءُ مَعَ ٱبْنَتِهِ . لَقَدْ كانَ يُحِبُّها لِدَرَجَةِ أَنَّهُ ... »

وَقاطَعَهُ باونْدِرْبي في صَوْتٍ كَٱلرَّعْدِ قائِلًا : « هَرَبَ مِنْها ! عَظيمٌ ! هٰذا عَظيمٌ ! سأَقولُ لَكَ شَيْئًا أَيُّها ٱلشّابُّ ، شَيْئًا قَدْ تَدْهَشُ لِسَماعِهِ . إِنَّني أَفْهَمُ هٰذِهِ ٱلْأَشْياءَ . لَقَدْ تَرَكَتْني أُمّي وَهَرَبَتْ مِنّي . »

قالَ تشيلْدَرْز : « إِنَّ هٰذا لا يُثيرُ دَهْشَتي . لَقَدْ فَعَلَتْ والِدَتُكَ ما كانَ عَلَيْها أَنْ تَفْعَلَهُ ، وَلٰكِنْ لا تَصِحْ بِهٰذا ٱلشَّكْلِ فَٱلْمَبْنى لَيْسَ قَوِيًّا . إِنِ ٱسْتَمْرَرْتَ في ٱلصِّياحِ عَلى هٰذا ٱلنَّحْوِ فَقَدْ يَنْهارُ ٱلسَّقْفُ عَلَيْنا . » ثُمَّ ٱسْتَدارَ مُوَجِّهًا حَديثَهُ إِلى غرادْغرايْند : « لَقَدْ كانَ مُكْتَئِبًا طَوالَ ٱلْيَوْمِ ، وَٱنْصَرَفَ قَبْلَ أَنْ تَعودَ سيسي مِنَ ٱلْمَدْرَسَةِ ، وَقَدْ أَخَذَ كَلْبَهُ مَعَهُ . إِنَّ سيسي لَنْ تُصَدِّقَ أَنَّ والِدَها قَدْ تَرَكَها . »

تَساءَلَ غرادْغرايْند : « وَلِمَ لا تُصَدِّقُ ذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ تشيلْدَرْز : « لِأَنَّهُما كانا وَثيقَيِ ٱلصِّلَةِ ، وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُما أَنِ ٱفْتَرَقا مِنْ قَبْلُ . مِسْكينَةٌ سيسي ! إِنَّنا لَمْ نُعَلِّمْها شَيْئًا بِٱلسيرْكِ ، فَوالِدُها جوب لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ في أَنْ تَعْمَلَ بِٱلسيرْكِ عَلى ٱلْإِطْلاقِ . لَقَدْ كانَ يَوَدُّ أَنْ يُوَفِّرَ لَها ٱلتَّعْليمَ حَتّى ... »

وَقاطَعَهُ غرادْغرايْند مُبْدِيًا إِعْجابَهُ بِتَفْكيرِ والِدِها وَسَدادِ رَأْيِهِ .

وَٱسْتَمَرَّ تشيلْدَرْز في حَديثِهِ قائِلًا : « نَعَمْ ، لَقَدْ كانَ يَشْعُرُ بِٱلسَّعادَةِ عِنْدَما ٱلْتَحَقَتِ ٱبْنَتُهُ بِٱلْمَدْرَسَةِ . وَإِنَّنا بِٱلطَّبْعِ سَنُغادِرُ كوكْتاون ٱلشَّهْرَ ٱلْقادِمَ . »

ثُمَّ نَظَرَ إِلى غرادْغرايْند وَقالَ : « إِنْ كُنْتَ يا سَيِّدي قَدْ جِئْتَ هُنا لِتَمُدَّ يَدَ ٱلْمُساعَدَةِ لِهٰذِهِ ٱلْفَتاةِ ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ سَيَكونُ مِنْ حُسْنِ طالِعِها . »

رَدَّ غرادْغرايْند قائِلًا : « إنَّ مَدْرَسَتي مُخَصَّصَةٌ لِتَعْليمِ أطْفالِ مَدينَةِ كوكْتاون ، وَقَدْ كُنْتُ عازِمًا عَلى أنْ أُخْبِرَ جوب بِأنَّنا لا نُريدُ أنْ يَكونَ بِآلمَدْرَسَةِ أحَدٌ مِنْ أبْناءِ آلسيرْكِ . وَلٰكِنِ آلآنَ ، إذا كانَ وَالِدُها قَدْ تَرَكَها حَقيقَةً فَرُبَّما ... »

وَنَظَرَ غرادْغرايْند إلى باوِنْدِرْبي وَقالَ لَهُ : « باوِنْدِرْبي أُريدُ مَشورَتَكَ . » وَآلْتَفَتَ إلى تشيلْدَرْز وَطَلَبَ إلَيْهِ أنْ يَتْرُكَهُما وَحْدَهُما لِفَتْرَةٍ بَسيطَةٍ ؛ فَآنْصَرَفَ آلأخيرُ وَوَقَفَ بِبابِ آلغُرْفَةِ . وَتَرامَتْ إلى سَمْعِهِ بَعْضُ كَلِماتِ آلحَديثِ آلَّذي دارَ بَيْنَ آلرَّجُلَيْنِ ، وَمِنْ بَيْنِ ما سَمِعَهُ :

« لا ! أنا أقولُ لا يا غرادْغرايْند ! » ، « مِثْلُ لويزا ... نِهايَةٌ لِحَياةٍ شِرّيرَةٍ يا باوِنْدِرْبي . إنّي آمُلُ أنْ ... »

وَفي تِلْكَ آلأثْناءِ كانَ قَدْ تَجَمَّعَ خارِجَ آلغُرْفَةِ نَفَرٌ مِنْ أبْناءِ آلسيرْكِ ، وَوَقَفوا مَعَ آلسَّيِّدِ تشيلْدَرْز . وَكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَخْصِيّاتٌ غَريبَةٌ كَراكِبي آلخَيْلِ ، وَمُدَرِّبي آلحَيَواناتِ ، وَآلرّاقِصينَ وَآلمُغَنّينَ . كَما كانَ بَيْنَهُمْ نِساءٌ بَديناتٌ وَأُخْرَياتٌ نَحيفاتٌ ، بَعْضُهُنَّ عَلى قِسْطٍ مِنَ آلجَمالِ ، وَبَعْضُهُنَّ قَبيحاتٌ . وَلٰكِنَّهُمْ كانوا مُتَّفِقينَ في صِفَةٍ واحِدَةٍ ، وَهِيَ أنَّهُمْ كانوا بُسَطاءَ وَوُدَعاءَ مِثْلَ آلأطْفالِ ، وَكانَتْ في أعْيُنِهِمْ نَظَراتٌ تَنِمُّ عَنِ آلأمانَةِ وَآلشَّفَقَةِ ، وَكانوا عَلى أتَمِّ آسْتِعْدادٍ لِمُساعَدَةِ آلآخَرينَ مَهْما كانَ آلثَّمَنُ .

وَأخيرًا جاءَ آلسَّيِّدُ سْلاري آلبَدينُ . وَفَوْرَ دُخولِهِ آلغُرْفَةَ وَجَّهَ حَديثَهُ إلى غرادْغرايْند قائِلًا : « هَلْ سَمِعْتَ يا سَيِّدي بِرَحيلِ جوب وَكَلْبِهِ ؟ تُرى هَلْ سَبَبُ مَجيئِكَ مُتَعَلِّقٌ بِآلفَتاةِ ؟ »

أجابَ غرادْغرايْند : « نَعَمْ ، وَسَوْفَ أعْرِضُ آقْتِراحًا بِشَأْنِها عِنْدَما تَعودُ . »

فَأبْدى سْلاري سَعادَتَهُ لِسَماعِ ذٰلِكَ ، وَقالَ : « إنَّني لا أُريدُ بِآلضَّبْطِ أنْ أتَخَلَّصَ مِنْها ، فَثَمَّةَ نَوْعٌ مِنَ آلقانونِ بَيْنَ أفْرادِ آلسيرْكِ ، هُوَ أنَّنا نَرْغَبُ في مَدِّ يَدِ آلمُساعَدَةِ لَها . »

« بِآلطَّبْعِ نَعَمْ . »

« إنَّ ما لَدَيْكَ مِنْ خُطَطٍ وَأفْكارٍ بِشَأْنِ سيسي قَدْ يَكونُ أفْضَلَ مِمّا لَدَيَّ ؛ لِأنَّها إذا بَقِيَتْ مَعَنا فَسَيَكونُ عَلَيْها أنْ تَعْمَلَ بِآلسيرْكِ ، كَما أنَّ عَلَيْها أنْ تَبْدَأَ مِنْ أوَّلِ آلسُّلَّمِ ، وَلَمْ يَكُنْ هٰذا ما أرادَهُ لَها والِدُها . »

وَعادَتْ سيسي في تِلْكَ آللَّحْظَةِ ، فَدَفَعَها آلمَوْجودونَ إلى داخِلِ آلغُرْفَةِ ، ثُمَّ آلْتَفّوا حَوْلَ آلبابِ .

وَآنْفَجَرَتْ سيسي باكِيَةً وَهِيَ تَقولُ : « آهِ يا أبي آلعَزيزَ ! يا أبي آلطَّيِّبَ آلحَنونَ ! ماذا سَتَفْعَلُ بِدوني ؛ إذْ لَنْ يَكونَ لَكَ حَوْلٌ وَلا قُوَّةٌ ؟ »

قالَتْ ذٰلِكَ وَآلدُّموعُ تَنْسابُ عَلى وَجْنَتَيْها ، وَهُنا صاحَ آلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي قائِلًا : « آلآنَ آسْمَعوا جَميعًا ! إنَّنا نُضَيِّعُ آلوَقْتَ . لَقَدْ سَبَقَ أنْ هَرَبَتْ أُمّي وَتَرَكَتْني ، وَآلآنَ يَفْعَلُ والِدُ تِلْكَ آلفَتاةِ آلشَّيْءَ نَفْسَهُ ؛ فَآلحَقائِقُ واضِحَةٌ أمامَنا . لَقَدْ تَرَكَها وَلَنْ يَعودَ إلَيْها ، وَلَنْ تَراهُ مَرَّةً أُخْرى . »

وَهُنا سَمِعَ صَوْتًا يَتَساءَلُ : « مَنْ يَكونُ هٰذا ؟ هَلْ يَظُنُّ هٰذا آلرَّجُلُ أنَّهُ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ ؟ »

وَصاحَتِ آلنِّسْوَةُ : « يا لَلْعارِ ! أيَّةُ حَقائِقَ هٰذِهِ ؟ ! إنَّها لَقَسْوَةٌ ! »



وَهُنا ٱقْتَرَبَ سْلارِي مِنَ ٱلسَّيِّدِ باونْدِرْبِي وَهَمَسَ قائِلًا : « إنَّ قَوْمي لا يَميلونَ إلى ٱلأذى بِطَبْعِهِمْ ، وَلٰكِنَّ هُناكَ نافِذَةً مَفْتوحَةً يا سَيِّدي ، وَإنْ قُلْتَ شَيْئًا أكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، فَإنَّني أخْشى أنْ يُلْقوا بِكَ مِنْها ؛ لِذا ٱعْمَلْ بِنَصيحَتي وَٱلْزَمِ ٱلْهُدوءَ . »

وَبِٱلْفِعْلِ عَمِلَ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبِي بِهٰذِهِ ٱلنَّصيحَةِ ، وَلٰكِنَّ وَجْهَهُ ٱكْتَسى بِٱللَّوْنِ ٱلأحْمَرِ مِنْ فَرْطِ ٱلِٱنْفِعالِ حَتّى كادَ يَنْفَجِرُ .

قالَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند : « لَقَدْ رَحَلَ ٱلرَّجُلُ ، وَقَدْ يَعودُ مَرَّةً ثانِيَةً . وَلٰكِنَّنا لا نَعْرِفُ مَتى سَيَعودُ ، وَنَحْنُ نَتَّفِقُ جَميعًا عَلى ذٰلِكَ . »

رَدَّ سْلارِي قائِلًا : « إنَّ ما تَقولُهُ صَحيحٌ . »

قالَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند : « كُنْتُ قَدْ قَرَّرْتُ أنْ أفْصِلَ سِيسِيلْيا مِنَ ٱلْمَدْرَسَةِ ؛ وَلٰكِنْ عَلى ضَوْءِ ٱلظُّروفِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلآنَ ، فَٱلْفَتاةُ لَمْ تَعُدْ تَنْتَمي إلى ٱلسِّيرْكِ بَعْدَ أنْ تَرَكَها وَالِدُها ، وَإنَّني عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِأنْ أشْمَلَها بِرِعايَتي ، وَأوَفِّرَ لَها ٱلْمَسْكَنَ ، وَأتَوَلّى تَعْليمَها . وَإنْ وافَقَتْ عَلى ذٰلِكَ ، فَلَها أنْ تَأْتِيَ مَعي عَلى ٱلْفَوْرِ ؛ وَلٰكِنْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أيُّها ٱلسّادَةُ وَٱلسَّيِّداتُ ألّا تَكْتُبوا إلَيْها ، كَما يَجِبُ عَلَيْها ألّا تُراسِلَكُمْ . إنَّ هٰذا كُلُّ ما لَدَيَّ لِأقولَهُ . »

قالَ سْلارِي : « إنَّ هٰذا عَرْضٌ طَيِّبٌ يا سَيِّدي ، وَعَلَيَّ أنْ أتَّخِذَ قَراري بِشَأْنِهِ . وَأنْتِ أيْضًا يا سِيسِيلْيا عَلَيْكِ أنْ تُقَرِّري هَلْ تَرْغَبينَ أنْ تَعيشي مَعَ إيمّا غورْدُن ؟ وَأنْتِ تَعْرِفينَ بِطَبيعَةِ ٱلْحالِ نَوْعَ ٱلْعَمَلِ ٱلَّذي يَجِبُ عَلَيْكِ أنْ تَتَعَلَّميهِ ، كَما تَعْرِفينَ نَوْعَ ٱلْحَياةِ ٱلَّتي سَتَعيشينَها . أظُنُّ أنَّ هٰذا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ . »

قالَ غرادْغرايْند : « هٰذا مَعْقولٌ جِدًّا . وَتَذَكَّري يا آنِسَةُ جوب أنَّ تَعْليمَ ٱلْفَتاةِ

مُهِمٌّ ، وَأَنَّ والِدَكِ كانَ يَرْغَبُ أَنْ تَتَعَلَّمي ؛ أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ إِنَّ عَلَيْكِ أَنْ تَتَّخِذي قَرارَكِ ، وَعَلَيْكِ أَنْ تَتَأَكَّدي مِنْ طَبيعَةِ أَفْكارِكِ وَقَراراتِكِ يا آنِسَةُ جوب . »

كَفَّتْ سيسي عَنِ ٱلْبُكاءِ ، وَلٰكِنْ سُرْعانَ ما ٱنْفَجَرَتْ في ٱلْبُكاءِ مَرَّةً ثانِيَةً وَتَساءَلَتْ : « ماذا لَوْ عادَ والِدي ؟ أَوَدُّ أَنْ أَبْقى هُنا وَإِلّا فَكَيْفَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَجِدَني ؟ »

أَجابَها ٱلسَّيِّدُ غرادغرايند بِهُدوءٍ : « لا تَقْلَقي بِشَأْنِ هٰذا يا آنِسَةُ جوب . » وَلَمّا كانَ يُدْرِكُ ٱلْحَقائِقَ في لَمْحِ ٱلْبَصَرِ فَقَدْ قالَ مُسْتَطْرِدًا : « إِنَّ والِدَكِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَجِدَ سيرْكَ سْلاري بِسُهولَةٍ ، وَعِنْدَئِذٍ سَيَتَوَلّى ٱلسَّيِّدُ سْلاري إِبْلاغَهُ أَنَّكِ في مَنْزِلِ ٱلسَّيِّدِ توماس غرادغرايند ، بِمَدينَةِ كوكْتاون ، وَأَنا مَعْروفٌ لِلْجَميعِ ، وَلَنْ أَسْتَطيعَ أَنْ أُبْقِيَكِ مَعي إِذا ما أَرادَ والِدُكِ ٱسْتِعادَتَكِ . »

إِسْتَمَرَّتِ ٱلدُّموعُ تَنْسابُ عَلى وَجْنَتَيْ سيسي طَوالَ ٱلدَّقائِقِ ٱلْعَشْرِ أَوِ ٱلْخَمْسَ عَشْرَةَ ٱلتّالِيَةِ . لٰكِنَّ ٱلْكَثيرينَ طَبَعوا قُبُلاتِهِمْ عَلى وَجْنَتَيْها ، فَجَفَّفَتِ ٱلْقُبُلاتُ ما عَلَيْهِما مِنْ دُموعٍ . وَفي ٱلنِّهايَةِ كانَتْ سيسي مُسْتَعِدَّةً ، فَحَمَلَتْ حَقيبَةَ مَلابِسِها ٱلصَّغيرَةَ وَسْطَ أَصْواتٍ كَثيرَةٍ مِنْ حَوْلِها تُرَدِّدُ : « وَداعًا يا سيسيليا ! وَداعًا ياسيسي ! لا تَنْسَيْنا ! »

وَكانَتْ آخِرُ كَلِماتِ ٱلسَّيِّدِ سْلاري إِلى ٱلسَّيِّدِ غرادغرايند هِيَ : « إِنَّها لَنْ تَنْسانا يا سَيِّدي ؛ فَإِنَّنا نُسَلّي ٱلنّاسَ وَهٰذِهِ هِيَ مُهِمَّتُنا ، كَما أَنَّ ٱلنّاسَ في حاجَةٍ إِلى هٰذِهِ ٱلتَّسْلِيَةِ ؛ فَهُمْ لا يَسْتَطيعونَ أَنْ يَعْمَلوا طَوالَ ٱلْوَقْتِ . »

وَٱنْصَرَفَ ٱلسَّيِّدُ غرادغرايند وَٱلسَّيِّدُ باوندَرْبي وَقَدْ سارَتْ بَيْنَهُما ٱلْفَتاةُ رَقْمُ عِشْرينَ .

الفَصْلُ ٱلرّابِعُ

كانَ ٱلسَّيِّدُ باوندَرْبي عَزَبًا ؛ لِذا ٱسْتَخْدَمَ مُديرَةَ مَنْزِلٍ تُدْعى ٱلسَّيِّدَةَ سبارْسيت . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ عَمِلَتْ مُديرَةَ مَنْزِلٍ مِنْ قَبْلُ ؛ إِذْ كانَتْ تَنْتَمي إِلى عائِلَةٍ غَنِيَّةٍ وَمَشْهورَةٍ ، وَلٰكِنْ زَوْجَها ٱلسَّيِّدَ سبارْسيت ماتَ صَغيرَ ٱلسِّنِّ ، وَٱخْتَلَفَتْ مَعَ عائِلَتِها مِمّا ٱضْطَرَّها لِلْعَمَلِ .

وَكانَ ٱلسَّيِّدُ باوندَرْبي وَٱلسَّيِّدَةُ سبارْسيت شَخْصَيْنِ مُتَناقِضَيْنِ ؛ فَهِيَ تَفْخَرُ بِماضيها ٱلرّائِعِ ٱلْمَليءِ بِٱلثَّراءِ ، وَتَخْجَلُ مِنْ حاضِرِها . أَمّا هُوَ فَكانَ يَفْخَرُ بِأَنَّهُ كانَ فَقيرًا يَوْمًا ما ، وَٱعْتادَ أَنْ يَقولَ لِأَصْدِقائِهِ : « لَقَدْ صَعِدْتُ مِنْ لا شَيْءٍ إِلى مَكانَتي ٱلْحالِيَّةِ . أَمّا ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسيت فَإِنَّها بِكُلِّ ما لَها مِنْ مُمَيِّزاتٍ قَدْ هَبَطَتْ إِلى لا شَيْءٍ ! »

وَعِنْدَما غادَرَ ٱلسَّيِّدُ باوندَرْبي وَٱلسَّيِّدُ غرادغرايند شارِعَ بود ، أَخَذا سيسي مَعَهُما إِلى مَنْزِلِ ٱلسَّيِّدِ باوندَرْبي ، حَيْثُ قَضَتْ لَيْلَتَها . وَكانَ عَلى ٱلسَّيِّدِ غرادغرايند أَنْ يُعِدَّ لَها غُرْفَةً في سْتون لودْج .

وَفي صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي ، قالَ ٱلسَّيِّدُ باوندَرْبي لِلسَّيِّدَةِ سبارْسيت : « يَجِبُ أَنْ تَبْقى ٱلْفَتاةُ هُنا ، حَتّى يَأْتِيَ توم غرادغرايند . إِنَّ فِكْرَةَ إِقامَتِها هُناكَ تُقْلِقُني ؛ فَهِيَ فِكْرَةٌ غَيْرُ سَليمَةٍ ، كَما أَنَّها لَيْسَتْ في مَصْلَحَةِ لويزا عَلى ٱلْإِطْلاقِ . »

قالَتْ : « آهِ يا سَيِّدي ، إِنَّكَ أَبٌ ثانٍ لِٱبْنَةِ غرادغرايند ! »

قال : « رُبما أكون أبًا ثانيًا بِالنِّسْبَةِ لِتوم ٱلصَّغيرِ يا سَيِّدَتي . فَإِنَّهُ سَيَعْمَلُ بِٱلْبَنْكِ قَريبًا ؛ وَلِذٰلِكَ فَمِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يَعيشَ مَعَنا عِنْدَئِذٍ . أَخْبِريني يا سَيِّدَتي : هَلْ تَعْرِفينَ شَيْئًا عَنْ أَهْلِ ٱلسِّيرْكِ ؟ »

أجابَتْ : « لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْكَ ٱلْقَليلَ عَنِ ٱلْحَياةِ ٱلْوَضيعَةِ ، يا سَيِّدي . »

ضَحِكَ باونْدِرْبي قائِلًا : « بِٱلطَّبْعِ نَعَمْ ؛ فَأَنْتِ وُلِدْتِ في أَحْضانِ ٱلْبَذَخِ ، أَمّا أَنا فَوُلِدْتُ في ٱلشّارِعِ . »

قالَتْ : « حَقًّا يا سَيِّدي ، لَقَدْ وُلِدْتُ في أَحْضانِ ٱلْبَذَخِ ، أَمّا أَنْتَ ... » وَفي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ، فُتِحَ ٱلْبابُ ، وَدَخَلَ مِنْهُ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند وَمَعَهُ ٱبْنَتُهُ لويزا .

وَتَصافَحَ ٱلرَّجُلانِ ، وَقَبَّلَ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي لويزا ، ثُمَّ دَخَلَتْ سيسي ٱلْغُرْفَةَ وَٱنْحَنَتْ في ٱحْتِرامٍ لِكُلٍّ مِنْهُما .

قالَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند : « حَسَنًا يا آنِسَةُ جوب ! لَقَدِ ٱتَّخَذْنا قَرارًا يَتَعَلَّقُ بِمُسْتَقْبَلِكِ . إِنَّكِ سَتُقيمينَ بِمَنْزِلي ، وَتَذْهَبينَ إِلى ٱلْمَدْرَسَةِ كُلَّ يَوْمٍ . أَمّا في ٱلْأَوْقاتِ ٱلَّتي لَنْ تَكوني فيها بِٱلْمَدْرَسَةِ ، فَيُمْكِنُكِ أَنْ تُعْنَي بِزَوْجَتي لِأَنَّها مَريضَةٌ . وَلَقَدْ أَخْبَرْتُ ٱبْنَتي ٱلْآنِسَةَ لويزا عَنْكِ . » ثُمَّ أَشارَ إِلى لويزا قائِلًا : « هٰذِهِ هِيَ لويزا . وَقَدْ أَخْبَرْتُها عَنْ حَياتِكِ بِٱلسِّيرْكِ ، تِلْكَ ٱلْحَياةِ ٱلَّتي ٱنْتَهَتِ ٱلْآنَ ، وَيَجِبُ أَلّا تَتَحَدَّثي عَنْها ثانِيَةً ، كَما يَجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تَبْدَئي ٱلْآنَ مَرْحَلَةَ تَعْليمِكِ ؛ فَإِنَّكِ لا تَعْرِفينَ شَيْئًا عَنِ ٱلْحَقائِقِ يا آنِسَةُ جوب . »

فَأَجابَتْ سيسي وَهِيَ تَنْحَني : « أَجَلْ يا سَيِّدي ، لا أَعْرِفُ عَنْها شَيْئًا . »

قالَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند : « سَوْفَ أُغَيِّرُ مِنْ ذٰلِكَ سَريعًا . » ثُمَّ ٱقْتَرَبَ مِنْها

وَهَمَسَ في أُذُنِها : « هَلْ تَسْتَطيعينَ ٱلْقِراءَةَ يا آنِسَةُ جوب ؟ »

قالَتْ : « نَعَمْ يا سَيِّدي . فَقَدْ كانَ والِدي أُمِّيًّا لا يُجيدُ ٱلْقِراءَةَ ؛ لِذا ٱعْتَدْتُ أَنْ أَقْرَأَ لَهُ ، وَكانَتْ تِلْكَ ٱللَّحَظاتُ ٱلَّتي كُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ فيها مِنْ أَسْعَدِ ٱللَّحَظاتِ ... » ثُمَّ أَجْهَشَتْ بِٱلْبُكاءِ ، فَنَظَرَتْ إِلَيْها لويزا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَسَأَلَها ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند : « وماذا كُنْتِ تَقْرَئينَ ؟ »

أَجابَتْ : « كُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ ٱلْقِصَصَ ٱلرّائِعَةَ يا سَيِّدي ، مِنْها ما كانَتْ تَحْكي عَنِ ٱلْجِنِّيّاتِ ٱلشِّرّيرَةِ وَٱلْحورِيّاتِ ٱلطَّيِّبَةِ . كَما قَرَأْتُ « روبِنْسون كْروزو » ، « وَرِحْلاتِ جَليڤَر » وَٱلْمَلِكَ ٱلَّذي كانَ لا يَلْبَسُ أَيَّةَ مَلابِسَ ، وَكُنّا نَتَساءَلُ .... »

صاحَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند : « كَفى ! هٰذا يَكْفي ! يَجِبُ أَلّا تَتَساءَلي يا آنِسَةُ جوب ! وَلا تَتَخَيَّلي أَبَدًا ! » ثُمَّ خاطَبَ باونْدِرْبي قائِلًا : « إِنَّ هٰذا أَمْرٌ خَطيرٌ يا سَيِّدُ باونْدِرْبي ؛ فَثَمَّةَ خَلَلٌ ما ، وَيَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُصْلِحَ هٰذا ٱلْخَلَلَ عَلى ٱلْفَوْرِ . »

فَأَجابَ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي : « لَقَدْ حَذَّرْتُكَ يا سَيِّدُ غرادْغرايْند . حَذَّرْتُكَ ٱللَّيْلَةَ ٱلْماضِيَةَ . إِنَّني ما كُنْتُ لِأَفْعَلَ ما تَفْعَلُهُ ، وَلٰكِنْ ... هٰذا شَأْنُكَ وَحْدَكَ فَٱمْضِ فيهِ ما دُمْتَ قَدْ عَزَمْتَ . »

وَبَعْدَ ذٰلِكَ بِقَليلٍ ٱصْطَحَبَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند وَٱبْنَتُهُ سيسيليا جوب مَعَهُما إِلى سْتون لودْج . وَكانَتِ ٱلِٱبْنَةُ صامِتَةً طَوالَ ٱلطَّريقِ ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّيِّدَ غرادْغرايْند أَخَذَ يُكَرِّرُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرى : « إِيّاكِ وَٱلتَّساؤُلَ يا آنِسَةُ جوب ! إِيّاكِ أَنْ تَتَساءَلي ! »

كانَ شِعارُ « إِيّاكَ وَٱلتَّساؤُلَ » هُوَ قانونَ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند ٱلَّذي يَحْكُمُ

ٱلحياةَ ، فَقَدْ كانَ سِرُّ ٱلتَّعْليمِ لَدَيْهِ أَنَّهُ إِذا ٱسْتَطاعَ ٱلشَّخْصُ أَنْ يَجْمَعَ ٱلأَعْدادَ وَيَطْرَحَها وَيَضْرِبَها وَيَقْسِمَها ، ٱسْتَطاعَ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ ، دونَ أَنْ يَكونَ بِحاجَةٍ إِلى ٱلتَّساؤُلِ .

وَٱلشَّيْءُ ٱلغَريبُ هُوَ أَنَّ كِبارَ رِجالِ مَدينَةِ كُوكْتاون كانوا يَتَّفِقونَ مَعَهُ في هٰذا ٱلمَبْدَإِ . وَلٰكِنْ لِماذا إِذًا كانَتِ ٱلمَكْتَبَةُ ٱلعامَّةُ في كُوكْتاون تَمْتَلِئُ بِكُلِّ أَنْواعِ ٱلكُتُبِ ؟ لَقَدْ كانَ ذٰلِكَ ما يُؤَرِّقُ ٱلسَّيِّدَ غرادغرايند وَيَمْلأُ حَياتَهُ بِٱلغَضَبِ وَٱلقَلَقِ . فَكانَ ٱلنّاسُ يَسْتَطيعونَ أَنْ يَقْرَأوا قِصَصَ ٱلجِنِّيّاتِ وَمُغامَراتِ رُوبِنْسون كروزو وَرِحْلاتِ جليفَر ، بَلْ وَكانوا يَقْرَأونَها بِٱلفِعْلِ وَيَنْفَعِلونَ بِها ، وَيَتَخَيَّلونَ ما فيها ، وَتَمْلأُ قُلوبَهُمْ بِٱلسَّعادَةِ أَحْيانًا وَبِٱلحُزْنِ أَحْيانًا أُخْرى . وَلٰكِنْ لَمْ تَكُنْ هُناكَ كُتُبٌ كَهٰذِهِ فى مَنْزِلِ ٱلسَّيِّدِ غرادغرايند ، وَلَمْ تَكُنْ لويزا أَوْ تُوم ٱلصَّغيرُ يَعْرِفانِ شَيْئًا عَنْ قِصَصِ ٱلحورِيّاتِ أَوْ تِلْكَ ٱلمُغامَراتِ .

ذاتَ مَساءٍ قالَ تُوم لِشَقيقَتِهِ ، وَكانا جالِسَيْنِ في حُجْرَةِ ٱلدِّراسَةِ : « لَقَدْ سَئِمْتُ حَياتِي يا لُو ، إِنِّي أَكْرَهُها ، وَأَكْرَهُ كُلَّ ٱلنّاسِ فيما عَداكِ أَنْتِ . »

فَسَأَلَتْهُ لويزا : « أَتَكْرَهُ سيسي أَيْضًا يا تُوم ؟ »

قالَ تُوم : « يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أَنْ أُنادِيَها بِٱسْمِ ٱلآنِسَةِ جوب ، وَأَنا أَكْرَهُ ذٰلِكَ ، وَأَظُنُّ أَنَّها تَكْرَهُني أَيْضًا . »

رَدَّتْ لويزا : « لا ، إِنَّها لا تَكْرَهُكَ يا تُوم ، وَأَنا واثِقَةٌ بِهٰذا . »

قالَ تُوم : « لا ، إِنَّها تَكْرَهُنا جَميعًا ، فَقَدْ أَسْقَمْناها ، وَصارَتْ تَبْدو أَكْبَرَ مِنْ عُمْرِها ، بَلْ لَقَدْ كادَ ٱلسَّقَمُ يَنالُ مِنْها بِٱلفِعْلِ . »

قالَتْ لويزا : « إِنَّ ٱلدُّروسَ تُرْهِقُها . »

قالَ تُوم : « إِنَّني حِمارٌ يا لُو ! فَأَنا كَٱلحِمارِ في غَبائِهِ ، وَأُحِسُّ بِما يُحِسُّ بِهِ ٱلحِمارُ ؛ بَلْ إِنَّني لا أَنالُ ٱلسَّعادَةَ إِلّا بِٱلقَدْرِ ٱلَّذي يَنالُهُ ٱلحِمارُ ، وَلا يَنْقُصُني سِوى أَنْ أَرْكُلَ ٱلنّاسَ . »

قالَتْ لويزا : « أَرْجو أَلّا أَكونَ مِمَّنْ سَتَرْكُلُهُمْ يا تُوم ! »

رَدَّ عَلَيْها قائِلًا : « كَلّا ، أَنا لا أَوَدُّ إِيذاءَكِ ، وَلا أَسْتَطيعُ أَنْ أَحْيا في هٰذا ... في هٰذا ٱلسِّجْنِ بِدونِكِ يا لُو . »

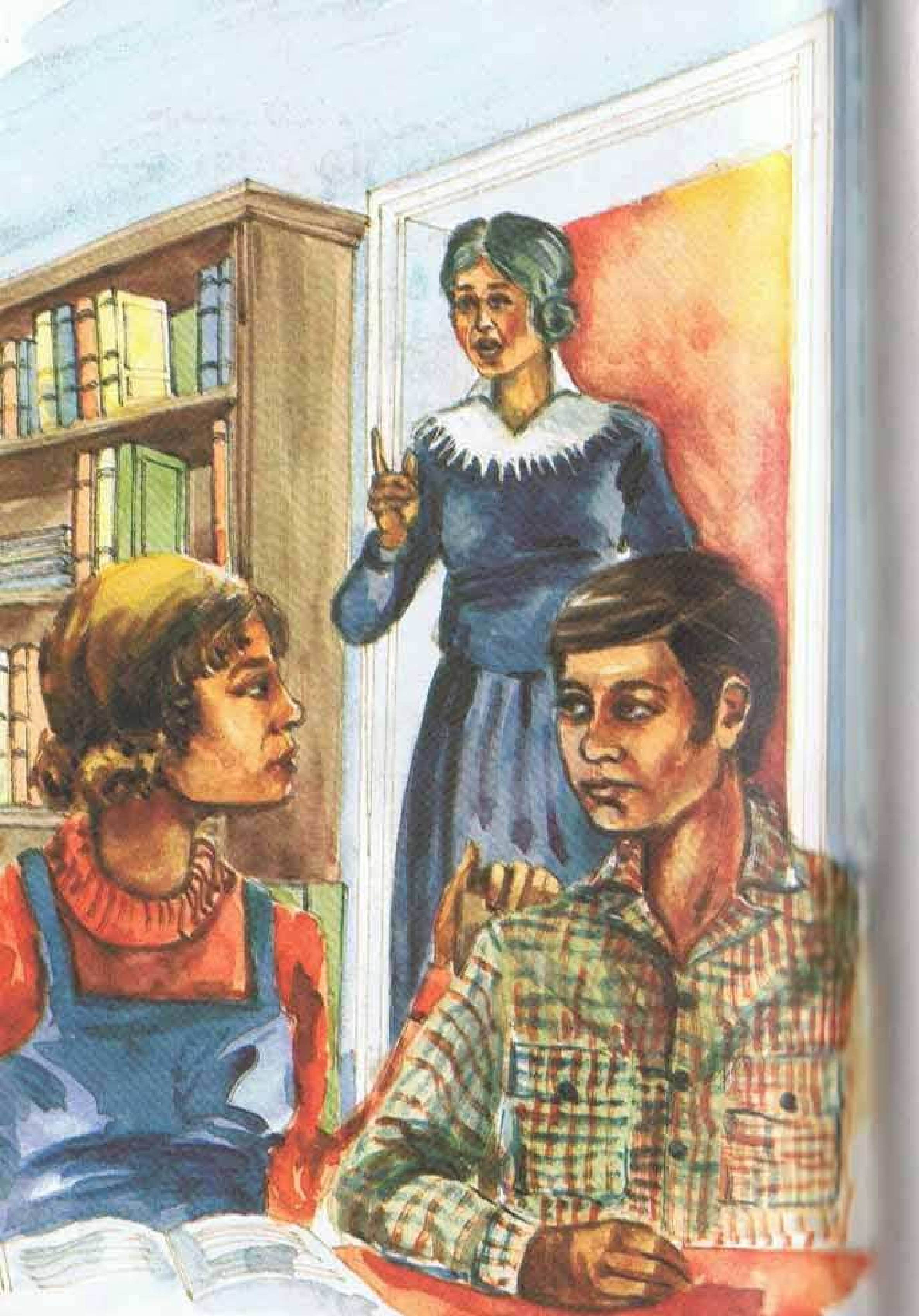
قالَتْ لويزا : « إِنَّني كَثيرًا ما أَتَساءَلُ لِماذا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَجْعَلَكَ أَسْعَدَ ؟ إِنَّني أَقْدَمُ في ٱلسِّنِّ ... وَلٰكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُقَدِّمَ ما يُسْعِدُ ٱلآخَرينَ . فَأَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْزِفَ لَكَ ٱلموسيقى أَوْ أُغَنِّيَ ، وَلا أَعْرِفُ أَيَّةَ قِصَصٍ لِأَحْكِيَها لَكَ ، بَلْ إِنَّني لا أَعْرِفُ مِنَ ٱلنّاسِ مَنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْهُمْ . »

قالَ تُوم : « وَكَذٰلِكَ أَنا ، إِنَّني حِمارٌ ، وَقَدْ صَمَّمَ أَبي عَلى أَنْ يَجْعَلَ مِنّي حِمارًا . »

قالَتْ لويزا : « يالَلْأَسَفِ ٱلشَّديدِ ! إِنَّنا لا نَعْرِفُ كَيْفَ نُساعِدُ أَنْفُسَنا . »

رَدَّ تُوم : « إِنَّكِ تَخْتَلِفينَ عَنّي ، فَأَنْتِ فَتاةٌ جَميلَةٌ . إِنَّكِ ٱلشَّيْءُ ٱلوَحيدُ ٱلمُمْتِعُ في حَياتي . وَيُمْكِنُكِ أَنْ تَجْعَلي هٰذا ٱلمَكانَ مُشْرِقًا وَتُشيعي فيهِ ٱلبَهْجَةَ . وَفي وُسْعِكِ أَنْ تَقوديني كَما تَشائينَ . »

قالَتْ لويزا : « لا أَعْتَقِدُ ذٰلِكَ يا تُوم ، وَلٰكِنَّكَ أَخي ٱلعَزيزُ . » وَذَهَبَتْ إِلَيْهِ



وَقَبَّلَتْهُ ، وَعادَتْ إلى مَكانِها قُرْبَ ٱلنَّافِذَةِ .

قالَ تُوم : « كَمْ أَوَدُّ أَنْ أَجْمَعَ ٱلحَقائِقَ وَٱلأَرْقامَ ٱلَّتي في ٱلعالَمِ ، وَكُلَّ مَنِ ٱكْتَشَفَها ، ثُمَّ أُحْرِقَهُمْ جَميعًا حَتّى يَصيروا رَمادًا ! وَلٰكِنّي عِنْدَما أَذْهَبُ لِأَعيشَ مَعَ باوِنْدِرْبي ٱلعَجوزِ فَسَوْفَ أُغَيِّرُ مِنْ بَعْضِ ٱلأُمورِ . »

سَأَلَتْهُ لوِيزا : « ماذا سَتَفْعَلُ يا تُوم ؟ »

أَجابَ : « سَوْفَ أُمَتِّعُ نَفْسي قَليلًا ، فَسَأَلْتَقي بِكَثيرٍ مِنَ ٱلنّاسِ ، وَسَأَفْعَلُ ٱلكَثيرَ ، وَسَوْفَ أُحاوِلُ أَنْ أَمْلَأَ ذٰلِكَ ٱلفَراغَ ٱلهائِلَ بِداخِلي . »

قالَتْ لوِيزا : « أَرْجو أَلّا يُخَيِّبَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي أَمَلَكَ ؛ فَهُوَ يُفَكِّرُ عَلى نَهْجِ تَفْكيرِ أَبي ، وَإِنْ كانَ أَكْثَرَ خُشونَةً مِنْهُ . وَلٰكِنَّهُ لا يَمْلِكُ نِصْفَ ما لَدى أَبي مِنْ حَنانٍ . »

ضَحِكَ تُوم وَقالَ : « إِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَعامَلَ مَعَ باوِنْدِرْبي ٱلعَجوزِ . »

سَأَلَتْهُ لوِيزا : « كَيْفَ ؟ هَلْ هٰذا سِرٌّ ؟ »

أَجابَ تُوم : « إِنْ كانَ سِرًّا ، فَهُوَ لَيْسَ بِبَعيدٍ . إِنَّهُ أَنْتِ يا لُو ! إِنَّكِ أَثيرَةٌ لَدَيْهِ ، وَسَوْفَ يَفْعَلُ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكِ ، وَأَنْتِ سَتَفْعَلينَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلي . وَإِذا وَضَعْنا ٱلنَّتيجَتَيْنِ مَعًا كَما يَقولُ أَبي ، فَسَتَكونُ ٱلنَّتيجَةُ أَنَّ باوِنْدِرْبي سَيَفْعَلُ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلي . »

اِنْتَظَرَ تُوم تَعْليقَها ، لٰكِنْ دونَ جَدْوى فَسَأَلَها : « هَلْ نِمْتِ يا لُو ؟ »

قالَتْ : « كَلّا ، وَلٰكِنّي كُنْتُ أَتَساءَلُ في نَفْسي ... »

فَجْأَةً صاحَتِ ٱلسَّيِّدَةُ غرادْغرايْند مِنْ خَلْفِهِما ، وَهِيَ تَقِفُ عَلى بابِ حُجْرَةِ ٱلدِّراسَةِ : « لا تَتَساءَلي يا لويزا . أَلا تَعْرِفينَ أَنَّ والِدَكِ قَدْ حَرَّمَ هٰذِهِ ٱلكَلِمَةَ ؟ »

قالَتْ لويزا : « بَلى يا أُمّاهُ . وَلٰكِنَّنا أَحْياءٌ ، وَأَنا لا أُفَكِّرُ إِلّا في أُمورِ ٱلحَياةِ . فَٱلحَياةُ قَصيرَةٌ ؛ أَ لَيْسَتْ كَذٰلِكَ ؟ فَما هِيَ ٱلأَشْياءُ ٱلجَميلَةُ ٱلَّتي يُمْكِنُ أَنْ نَفْعَلَها في حَياتِنا ٱلقَصيرَةِ ؟ »

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ غرادْغرايْند : « هُراءٌ ! يا لَرَأْسِيَ ٱلمِسْكينِ ، إِيّاكِ يا لويزا أَنْ تَسْأَلي والِدَكِ هٰذا ٱلسُّؤالَ ٱلسَّخيفَ . »

الفَصْـــلُ ٱلخامِـــسُ

كانَتْ حَياةُ سيسي في سْتون لودْج وَٱلمَدْرَسَةِ أَشْبَهَ بِعاصِفَةٍ مِنَ ٱلحَقائِقِ وَٱلأَرْقامِ ، وَكانَ ثَمَّةَ بَريقٌ أَشْبَهُ بِنَجْمٍ يَسْطَعُ وَسْطَ هٰذِهِ ٱلعاصِفَةِ ، ذٰلِكَ هُوَ أَمَلُها في أَنْ يَعودَ إِلَيْها والِدُها .

وَلٰكِنَّ ٱلسَّيِّدَ غرادْغرايْند دَأَبَ عَلى أَنْ يُرَدِّدَ أَمامَها قَوْلَهُ : « لَقَدْ ذَهَبَ والِدُكِ يا سيسيلْيا جوب ، وَلَنْ يَعودَ وَتِلْكَ هِيَ الحَقيقَةُ ٱلبَيِّنَةُ ٱلَّتي يَجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تُدْرِكيها . »

وَكانَتْ سيسي قَدْ بَدَأَتْ تَكْرَهُ ٱلحَقائِقَ ، كَما أَنَّ الحَقائِقَ كانَتْ قَدْ كَرِهَتْها بِدَوْرِها ، وَأَبَتْ أَنْ تَعْلَقَ بِذِهْنِها أَوْ تَسْتَقِرَّ بِرَأْسِها . وَأَبْلَغَ ٱلمُدَرِّسُ ٱلسَّيِّدَ غرادْغرايْند أَنَّ ٱلفَتاةَ رَقْمَ عِشْرينَ لا يُمْكِنُها أَنْ تَتَعَلَّمَ ٱلحِسابَ ، وَقالَ إِنَّها تَعْرِفُ شَكْلَ ٱلأَرْضِ ، وَلٰكِنَّها تَأْبى أَنْ تَعْرِفَ حَجْمَها عَلى وَجْهِ ٱلتَّحْديدِ .

وَأَجابَهُ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند بِقَوْلِهِ : « إِنَّ هٰذا ٱلأَمْرَ سَيِّئٌ ، وَلٰكِنْ عَلَيْكَ أَلّا تُعْطِيَها أَيَّ قِسْطٍ مِنَ ٱلرّاحَةِ ، وَعَلَيْكَ أَيْضًا أَنْ تُغَذِّيَها بِٱلحَقائِقِ بِصِفَةٍ دائِمَةٍ . »

كانَتِ ٱلحَياةُ في سْتون لودْج أَشْبَهَ بِٱلآلَةِ ٱلبُخارِيَّةِ ٱلَّتي تَعْمَلُ بِٱنْتِظامٍ وَكَفاءَةٍ ما دامَ لا يَعْبَثُ بِها أَحَدٌ ؛ لِذا لَمْ تَكُنْ لويزا تُبادِلُ سيسي ٱلحَديثَ كَثيرًا ، وَلٰكِنَّها عَرَضَتْ عَلَيْها ذاتَ لَيْلَةٍ أَنْ تَشْرَحَ لَها أَحَدَ دُروسِها ٱلصَّعْبَةِ ، وَما إِنِ ٱنْتَهَتْ مِنْ ذٰلِكَ حَتّى قالَتْ لَها سيسي : « يا لَكِ مِنْ فَتاةٍ ماهِرَةٍ يا آنِسَةُ لويزا ! كَمْ أَتَمَنّى لَوِ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ دُروسي بِشَكْلٍ أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ . »

فَأَجابَتْها لويزا : « إنَّ هٰذا لَنْ يَجْعَلَكِ أَحْسَنَ حالًا يا سيسي . »

قالَتْ سيسي « وَلَنْ يَجْعَلَني أَسْوَأَ حالاً يا آنِسَةُ لويزا . »

قالَتْ لويزا : « لا أَظُنُّ ذٰلِكَ ، فَأَنْتِ أَكْثَرُ رِقَّةً مِنّي في تَعامُلِكِ مَعَ أُمّي ، كَما أَنَّكِ تَحْتَرِمينَ ذاتَكِ أَكْثَرَ مِمّا أَحْتَرِمُ أَنا ذاتي . »

قالَتْ سيسي : « وَلٰكِنّي في غايَةِ ٱلغَباءِ يا آنِسَةُ لويزا ، وَكَثيرًا ما تَكونُ إجاباتي بِٱلمَدْرَسَةِ خاطِئَةً . فَهٰكَذا يَقولُ ٱلمُدَرِّسُ . »

طَلَبَتْ لويزا أَنْ تَذْكُرَ لَها بَعْضًا مِنْ تِلْكَ ٱلإجاباتِ ٱلخاطِئَةِ ، فَقالَتْ لَها : « لَقَدْ قالَ ٱلمُدَرِّسُ ٱليَوْمَ : ' إنَّ هٰذِهِ ٱلدَّوْلَةَ ٱلَّتي نَعيشُ فيها تَمْتَلِكُ خَمْسينَ مِلْيونًا مِنَ ٱلجُنَيْهاتِ . فَهَلْ هِيَ دَوْلَةٌ غَنِيَّةٌ وَسَعيدَةٌ ؟ أَنْتِ أَيَّتُها ٱلفَتاةُ رَقْمُ عِشْرينَ هَلْ تَعيشينَ في دَوْلَةٍ غَنِيَّةٍ وَسَعيدَةٍ ؟ ' »

سَأَلَتْها لويزا : « وَبِماذا أَجَبْتِ يا سيسي ؟ »

أَجابَتْ : « قُلْتُ إنَّني لا أَعْرِفُ ، فَأَنا لا أَعْرِفُ مَنِ ٱلَّذي يَمْلِكُ هٰذِهِ ٱلنُّقودَ ، كَما أَنَّني لا أَعْرِفُ إنْ كانَ شَيْءٌ مِنْها يَخُصُّني ، وَكانَتْ تِلْكَ ٱلإجابَةُ خَطَأً بِطَبيعَةِ ٱلحالِ ؛ لِأَنَّها لَمْ تَكُنْ مِنْ بَيْنِ ما وَرَدَ بِٱلكِتابِ مِنْ إجاباتٍ . »

قالَتْ لويزا : « نَعَمْ ، إنَّ تِلْكَ إجابَةٌ خاطِئَةٌ . »

وَٱسْتَطْرَدَتْ سيسي قائِلَةً : « ثُمَّ ٱخْتَبَرَني ٱلمُدَرِّسُ مَرَّةً أُخْرى ، وَقالَ : ' بِمَدينَةِ كوكْتاون نِصْفُ مِلْيونٍ مِنَ ٱلسُّكّانِ ، يَموتُ مِنْهُمْ ٱثْنا عَشَرَ شَخْصًا كُلَّ عامٍ ؛ لِأَنَّهُمْ لا يَجِدونَ طَعامًا . ثُمَّ سَأَلَني : هَلْ هٰذا أَمْرٌ حَسَنٌ أَمْ سَيِّئٌ ؟ ' فَأَجَبْتُهُ بِأَنَّ

هٰذا أَمْرٌ بالِغُ ٱلسّوءِ بِٱلنِّسْبَةِ لِهٰؤُلاءِ ٱلِاثْنَيْ عَشَرَ شَخْصًا وَلِعائِلاتِهِمْ . وَلٰكِنَّ ٱلإجابَةَ ٱلصَّحيحَةَ كانَتْ : إنَّ هٰذا حَسَنٌ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْهَمَ ... »

قالَتْ لويزا : « لَيْسَ مِنَ ٱلسَّهْلِ دائِمًا أَنْ نَفْهَمَ . »

وَلٰكِنَّ سيسي قالَتْ : « لَقَدْ كانَتْ رَغْبَةُ والِدي أَنْ أَتَعَلَّمَ ، كَما كُنْتُ بِدَوْري أَوَدُّ أَنْ أَتَعَلَّمَ ، وَلٰكِنّي لا أُوَفَّقُ أَبَدًا في مَعْرِفَةِ ٱلإجاباتِ ٱلصَّحيحَةِ لِما يُوَجَّهُ إلَيَّ مِنْ أَسْئِلَةٍ . »

فَسَأَلَتْها لويزا : « هَلْ كانَ والِدُكِ يَعْرِفُ ٱلإجاباتِ ٱلصَّحيحَةَ ؟ »

وَهُنا تَذَكَّرَتْ سيسي أَوامِرَ ٱلسَّيِّدِ غوادْغرانْد ٱلَّتي تَقْضي بِأَلّا تَتَحَدَّثَ عَنْ والِدِها أَوْ عَنْ حَياتِها ٱلسّابِقَةِ عَلى ٱلإطْلاقِ ؛ فَنَظَرَتْ إلى لويزا نَظْرَةً حَزينَةً . وَلٰكِنَّ لويزا قالَتْ لَها : « لَيْسَ لِهٰذا ٱلسُّؤالِ مِنْ ضَرَرٍ يا سيسي ، كَما أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَعَنا أَحَدٌ هُنا . »

فَأَجابَتْها سيسي : « كانَ والِدي يُلِمُّ بِٱلكِتابَةِ إلْمامًا مَحْدودًا ، وَلَمْ يَكُنْ واسِعَ ٱلمَعْرِفَةِ . »

سَأَلَتْها لويزا : « وَماذا بِشَأْنِ والِدَتِكِ ، هَلْ كانَتْ مُتَعَلِّمَةً ؟ »

فَأَجابَتْها : « قالَ لي والِدي إنَّها كانَتْ مُتَعَلِّمَةً ، وَقَدْ تُوُفِّيَتْ عِنْدَ وِلادَتي . »

ثُمَّ ٱنْخَفَضَ صَوْتُ سيسي وَهِيَ تُضيفُ هامِسَةً : « وَكانَتْ أُمّي راقِصَةً . »

وَجاءَ سُؤالُ لويزا ٱلتّالي ، وَكَأَنَّهُ نَزْوَةٌ طارِئَةٌ عارِمَةٌ مِنْ تِلْكَ ٱلنَّزَواتِ ٱلَّتي كانَتْ

تَضيعُ لِفَوْرِها أَوْ تُحْجَبُ في ٱلظُّلُماتِ . سَأَلْتُها : « هَلْ كانَ والِدُكِ يُحِبُّها ؟ »

أَجابَتْ سيسي : « نَعَمْ ، لَقَدْ كانَ يُحِبُّها وَيُكِنُّ لَها مِنَ ٱلحُبِّ وَٱلإِعْزازِ قَدْرَ ما كانَ يُكِنُّهُ لي . وَقَدْ أَحَبَّني في ٱلبِدايَةِ مِنْ أَجْلِها ، وَلَمْ نَفْتَرِقْ مُنْذُ مَوْلِدي . »

قالَتْ لويزا : « وَلٰكِنَّهُ قَدْ تَرَكَكِ ٱلآنَ يا سيسي . »

قالَتْ سيسي : « وَلٰكِنَّهُ قَدْ فَعَلَ هٰذا لِمَصْلَحَتي وَلَيْسَ لِمَصْلَحَتِهِ هُوَ ، يا آنِسَةُ لويزا . فَلَيْسَ هُناكَ مَنْ يَعْرِفُ والِدي حَقَّ ٱلمَعْرِفَةِ كَما أَعْرِفُهُ أَنا . إِنَّهُ لَنْ يَشْعُرَ بِٱلسَّعادَةِ يَوْمًا حَتّى يَعودَ إِلَيَّ . »

قالَتْ لويزا : « أَخْبِريني بِٱلمَزيدِ عَنْهُ ، وَلَنْ أَسْأَلَكِ بَعْدَ ٱلآنَ . أَيْنَ كُنْتُما تَعيشانِ ؟ »

أَجابَتْ سيسي : « كُنّا نُسافِرُ دائِمًا وَنَتَجَوَّلُ مَعَ ٱلسِّيرْكِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَنا بَيْتٌ بِٱلمَعْنى ٱلحَقيقِيِّ . وَلَمْ نَسْتَقِرَّ قَطُّ في مَكانٍ واحِدٍ . وَلَمْ يَكُنْ والِدي في ٱلحَقيقَةِ مِنْ بَيْنِ راكِبي ٱلخَيْلِ ٱلمَهَرَةِ ، بَلْ كانَ في ٱلحَقيقَةِ ... » وَهَمَسَتْ سيسي وَهِيَ تَنْطِقُ بِٱلكَلِمَةِ ٱلفَظيعَةِ : « كانَ مُهَرِّجًا . »

سَأَلَتْها لويزا : « هَلْ كانَ يُضْحِكُ ٱلنّاسَ ؟ »

فَأَجابَتْها : « نَعَمْ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَبْكي أَحْيانًا ، عِنْدَما يَفْشَلُ في إِضْحاكِهِمْ . وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ بَكى هُنا في كوكْتاون . »

فَسَأَلَتْها لويزا : « وَماذا عَنْكِ ؟ هَلْ كُنْتِ تُواسينَهُ آنَذاكَ ؟ »

فَأَجابَتْها سيسي وَقَدْ أَخَذَتْ تَبْكي : « كُنْتُ أُحاوِلُ ذٰلِكَ ، أَمّا هُوَ فَقَدْ كانَتْ

مَخاوِفُهُ تَتَضاعَفُ ، فَصارَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُهَرِّجٌ فاشِلٌ ؛ لِذا كانَ يَحْرِصُ عَلى أَنْ يَجْعَلَ مِنّي فَتاةً ماهِرَةً وَناجِحَةً ، عَلى خِلافِهِ ، وَكُنْتُ كَثيرًا ما أَقْرَأُ لَهُ بَعْضَ ٱلكُتُبِ . وَلٰكِنَّ ٱخْتِيارَنا لِهٰذِهِ ٱلكُتُبِ لَمْ يَكُنْ مُوَفَّقًا ، وَلَمْ تَكُنْ هِيَ ٱلكُتُبَ ٱلمُناسِبَةَ ، وَلٰكِنَّنا لَمْ نَعْرِفْ ذٰلِكَ . »

سَأَلَتْها لويزا : « هَلْ كانَ يُحِبُّ هٰذِهِ ٱلكُتُبَ ؟ »

أَجابَتْ سيسي : « نَعَمْ ، لَقَدْ كانَ يُحِبُّها بِدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ ؛ إِذْ كانَتْ تُنْسيهِ مَتاعِبَهُ . كَما كانَ يَقْضي ساعاتٍ طَويلَةً يَتَعَجَّبُ مِنْ أَمْرِ ٱلمَلِكِ ، وَمِنْ أَمْرِ ٱلجِنِّيّاتِ ٱلَّتي كُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ عَنْها في تِلْكَ ٱلكُتُبِ . »

سَأَلَتْها لويزا : « هَلْ كانَ والِدُكِ عَطوفًا تِجاهَ ٱلآخَرينَ ؟ »

رَدَّتْ سيسي : « نَعَمْ ، كانَ ذٰلِكَ شَأْنَهُ دائِمًا ؛ فَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ في قَلْبِهِ أَيَّةَ مَشاعِرَ سَيِّئَةٍ نَحْوَ ٱلآخَرينَ . »

وَٱسْتَمَرَّتْ لويزا في تَساؤُلِها : « هَلْ كُنْتِ تَعْرِفينَ أَنَّهُ سَوْفَ يَتْرُكُكِ يَوْمًا مِنَ ٱلأَيّامِ ؟ »

أَجابَتْ سيسي : « لا ، وَلٰكِنّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ سَعيدًا . فَٱلنّاسُ ... »

وَفي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ دَخَلَ تُوم غُرْفَةَ ٱلدِّراسَةِ ، وَكانَ غارِقًا في ٱلتَّفْكيرِ في أُمورِهِ ٱلخاصَّةِ . وَحَمْلَقَ إِلى ٱلفَتاتَيْنِ ، وَلٰكِنَّ لويزا قالَتْ لَهُ وَهِيَ تَبْتَسِمُ : « كُنْتُ أَسْأَلُ سيسي بِضْعَةَ أَسْئِلَةٍ ، وَلا داعِيَ لِأَنْ تَنْصَرِفَ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَبْقى مَعَنا هُنا وَلٰكِنْ لا تُقاطِعْنا . »



قالَ تُوم : « إنَّ باوِنْدِرْبي ٱلعَجوزَ قَدْ حَضَرَ مَعَ والِدِنا إلى ٱلمَنْزِلِ ، فَهَلَّا جِئْتِ لِتَتَحَدَّثي إلَيْهِ ؟ إنْ فَعَلْتِ ذٰلِكَ فَقَدْ يَدْعوني لِتَناوُلِ ٱلعَشاءِ . »

فَأَجابَتْهُ : « سَوْفَ أَحْضُرُ بَعْدَ دَقيقَةٍ واحِدَةٍ . »

قالَ تُوم : « إذًا سَأَنْتَظِرُ حَتّى أَتَأَكَّدَ . »

أَكْمَلَتْ سيسي حَديثَها هامِسَةً : « لَقَدْ كانَ والِدي يَشْعُرُ بِٱلتَّعاسَةِ عِنْدَما يَعْجِزُ عَنْ إضْحاكِ ٱلنّاسِ ، وَهٰذا أَسْوَأُ ما يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لِمُهَرِّجِ ٱلسِّيرْكِ . وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَبْكي في ٱللَّيْلِ ، وَكانَ يُحاوِلُ إخْفاءَ وَجْهِهِ عَنّي ، وَلٰكِنْ تَناهى إلى سَمْعي بِضْعُ كَلِماتٍ كانَ يَقولُها ، مِنْها « يا عَزيزَتي ! » و « يا سيسي ٱلحَبيبَةُ ! » »

« وَفي ٱلصَّباحِ ٱحْتَضَنَني وَقَبَّلَني ، وَكانَتْ هٰذِهِ عادَتَهُ كُلَّ صَباحٍ عِنْدَما أَذْهَبُ إلى ٱلمَدْرَسَةِ ؛ لِذا لَمْ يُساوِرْني شَكٌّ . وَعِنْدَما عُدْتُ مِنَ ٱلمَدْرَسَةِ لَمْ أَجِدْهُ بِٱلمَنْزِلِ ؛ إذْ كانَ قَدْ رَحَلَ . »

وَقاطَعَها تُوم قائِلًا لِشَقيقَتِهِ : « أَسْرِعي يا لُو ، وَإلّا سَيَنْصَرِفُ ٱلعَجوزُ باوِنْدِرْبي . »

وَلٰكِنَّ سيسي ٱسْتَمَرَّتْ في حَديثِها ٱلهامِسِ مَعَ لويزا قائِلَةً : « هٰذا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ يا آنِسَةُ لويزا ، وَلٰكِنَّني أَعْرِفُ أَنَّهُ سَوْفَ يَعودُ إلَيَّ مَرَّةً أُخرى ، أَوْ لَعَلَّهُ سَيَكْتُبُ لي أَوْ لِلسَّيِّدِ سْلاري . إنَّني كُلَّما رَأَيْتُ ٱلسَّيِّدَ غرادْغرايْند مُمْسِكًا بِخِطابٍ في يَدِهِ ، كادَ قَلْبي يَتَوَقَّفُ ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّ ٱلخِطابَ مِنْ ... »

وَصاحَ تُوم مُقاطِعًا : « هَيّا بِنا يا لُو ! ماذا تَنْتَظِرينَ ؟ »

أَخَذَتْ لويزا بَعْدَ ذٰلِكَ تُنْعِمُ ٱلنَّظَرَ في وَجْهِ أَبيها كُلَّما شاهَدَتْهُ يُمْسِكُ بِخِطابٍ مِنْ خِطاباتِهِ لِيَفْتَحَهُ ، وَكانَتْ سيسي ، في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ ، تَجِدُ ٱلشَّجاعَةَ وَتَسْأَلُهُ : « هَلْ ثَمَّةَ خِطاباتٌ لي يا سَيِّدُ غرادْغرايْند ؟ » وَكانَتْ لويزا تَنْتَظِرُ بِشَغَفٍ — لا يَقِلُّ عَنْ شَغَفِ سيسي — ٱلإجابَةَ عَنْ هٰذا ٱلسُّؤالِ . وَلٰكِنَّ ٱلإجابَةَ كانَتْ دائِمًا : « لا يا سيسيليا ، لا شَيْءَ لَكِ ! »

وَبَعْدَ أَنْ تَذْهَبَ سيسي إلى مَدْرَسَتِها ، كانَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند كَثيرًا ما يُعَلِّقُ عَلى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : « إنَّهُ ٱلأَمَلُ ! ذٰلِكَ ٱلسُّمُّ ٱلَّذي يَسْري في ٱلدِّماءِ ! لِمَ لا تُفَكِّرُ تِلْكَ ٱلفَتاةُ في ٱلحَقائِقِ ؟ »

وَلَمْ يَكُنْ في سْتُون لُودْج مَنْ يَعْرِفُ مَدى قُوَّةِ ٱلأَمَلِ ٱلَّذي تَتَعَلَّقُ بِهِ سيسي

سِوى لويزا ، بَلْ كانَتْ تُدْرِكُ أَيْضًا أَنَّ ٱلأَمَلَ لَدَيْها قَوِيٌّ قُوَّةَ ٱلحَقيقَةِ . أَمّا توم ٱلصَّغيرُ فَلَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ إِلّا في أُمورِهِ ٱلخاصَّةِ بِطَبيعَةِ ٱلحالِ . وَلَمْ يَكُنْ يَشْغَلُ ٱلسَّيِّدَةَ غرادْغرائِند شَيْءٌ سِوى رَأْسِها ٱلمَريضِ ، ذٰلِكَ ٱلرَّأْسِ ٱلَّذي لَمْ يَكُنْ يَحْوي شَيْئًا بِداخِلِهِ سِوى ٱلأَلَمِ .

الفَصْلُ ٱلسّادِسُ

كانَ ستيفن بلاكبول يَعْمَلُ نَسّاجًا في مَصْنَعٍ لِلأَقْمِشَةِ ٱلقُطْنِيَّةِ يَمْلِكُهُ جوشيا باونْدِرْبي . وَكانَ في ٱلأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَإِنْ بَدا أَكْبَرَ مِنْ عُمْرِهِ ٱلحَقيقيِّ ؛ فَكَتِفاهُ ٱلمُنْحَنِيَتانِ ، وَشَعْرُهُ ٱلرَّماديُّ دَلائِلُ عَلى أَنَّهُ عانى ٱلكَثيرَ في حَياتِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ ستيفن قَدْ نالَ أَيَّ قِسْطٍ مِنَ ٱلتَّعْليمِ ، وَذٰلِكَ عَلى خِلافِ بَعْضِ ٱلعُمّالِ ٱلآخَرينَ ٱلَّذينَ عَلَّموا أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ . فَكانوا يَسْتَعيرونَ ٱلكُتُبَ مِنَ ٱلمَكْتَبَةِ وَيَقْرَأونَها في مَنازِلِهِمْ . وَكانَ مِنْهُمْ مَنْ يُجيدُ ٱلحَديثَ ، وَلٰكِنَّ ستيفن لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُمْ ، رَغْمَ أَنَّهُ كانَ مُحِبًّا لِلْقِراءَةِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ نَسّاجًا ماهِرًا وَرَجُلًا أَمينًا .

وَذاتَ مَساءٍ ، بَعْدَ أَنْ دَقَّ جَرَسُ ٱنْتِهاءِ ٱلعَمَلِ ، وَتَوَقَّفَتِ ٱلآلاتُ بِٱلمَصْنَعِ ، وَأُطْفِئَتِ ٱلأَنْوارُ ، ٱنْدَفَعَ ستيفن مَعَ غَيْرِهِ مِنَ ٱلعُمّالِ رِجالًا وَنِساءً لِيَخْرُجوا مِنْ بَوّابَةِ ٱلمَصْنَعِ إِلى ٱلشّارِعِ . وَظَلَّ ستيفن يَسيرُ في ٱلشّارِعِ يَبْحَثُ عَنْ شَخْصٍ ما . وَبَعْدَ قَليلٍ صاحَ مُنادِيًا : « راشيل ! »

ٱلتَفَتَتْ لِنِدائِهِ سَيِّدَةٌ كانَتْ تَسيرُ تَحْتَ أَحَدِ مَصابيحِ ٱلشّارِعِ ، فَوَقَعَتْ عَيْنا ستيفن عَلى وَجْهِها ٱلصَّغيرِ ٱلأَسْمَرِ ٱللَّوْنِ وَعَيْنَيْها ٱلرَّقيقَتَيْنِ . وَلَمْ تَكُنْ مَلامِحُ وَجْهِها تَدُلُّ عَلى أَنَّها في مُقْتَبَلِ ٱلعُمْرِ ، فَقَدْ كانَتْ في ٱلخامِسَةِ وَٱلثَّلاثينَ مِنْ عُمْرِها .

رَدَّتْ راشيل عَلى نِدائِهِ قائِلَةً : « آهٍ يا فَتى ، أَهٰذا أَنْتَ يا صَديقِيَ ٱلعَجوزَ ! »

قالَ لَها ستيفن : « إِنَّكِ تَبْدينَ شابَّةً كَعَهْدي بِكِ يا راشيل . »

ضَحِكَتْ راشيل وَقالَتْ : « لَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلعُمْرُ بِنا يا فَتى ، وَلا حاجَةَ بِنا لِأَنْ نُخْفِيَ تِلْكَ ٱلحَقيقَةَ . »

فَٱسْتَأْذَنَها في أَنْ يَسيرَ مَعَها وَيُرافِقَها حَتّى بَيْتِها ، فَأَجابَتْهُ قائِلَةً : « لَكَ ذٰلِكَ لٰكِنْ يَحْسُنُ أَلّا يُشاهِدَنا ٱلنّاسُ مَعًا كُلَّ يَوْمٍ ، وَإِنْ كانَ يَجِبُ أَنْ أَراكَ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ بِطَبيعَةِ ٱلحالِ . »

قالَ ستيفِن : « لَقَدْ كُنْتِ دائِمًا طَيِّبَةً مَعي يا راشيل ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ رَغَباتِكِ عِنْدي كَٱلقانونِ . إِنَّني أَعْرِفُ أَنَّ ٱلنّاسَ دائِمًا يَتَقَوَّلونَ ، حَتّى عَنْكِ . »

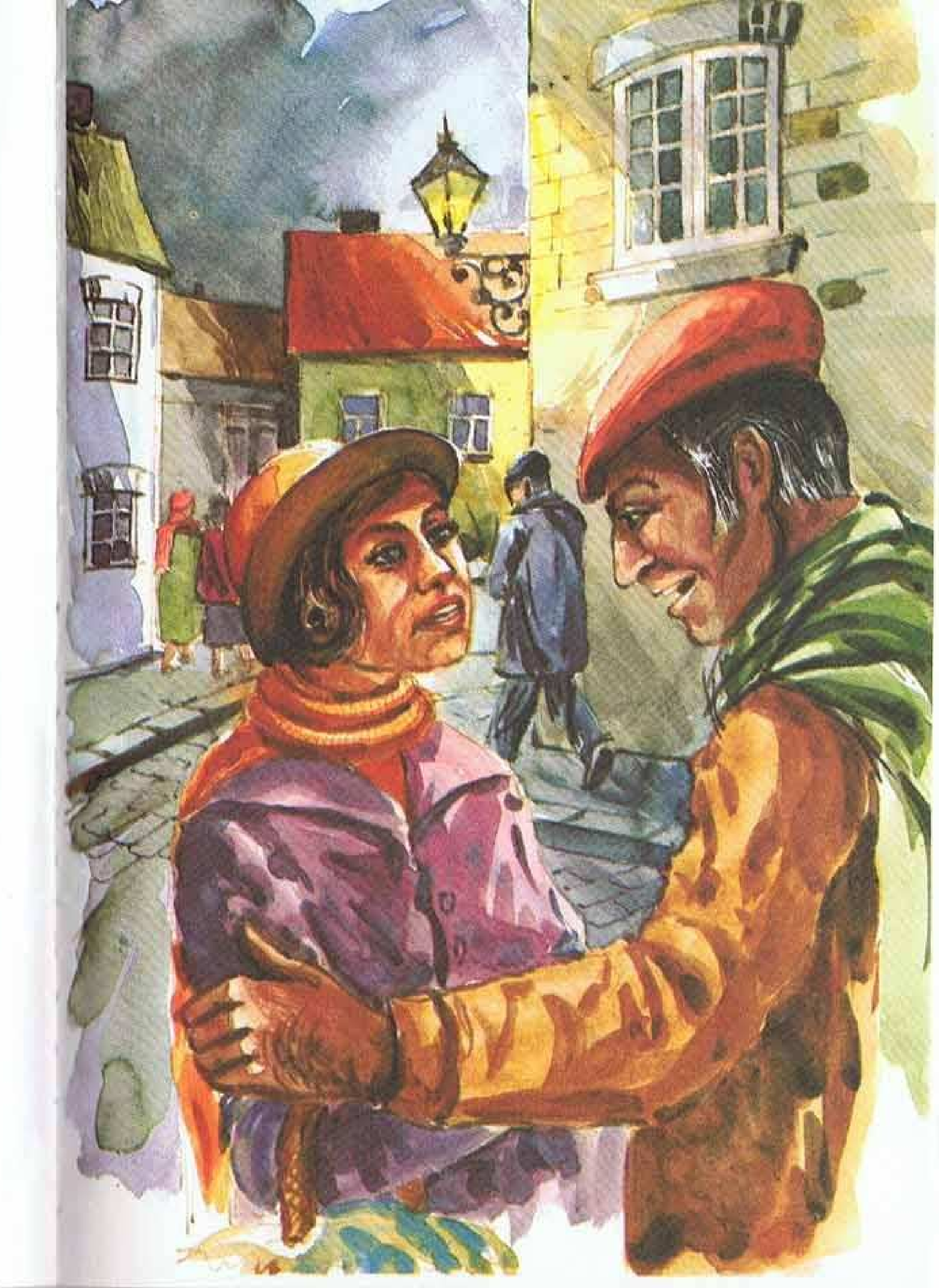
فَعَلَّقَتْ قائِلَةً : « لا تُفَكِّرْ في ٱلقَوانينِ يا ستيفِن »

قالَ : « أَنْتِ عَلى حَقٍّ يا فَتاةُ ، فَما ٱلقَوانينُ إِلّا نَوْعٌ مِنَ ٱلتَّخَبُّطِ . إِنَّني أُفَكِّرُ وَأُفَكِّرُ ، وَأَجِدُ نَفْسي دائِمًا وَسْطَ هٰذا ٱلتَّخَبُّطِ وَلا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَجاوَزَهُ . »

وَعِنْدَما وَصَلا إِلى مَنْزِلِها صافَحَها ستيفِن وَتَبادَلا تَحِيَّةَ ٱلمَساءِ ، ثُمَّ ٱنْصَرَفَتْ وَهُوَ يُتابِعُها بِنَظَراتِهِ حَتّى دَخَلَتْ في مَنْزِلِها . لَقَدْ كانَ ستيفِن يُحِبُّها وَيُحِبُّ كُلَّ شَيْءٍ فيها . فَقَدْ كانَ يُحِبُّ قامَتَها ٱلرَّشيقَةَ ، وَوَجْهَها وَصَوْتَها .

وَما إِنْ وَصَلَ ستيفِن إِلى مَسْكَنِهِ ٱلكائِنِ فَوْقَ أَحَدِ ٱلمَتاجِرِ ٱلصَّغيرَةِ ، حَتّى أَشْعَلَ ٱلمِصْباحَ في ٱلغُرْفَةِ ٱلَّتي يَتَكَوَّنُ مِنْها هٰذا ٱلمَسْكَنُ . وَكانَتْ صاحِبَةُ ٱلمَتْجَرِ قَدْ أَخْلَدَتْ إِلى ٱلنَّوْمِ فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يوقِظَها . وَكانَتْ غُرْفَةُ ستيفِن خالِيَةً إِلّا مِنْ سَريرٍ وَمِنْضَدَةٍ وَمَكْتَبٍ وَبِضْعَةِ مَقاعِدَ .

وَبَيْنَما كانَ ستيفِن يَضَعُ ٱلمِصْباحَ فَوْقَ ٱلمِنْضَدَةِ تَعَثَّرَ وَكادَ يَقَعُ فَوْقَ شَيْءٍ ما



في غُرْفَتِهِ . لَقَدْ كانَ هٰذا ٱلشَّيْءُ ٱمْرَأَةً سَرْعانَ ما نَهَضَتْ مِنَ ٱلأَرْضِ وَهِيَ تَسْتَنِدُ عَلى إِحْدى ذِراعَيْها ، فَصاحَ ستيفِن : « أَعوذُ بِٱللهِ ! لَقَدْ عُدْتِ مَرَّةً أُخْرى ! »

حاوَلَتِ ٱلْمَرْأَةُ أَنْ تَجْلِسَ مُنْتَصِبَةً ، وَلٰكِنَّها كانَتْ مَخْمورَةً قَذِرَةً تَرْتَدي مَلابِسَ مُمَزَّقَةً ، ثُمَّ أَزاحَتْ شَعْرَها عَنْ وَجْهِها ، وَمالَتْ بِرَأْسِها إِلى ٱلأَمامِ وَهِيَ تَضْحَكُ قائِلَةً : « نَعَمْ يا فَتى ، عُدْتُ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَمَرّاتٍ وَمَرّاتٍ ، وَلِمَ لا ؟ »

وَنَهَضَتْ واقِفَةً وَهِيَ تُمْسِكُ بِٱلْمِنْضَدَةِ ، وَرَمَتْ ستيفِن بِنَظْرَةٍ غاضِبَةٍ ، عَلى حينَ جَلَسَ هُوَ عَلى ٱلسَّريرِ ، ثُمَّ صاحَتْ : « سَوْفَ أَبيعُ كُلَّ ما تَمْلِكُهُ ، بَلْ سَأَبيعُ كُلَّ شَيْءٍ عِشْرينَ مَرَّةً . اِبْتَعِدْ عَنْ هٰذا ٱلْفِراشِ ! اِبْتَعِدْ ! إِنَّهُ فِراشي . »

وَٱنْدَفَعَتْ نَحْوَ ٱلْفِراشِ ، وَلٰكِنَّ ستيفِن تَجَنَّبَها وَجَلَسَ عَلى كُرْسِيٍّ بِجِوارِ



ٱلنّافِذَةِ . وَأَلْقَتِ ٱلْمَرْأَةُ بِنَفْسِها فَوْقَ ٱلسَّريرِ ، وَٱسْتَغْرَقَتْ فِي ٱلنَّوْمِ . وَظَلَّ ستيفِن جالِسًا بِجِوارِ ٱلنّافِذَةِ طَوالَ ٱللَّيْلِ ، وَلَمْ يَقُمْ إِلّا مَرَّةً واحِدَةً لِيُلْقِيَ فَوْقَ ٱلْمَرْأَةِ بِغِطاءٍ .

وَفي صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي تَوَجَّهَ ستيفِن مُبَكِّرًا إِلى مَصْنَعِ ٱلأَقْمِشَةِ ٱلْقُطْنِيَّةِ ٱلَّذي يَمْتَلِكُهُ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي ؛ ذٰلِكَ ٱلْمَصْنَعِ ٱلَّذي يَحْوي ٱلْعَديدَ مِنْ آلاتِ ٱلنَّسيجِ ، وَمِنَ ٱلْعُمّالِ ٱلَّذينَ يُطْلِقُ عَلَيْهِمُ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي ٱسْمَ ٱلأَيْدي ٱلْعامِلَةِ .

وَعِنْدَ ٱلظُّهْرِ دَقَّ ٱلْجَرَسُ ، وَخَرَجَتِ ٱلأَيْدي ٱلْعامِلَةُ إِلى ٱلشّارِعِ ؛ إِذْ إِنَّ باونْدِرْبي يَسْمَحُ لَهُمْ بِساعَةٍ لِتَناوُلِ ٱلْغَداءِ خِلالَها . وَلَمْ يَكُنْ ستيفِن يَشْعُرُ بِرَغْبَةٍ في تَناوُلِ ٱلطَّعامِ ؛ لِذا فَإِنَّهُ سارَ في ٱلشّارِعِ مُدَّةَ عِشْرينَ دَقيقَةً حَتّى وَصَلَ إِلى مَنْزِلِ ٱلسَّيِّدِ باونْدِرْبي فَطَرَقَ بابَ ٱلْبَيْتِ ، وَفَتَحَتْ لَهُ مُديرَةُ ٱلْمَنْزِلِ فَقالَ لَها : « هَلْ لي أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلى ٱلسَّيِّدِ باونْدِرْبي يا سَيِّدَتي ؟ إِنَّني واحِدٌ مِنْ أَيْديهِ ٱلْعامِلَةِ ! »

فَسَأَلَتْهُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « ما ٱسْمُكَ ؟ »

فَأَجابَ : « اِسْمي ستيفِن بلاكْبول يا سَيِّدَتي . »

وَلَمْ يَكُنْ ستيفِن مِنْ مُثيري ٱلْمَتاعِبِ في ٱلْمَصْنَعِ ؛ لِذا وافَقَ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي عَلى مُقابَلَتِهِ ، فَٱصْطَحَبَتْهُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت إِلى داخِلِ ٱلْمَنْزِلِ .

وَسَأَلَهُ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي قائِلًا : « ما ٱلأَمْرُ يا ستيفِن ؟ أَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَأْتِ هُنا لِتَشْكُوَ ، فَلَسْتَ واحِدًا مِنْ أُولٰئِكَ ٱلْعُمّالِ ٱلأَغْبِياءِ ، ٱلَّذينَ يُريدونَ أَنْ تَكونَ في أَفْواهِهِمْ مَلاعِقُ مِنْ ذَهَبٍ . »

فأجابهُ قائلا : « لا يا سيِّدي ، فأنا لا أُفكِّرُ في ٱلذَّهبِ . »

فعاد يسألُهُ : « ما ٱلمُشكلةُ إذًا ؟ »

نظر ستيفن نحو ٱلسَّيِّدة سبارْسِت ، ولٰكِنَّ ٱلسَّيِّد باونْدِرْبي بادرهُ قائلا : « لقدْ كانتْ هٰذه ٱلسَّيِّدةُ سيِّدةً عظيمةً ؛ ورغمَ أنَّها تعمل ٱلآن مُديرةً لمنزلي فإنَّها نشأتْ في أحضانِ ٱلتَّرف . وإنْ لمْ يكنْ لديكَ ٱعتراضٌ على بقائها فإنَّها ستبقى معنا هُنا . »

فأجاب ستيفن : « لا ٱعتراض لي يا سيِّدي ، كما أنَّهُ ليس في كلماتي ما يجرحُ مشاعرَ تلكَ ٱلسَّيِّدةِ ٱلعظيمة . »

قال باونْدِرْبي : « إذًا تكلَّمْ وسأُصغي إليْكَ . »

قال ستيفن : « لقدْ جئتُ طالبًا ٱلنَّصيحة ، فإنِّي في حاجة ماسَّة إليها . فقدْ تزوَّجتُ مُنذُ تسعةَ عشرَ عامًا بفتاةٍ صغيرةٍ ، وكانتْ فتاةً طيِّبةً وعلى قدْرٍ من الجمالِ ، ولٰكنْ سرْعانَ ما تبدَّلَ حالُها وساءَ . ولمْ يكنْ ذٰلك لخطإٍ منِّي . فإنَّ ٱللهَ يعلمُ أنَّني ما كنتُ لها زوْجًا قاسيًا . »

قال باونْدِرْبي : « لقدْ سمعتُ ذٰلكَ منْ قبْلُ ، كما أعرفُ أنَّها أصبحتْ سيِّئةً . لقدْ بدأتْ تُدمِنُ ٱلشَّرابَ ، وكفَّتْ عنِ ٱلعملِ ، كما أنَّها باعتِ ٱلأثاثَ وسبَّبتْ لكَ ٱلعديدَ منَ ٱلمتاعبِ . »

قال ستيفن : « لقدْ حاولْتُ أنْ أمُدَّ يدَ ٱلمُساعدةِ إليْها ، كما حاولْتُ ٱلكثيرَ معها ، ولٰكنَّها باعتْ ملابسي وأثاثي ، ليْسَ مرَّةً واحدةً أوْ مرَّتيْنِ فحسْبُ ، بلْ

عشْرينَ مرَّةً . كانتْ تُنفقُ ٱلنُّقودَ دائمًا على ٱلشُّرْبِ . وتغيَّرَ حالُها منْ سيِّئٍ إلى أسْوأ ، وهجرتْني ٱثْنتيْ عشْرةَ مرَّةً ، ولٰكنَّها كانتْ تعودُ دائمًا فماذا أسْتطيعُ أنْ أفعلَ ؟ لقدْ كُنتُ كثيرًا ما أخْشى أنْ أعودَ إلى ٱلبيْتِ . لقدْ دفعْتُ لها مبْلغًا منَ ٱلنُّقودِ لكيْ تبْقى بعيدةً عنِّي ، وظللْتُ أدْفعُ لها طوالَ خمْسِ سنواتٍ . إنَّني أحْيا حياةً صعْبةً ، بلْ حياةً كئيبةً . ولٰكنَّني لا أشْعُرُ بٱلخجلِ أوِ ٱلخوْفِ . وعنْدما عُدْتُ إلى منْزلي ٱللَّيْلةَ ٱلماضيةَ وجدْتُها هُناكَ مُسْتلْقيةً على ٱلأرْضِ فاقدةَ ٱلوعْي . »

توقَّفَ ستيفن عنِ ٱلحديثِ هُنيْهةً بدا خلالَها قويًّا وفخورًا ، وسرْعانَ ما ٱنحنتْ كتفاهُ ، وعكستْ ملامحُ وجْههِ ما يشْعُرُ بهِ منْ حيْرةٍ .

قالَ باونْدِرْبي : « لقدْ عرفْتُ ذٰلكَ منْ زمنٍ بٱسْتثْناءِ ذٰلكَ ٱلجُزْءِ ٱلأخيرِ . إنَّهُ أمْرٌ سيِّئٌ ، ومنَ ٱلمُؤْسفِ أنَّكَ تزوَّجْتَ هٰذهِ ٱلسَّيِّدةَ ، لٰكنَّ قوْلي هٰذا يأْتي مُتأخِّرًا ٱلآنَ . »

وهُنا سألتِ ٱلسَّيِّدةُ سبارْسِت ٱلسَّيِّدَ باونْدِرْبي : « هلْ كانَ أكْبرَ سِنًّا منْ هٰذهِ ٱلفتاةِ يا سيِّدي ؟ »

أجابَ باونْدِرْبي مُوجِّهًا حديثهُ لِستيفن : « لقدْ سمِعْتَ سُؤالَ ٱلسَّيِّدةِ يا ستيفن . هلْ كُنْتَ أكْبرَ منْ تلْكَ ٱلفتاةِ عنْدما تزوَّجْتها ؟ »

قالَ : « لا ، لقدْ كُنْتُ في ٱلحاديةِ وٱلعِشْرينَ منْ عُمْري ، وكانتْ هيَ في ٱلعِشْرينَ منْ عُمْرِها . »

قالتِ ٱلسَّيِّدةُ سبارْسِت : « إنَّني أدْهشُ لِهٰذا يا سيِّدي ؛ فعدمُ ٱلتَّوْفيقِ في ٱلزَّواجِ يرْجِعُ عادةً إلى ٱلفرْقِ في ٱلسِّنِّ . »

نَظَرَ باونْدِرْبي إلى مُديرةِ ٱلمَنْزِلِ بِحِدَّةٍ وَقَدِ ٱرْتَسَمَتْ على وَجْهِهِ مَلامِحُ ٱلفضولِ وَٱلخَجَلِ ، ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إلى ستيفن مَرَّةً أُخرى قائِلًا : « إِسْتَمِرَّ يا بلاكْبُول فأنا في ٱنْتِظارِ سَماعِ بَقِيَّةِ كلامِكَ . »

عادَ ستيفن يَسْأَلُ : « كَيْفَ أَستطيعُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ ٱلمَرْأَةِ يا سَيِّدي ؟ هَلْ لَكَ أَنْ تَنْصَحَني ؟ »

تَساءَلَ باونْدِرْبي : « تَتَخَلَّصُ مِنها ؟! وَلٰكِنَّها زَوْجَتُكَ يا رَجُلُ ، وَزواجُكَ بِها قائِمٌ حَتّى تَموتَ أَنْتَ أَوْ تَموتَ هِيَ . »

قالَ ستيفن : « وَلٰكِنْ يَجِبُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنها وَإِلّا أُصِبْتُ بِٱلجُنونِ . آهٍ ، لَوْلا راشيل لَكُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ ٱلآنَ مَرْحَلَةَ ٱلجُنونِ بِٱلفِعْلِ . »

فَسَأَلَهُ باونْدِرْبي : « مَنْ راشيل هٰذِهِ ؟ »

أَجابَهُ : « إِنَّها أَفْضَلُ فَتاةٍ في ٱلعالَمِ يا سَيِّدي . »

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسيت : « آهٍ ، إِنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يَكونَ حُرًّا يا سَيِّدي حَتّى يَسْتَطيعَ أَنْ يَتَزَوَّجَ مَرَّةً أُخرى . »

قالَ ستيفن: « هٰذا ما أُريدُهُ ، فَٱلسَّيِّدَةُ مُحِقَّةٌ في رَأْيِها . إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلثَّرِيَّ لا يَلْقى أَيَّ صِعابٍ إِذا كانَ زَواجُهُ غَيْرَ مُوَفَّقٍ ؛ إِذْ يُمْكِنُهُ أَنْ يُقيمَ مَعَ زَوْجَتِهِ في غُرْفَتَيْنِ مُنْفَصِلَتَيْنِ في مَسْكَنٍ واحِدٍ ، كَما يُمْكِنُهُما أَنْ يَعيشا مُنْفَصِلَيْنِ وَيَقْتَسِما نُقودَهُما . وَيُمْكِنُهُما أَحيانًا أَنْ يَنْفَصِلا بِمُقْتَضى ٱلقانونِ . وَلٰكِنْ ، هَلْ يَسْتَطيعُ ٱلرَّجُلُ ٱلفَقيرُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ هٰذا ؟ يَجِبُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ ٱلمَرْأَةِ ، وَأُريدُ

أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ يَتَسَنّى لي ذٰلِكَ ؟ »

قالَ باونْدِرْبي : « لا تَسْتَطيعُ ذٰلِكَ . »

تَساءَلَ ستيفن : « هَلْ يُعاقِبُني ٱلقانونُ إِذا ما ضَرَبْتُها ؟ »

أَجابَهُ باونْدِرْبي : « سَتُعاقَبُ بِٱلطَّبْعِ . »

عادَ ستيفن يَسْأَلُهُ : « وَإِذا هَجَرْتُها ، هَلْ يُعاقِبُني ٱلقانونُ أَيْضًا ؟ »

أَجابَ باونْدِرْبي : « بِطَبيعَةِ ٱلحالِ . »

سَأَلَ ستيفن : « ماذا سَيَحْدُثُ إِذا تَزَوَّجْتُ ٱلفَتاةَ ٱلعَزيزَةَ ٱلأُخرى ؟ »

أَغْمَضَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسيت عَيْنَيْها ، وَأَجابَ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي : « سَوْفَ تُعاقَبُ عَلى ذٰلِكَ . »

قالَ ستيفن : « أَلا يوجَدُ يا سَيِّدُ باونْدِرْبي أَيُّ قانونٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسانِدَني ؟ »

أَجابَهُ : « ٱلزَّواجُ يَدومُ طَوالَ ٱلعُمْرِ يا بلاكْبول ، وَهُوَ أَمْرٌ بالِغُ ٱلأَهَمِّيَّةِ . »

قالَ ستيفن : « وَلٰكِنَّ بَعْضَ ٱلزِّيجاتِ لا تَدومُ . وَأَنا أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، كَما أَنَّني قَرَأْتُ عَنْ ذٰلِكَ أَيْضًا . فَبَعْضُ ٱلرِّجالِ يَقْتُلونَ زَوْجاتِهِمْ ، وَبَعْضُ ٱلنِّساءِ يَقْتُلْنَ أَزْواجَهُنَّ ، لٰكِنَّني لَنْ أَقْتُلَ زَوْجَتي ، وَلٰكِنْ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ ثَمَّةَ قانونٌ يُساعِدُني . »

قالَ باونْدِرْبي : « ثَمَّةَ قانونٌ ، وَلٰكِنَّهُ لَيْسَ لَكَ ، فَهُوَ يُكَلِّفُ ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلمالِ . »

سَأَلَهُ ستيفن بِهُدوءٍ : « وَكَمْ يُكَلِّفُني ذٰلِكَ ؟ »

أجابَ : « حَوالى أَلْفِ جُنَيْهٍ تَقْريبًا ، وَرُبَّما أَلْفَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ . »

شَحَبَ وَجْهُ ستيفِن وَهُوَ يَقولُ في هُدوءٍ : « إذًا أنا عَلى صَوابٍ . إنَّهُ التَّخَبُّطُ . لا أَمَلَ لي عَلى الإطْلاقِ ، وَسَأَكونُ أَفْضَلَ حالًا لَوْ مِتُّ . »

رَفَعَتِ السَّيِّدَةُ سبارْسِت عَيْنَيْها نَحْوَ السَّماءِ ، عَلى حينَ قالَ السَّيِّدُ باونْدِرْبي : « إنَّ ما تَقولُهُ هُراءٌ ، فَالقَوانينُ في هٰذِهِ الدَّوْلَةِ لَيْسَتْ ضَرْبًا مِنَ التَّخَبُّطِ ، وَلٰكِنَّكَ لا تَفْهَمُها . إنَّ اهْتِماماتِكَ تَبْدَأُ وَتَنْتَهي عِنْدَ النَّوْلِ . لَقَدْ كُنْتَ دائِمًا يا ستيفِن بلاكْبول مِنَ العُمّالِ المُمْتازينَ ، وَلا تَزالُ كَذٰلِكَ . وَآمُلُ أَلّا يَتَبَدَّلَ حالُكَ وَتُصْبِحَ شَخْصًا سَيِّئًا مِثْلَ بَعْضِ زُمَلائِكَ مِنَ العُمّالِ . »

هَزَّ ستيفِن رَأْسَهُ وَقالَ : « شُكْرًا لَكَ يا سَيِّدي ، وَأَتَمَنّى لَكَ يَوْمًا سَعيدًا . » وَانْصَرَفَ وَهُوَ يُرَدِّدُ بِهُدوءٍ : « إنَّهُ تَخَبُّطٌ ، وَتَخَبُّطٌ هائِلٌ ! »

الفَصْلُ السّابِعُ

بَيْنَما كانَ ستيفِن يَعْبُرُ الطَّريقَ أَمامَ مَنْزِلِ باونْدِرْبي لَمَسَتْ سَيِّدَةٌ عَجوزٌ ذِراعَهُ ، فَالْتَفَتَ إلَيْها . كانَتْ سَيِّدَةً طَويلَةً مُعْتَدِلَةَ القَوامِ رَغْمَ كِبَرِ سِنِّها ، كانَتْ حَسَنَةَ الهِنْدامِ نَظيفَةَ المَلابِسِ . وَكانَ عالِقًا بِحِذائِها بَعْضُ الوَحْلِ ، لَعَلَّهُ مِنْ أَثَرِ سَيْرِها في طُرُقِ الرّيفِ .

وَبادَرَتِ السَّيِّدَةُ إلى سُؤالِهِ : « أَلَمْ تَكُنْ يا سَيِّدي في زِيارَةٍ لِمَنْزِلِ السَّيِّدِ باونْدِرْبي ؟ »

أَجابَها ستيفِن : « بَلى يا سَيِّدَتي . »



قالَتْ : « أَرْجو ٱلْمَعْذِرَةَ يا سَيِّدي ، وَلٰكِنْ هَلْ تَحَدَّثْتَ إِلَيْهِ ؟ »

أجابَ : « أَجَلْ يا سَيِّدَتي . »

سَأَلَتْهُ : « كَيْفَ كانَ يَبْدو ؟ هَلْ هُوَ بِخَيْرٍ ؟ هَلْ هُوَ ضَخْمُ ٱلْجُثَّةِ جَسورٌ ؟ » وَكانَ صَدْرُ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةِ يَكادُ يَنْخَلِعُ وَهِيَ تُعاوِدُ تَساؤُلَها : « هَلْ كانَ صَوْتُهُ قَوِيًّا واضِحًا ؟ »

وَخُيِّلَ لِستيفِن أَنَّهُ سَبَقَ لَهُ أَنْ رَأى تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةَ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّهُ أَجابَها بِقَوْلِهِ : « نَعَمْ يا سَيِّدَتي لَقَدْ كانَ في حالَةٍ طَيِّبَةٍ ، كَما كانَ كُلُّ شَيْءٍ فيهِ مِثْلَ ما ذَكَرْتِ تَمامًا . »

شَكَرَتْهُ ٱلسَّيِّدَةُ كَثيرًا ، وَلٰكِنَّ ستيفِن عادَ يُفَكِّرُ وَيَقولُ في نَفْسِهِ : « لا ، لا أَظُنُّ أَنَّني قابَلْتُ هٰذِهِ ٱلسَّيِّدَةَ مِنْ قَبْلُ . لا بُدَّ أَنَّني رَأَيْتُها في أَحْلامي ، وَأَظُنُّ أَنَّها لَمْ تَرُقْ لي كَثيرًا . »

سارَتِ ٱلسَّيِّدَةُ بِجِوارِ ستيفِن وَهِيَ تُبادِلُهُ ٱلْحَديثَ ، فَعَرَفَ مِنْها أَنَّها تَسْكُنُ كوخًا بِٱلرّيفِ عَلى بُعْدِ ثَمانينَ كيلومِتْرًا مِنْ بَلْدَةِ كوكْتاون ، وَأَنَّها قَدِمَتْ إِلى كوكْتاون بِٱلْقِطارِ صَباحَ ٱلْيَوْمِ ، وَأَنَّهُ كانَ عَلَيْها أَنْ تَسيرَ مَسافَةَ خَمْسَةَ عَشَرَ كيلومِتْرًا مِنْ مَسْكَنِها حَتّى مَحَطَّةِ ٱلْقِطارِ .

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ : « سَوْفَ أَسيرُ مَسافَةَ خَمْسَةَ عَشَرَ كيلومِتْرًا أُخْرى عِنْدَ عَوْدَتي إِلى مَنْزِلي هٰذا ٱلْمَساءَ ، وَلٰكِنْ أَلَيْسَ هٰذا شَيْئًا مُفيدًا لِسَيِّدَةٍ في مِثْلِ سِنّي ؟ »

أَجابَها : « إِنَّهُ مُفيدٌ لِلْغايَةِ ، وَلٰكِنْ لا تُكَرِّري ذٰلِكَ كَثيرًا يا سَيِّدَتي . »

قالَتْ : « لا يَحْدُثُ هٰذا إِلّا مَرَّةً واحِدَةً كُلَّ عامٍ . فَأَنا أَدَّخِرُ ٱلنُّقودَ طَوالَ ٱلعامِ ، حَتّى أُسافِرَ إِلى كوكْتاون ، فَأَنا أُحِبُّ أَنْ أَرى ذٰلِكَ ٱلسَّيِّدَ ، وَكُنْتُ آمُلُ أَنْ أَراهُ ٱلْيَوْمَ ، وَهٰأَنَذا قَدْ رَأَيْتُكَ ، وَأَنْتَ قَدْ رَأَيْتَهُ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَرْضى بِهٰذا ! »

لَمْ يَفْهَمْ ستيفِن ٱلسَّبَبَ ٱلَّذي مِنْ أَجْلِهِ تَرْغَبُ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلعَجوزُ في مُقابَلَةِ ٱلسَّيِّدِ باونْدِرْبي ، فَهِيَ لَمْ تُعْطِ تَفْسيرًا لِذٰلِكَ ؛ لِذا فَإِنَّهُ قالَ لَها : « يَجِبُ أَنْ أَنْصَرِفَ ٱلآنَ وَإِلّا تَأَخَّرْتُ عَنْ عَمَلي ، فَأَنا أَعْمَلُ نَسّاجًا في مَصْنَعِ ٱلسَّيِّدِ باونْدِرْبي لِلأَقْمِشَةِ ٱلْقُطْنِيَّةِ . »

نَظَرَتْ إِلَيْهِ ٱلسَّيِّدَةُ نَظْرَةَ تَفَهُّمٍ وَحِكْمَةٍ وَسَأَلَتْهُ : « أَسَعيدٌ أَنْتَ في عَمَلِكَ ؟ »

أَجابَها : « لِكُلِّ إِنْسانٍ هُمومُهُ يا سَيِّدَتي . »

قالَتْ : « نَعَمْ ، وَلٰكِنْ هَلْ تَعْني أَنَّكَ تُصادِفُ بَعْضَ ٱلْمَتاعِبِ في ٱلْبَيْتِ ؟ »

أَجابَها : « في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تُلاحِقُكَ هٰذِهِ ٱلْمَتاعِبُ في ٱلْمَصْنَعِ ؟ »

أَجابَ : « كَلّا . »

كانا قَدْ وَصَلا في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ إِلى بَوّابَةِ ٱلْمَصْنَعِ ، وَكانَ ٱلْعُمّالُ يُسْرِعونَ في ٱلدُّخولِ ؛ إِذْ كانَ ٱلْجَرَسُ يَدُقُّ وَقَدْ بَدَأَتِ ٱلآلاتُ تَدورُ ، وَعَلَّقَتِ ٱلسَّيِّدَةُ بِقَوْلِها : « يا لَهُ مِنْ جَرَسٍ جَميلٍ ! إِنَّهُ أَحْسَنُ ما سَمِعْتُ في حَياتي مِنْ أَجْراسٍ ، مُنْذُ مَتى وَأَنْتَ تَعْمَلُ هُنا يا سَيِّدي ؟ »

أجابَها : « مُنْذُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً . »

قالَتْ : « يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُقَبِّلَ تِلْكَ ٱلْيَدَ ٱلَّتي عَمِلَتْ في هٰذا ٱلْمَصْنَعِ ٱلْعَظيمِ طَوالَ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً . »

وَقَبَّلَتِ ٱلسَّيِّدَةُ يَدَ ستيفِن رَغْمَ مُحاوَلَتِهِ مَنْعَها ، وَلٰكِنَّ قُبْلَتَها جاءَتْ في بَساطَةٍ وَجِدِّيَّةٍ ، وَبَدَتْ كَأَنَّها ٱلشَّيْءُ ٱلْمُناسِبُ في ٱلْوَقْتِ ٱلْمُناسِبِ ، وَفي ٱلْمَكانِ ٱلْمُناسِبِ . وَتَرَكَها ستيفِن وَٱنْصَرَفَ .

إِسْتَمَرَّ ستيفِن في عَمَلِهِ عَلى ٱلنَّوْلِ ٱلْخاصِّ بِهِ لِمُدَّةِ نِصْفِ ساعَةٍ . وَعِنْدَما أَطَلَّ مُصادَفَةً مِنَ ٱلنّافِذَةِ ، شاهَدَ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةَ وَكانَتْ لا تَزالُ تَقِفُ بِٱلشّارِعِ تَتَطَلَّعُ إِلى جُدْرانِ ٱلْمَصْنَعِ ٱلدّاكِنَةِ ، وَتَنْظُرُ إِلى ٱلسُّحُبِ وَٱلدُّخانِ . وَلاحَظَ ستيفِن مَلامِحَ وَجْهِ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةِ ، فَبَدَتْ وَكَأَنَّها تَجِدُ في صَوْتِ ٱلآلاتِ ما هُوَ أَشْبَهُ بِأَنْغامٍ موسيقِيَّةٍ شَجِيَّةٍ تَتَناهى إِلى سَمْعِها . وَظَلَّ ستيفِن مَشْغولًا طَوالَ فَتْرَةِ ما بَعْدَ ٱلظُّهْرِ بِأَمْرِ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةِ ، وَٱنْشَغَلَ تَفْكيرُهُ أَيْضًا بِتِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتي كانَ قَدْ تَرَكَها في غُرْفَتِهِ .

وَٱنْتَهى ٱلْيَوْمُ ، وَكانَتِ ٱلسَّماءُ تُمْطِرُ عِنْدَما غادَرَ ستيفِن ٱلْمَصْنَعَ لِيَسيرَ في ٱلشّارِعِ وَيَجولَ بِبَصَرِهِ هُنا وَهُناكَ بَحْثًا عَنْ راشيل ، ٱلَّتي كانَ يَأْمُلُ أَنْ يَلْقاها مَرَّةً أُخْرى . فَقَدْ كانَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ في أَمَسِّ ٱلْحاجَةِ إِلى تِلْكَ ٱلرّاحَةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلَّتي لا يَجِدُها عِنْدَ سِواها . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ راشيل قَدِ ٱنْصَرَفَتْ مُبَكِّرَةً ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَراها .

إِسْتَمَرَّ يَسيرُ طَويلًا تَحْتَ ٱلْمَطَرِ غارِقًا في أَفْكارِهِ ، مُتَأَمِّلًا في حَياتِهِ ٱلضّائِعَةِ ، وَفي حَياةِ راشيل ٱلَّتي كانَتْ بِدَوْرِها حَياةً ضائِعَةً . لَقَدْ حَكى لِراشيل مُنْذُ سَنَواتٍ

طَويلَةٍ عَنْ مَتاعِبِهِ ، وَلَمْ يَتَطَرَّقْ حَديثُهُما يَوْمًا إِلى ٱلزَّواجِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَزَوِّجًا لَتَزَوَّجَ راشيل ، وَلَكانَ لَهُما بَيْتٌ دافِئٌ وَمُريحٌ ، وَلَكانَ لَهُما أَطْفالٌ ، وَتَمَتَّعا بِالْحُبِّ وَٱلْكَرامَةِ وَٱحْتِرامِ ٱلذّاتِ . وَلٰكِنْ بَدَلًا مِنْ هٰذا ها هُوَ ذا قَدْ شَدَّ وِثاقَ يَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ لِيَرْتَبِطَ بِتِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلسِّكّيرَةِ ٱلْقَذِرَةِ . وَلَمْ يَخْتَلِفْ حالُ راشيل كَثيرًا عَنْ حالِهِ ؛ فَقَدْ عاشَتْ سَنَواتٍ طَويلَةً تَنْتَظِرُ وَتَأْمُلُ ٱلزَّواجَ بِستيفِن ، في ٱلْوَقْتِ ٱلَّذي رَأَتْ فيهِ صَديقاتِها يَتَزَوَّجْنَ وَيَصيرُ لَهُنَّ بُيوتٌ وَعائِلاتٌ .

كانَ ٱللَّيْلُ قَدِ ٱنْتَصَفَ عِنْدَما عادَ ستيفِن إِلى غُرْفَتِهِ ، وَعَلى ضَوْءِ ٱلْمِصْباحِ بِٱلْغُرْفَةِ شاهَدَ راشيل تَجْلِسُ إِلى جِوارِ ٱلسَّريرِ ، فَشَعَرَ كَما لَوْ أَنَّ ضِياءَ وَجْهِها قَدْ أَنارَ ظُلُماتِ عَقْلِهِ . وَرَأى أَيْضًا أَنَّ هُناكَ مَنْ تَتَمَدَّدُ عَلى ٱلسَّريرِ وَقَدِ ٱرْتَدَتْ بَعْضًا مِنْ مَلابِسِ راشيل . وَما إِنْ رَأَتْهُ راشيل حَتّى قالَتْ : « كَمْ يُسْعِدُني أَنَّكَ عُدْتَ أَخيرًا يا ستيفِن ، وَلٰكِنَّكَ عُدْتَ مُتَأَخِّرًا جِدًّا . »

أَجابَها : « لَقَدْ كُنْتُ أَجولُ في ٱلْمَدينَةِ . »

قالَتْ : « هٰذا ما تَوَقَّعْتُهُ ، وَإِنْ كانَتِ ٱللَّيْلَةُ لَيْسَتْ بِٱلْوَقْتِ ٱلْمُناسِبِ لِذٰلِكَ . لَقَدْ جِئْتُ عَقِبَ ٱلْعَشاءِ ؛ إِذْ وَجَدْتُ رِسالَةً تَرَكَتْها لي ٱلسَّيِّدَةُ صاحِبَةُ ٱلْمَتْجَرِ بِٱلطّابَقِ ٱلسُّفْلِيِّ ، وَعَرَفْتُ مِنْها أَنَّ زَوْجَتَكَ في حاجَةٍ إِلى مَنْ يُنْقِذُها ؛ إِذْ كانَتْ قَدْ أَلْحَقَتِ ٱلأَذى بِنَفْسِها ، وَتَحْتاجُ إِلى ٱلْمُساعَدَةِ ، كَما أَنَّ ٱلطَّبيبَ قَدْ جاءَ أَيْضًا بَعْدَ ذٰلِكَ . »

لَمْ يَسْتَطِعْ ستيفِن أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ إِلى وَجْهِ راشيل ٱلَّتي قالَتْ : « لَقَدْ سارَعْتُ إِلى مُساعَدَتِها . فَقَدْ كُنّا نَعْمَلُ مَعًا عِنْدَما كُنّا صِغارًا ، كَما أَنَّها كانَتْ صَديقَتي قَبْلَ أَنْ تَتَزَوَّجَها يا ستيفِن ، وَأَعْرِفُ أَنَّكَ أَرَقُّ مِنْ أَنْ تَدَعَها تَموتُ أَوْ تَتَأَلَّمُ . »

قالَ ستيفن : « آهِ يا راشيل ! يا راشيل ! »

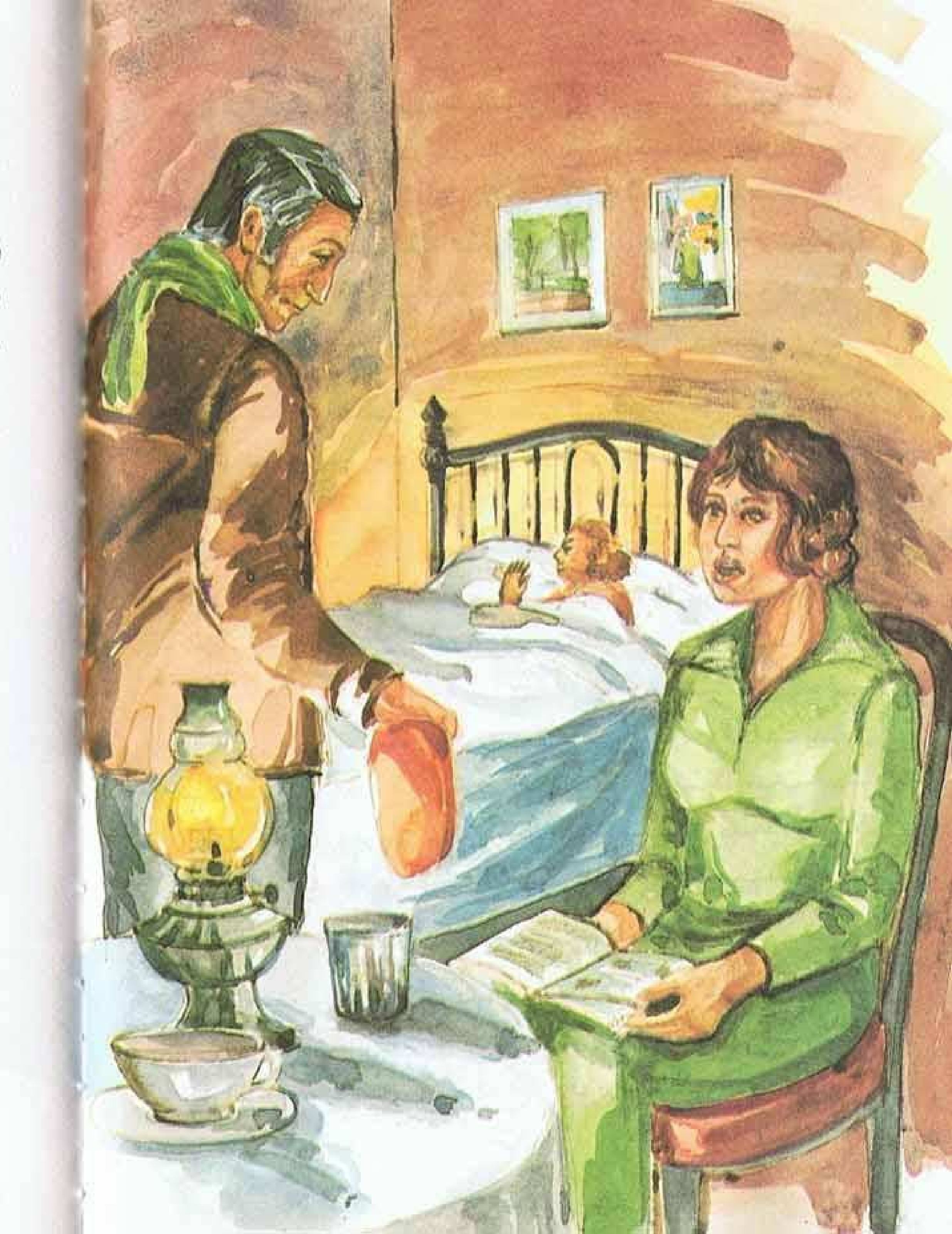
كانَتْ راشيل قَدْ نَقلَتِ ٱلمِنْضَدَةَ مِنْ مَكانِها ، وَوَضَعَتْها إلى جِوارِ ٱلسَّريرِ . وَكانَتْ فَوْقَ ٱلمِنْضَدَةِ زُجاجَتانِ كُتِبَتْ عَلى إحْداهُما بِٱلحِبْرِ ٱلأَحْمَرِ كَلِمَةُ « سُمّ » ؛ وَما إنْ وَقَعَ بَصَرُ ستيفن عَلى تِلْكَ ٱلكَلِمَةِ حَتّى شَحَبَ لَوْنُهُ . وَلٰكِنَّ راشيل سَكَبَتْ بَعْضًا مِنْ مُحْتَوَياتِ تِلْكَ ٱلزُّجاجَةِ عَلى قِطْعَةٍ مِنَ ٱلقُماشِ ، ثُمَّ مَسَحَتْ بِها عَلى رَقَبَةِ تِلْكَ ٱلمَرْأَةِ حَيْثُ يوجَدُ أَثَرٌ بالِغٌ لِخَدْشٍ أَوْ جُرْحٍ ، وَهِيَ تَقولُ : « يَجِبُ أَنْ أُكَرِّرَ هٰذا مَرَّةً ثانِيَةً في ٱلثّالِثَةِ صَباحًا ؛ لِذا سَأَظَلُّ ساهِرَةً إلى جِوارِها حَتّى ذٰلِكَ ٱلحينِ . »

قالَ لَها ستيفن : « وَلٰكِنْ يَجِبُ أَنْ تَسْتَريحي يا راشيل ؛ إذْ عَلَيْكِ أَنْ تَذْهَبي إلى ٱلعَمَلِ في ٱلصَّباحِ . »

قالَتْ : « فَلْتَسْتَرِحْ أَنْتَ . أَمّا أَنا فَقَدْ نِمْتُ بِما فيهِ ٱلكِفايَةُ ٱللَّيْلَةَ ٱلماضِيَةَ ، عَلى حينِ تَبْدو أَنْتَ مُتْعَبًا . حاوِلْ أَنْ تَنامَ عَلى هٰذا ٱلكُرْسِيِّ ، وَسَأَتَوَلّى أَنا مُلاحَظَتَها ، فَهِيَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَعَرَّفَ إلَيَّ يا ستيفن ، كَما أَنَّها تَهْذي عِنْدَما تَسْتَيْقِظُ ، وَلٰكِنَّ ٱلطَّبيبَ يَقولُ إنَّ حالَتَها سَوْفَ تَتَحَسَّنُ في ٱلغَدِ . »

وَقَعَتْ عَيْنا ستيفن مَرَّةً أُخْرى عَلى كَلِمَةِ « سُمّ » فَٱرْتَعَدَ جَسَدُهُ بِعُنْفٍ ، وَهَبَّتْ راشيل واقِفَةً فَقالَ لَها : « لا يا راشيل ، اِجْلِسي بِجِوارِ ٱلسَّريرِ حَيْثُ رَأَيْتُكِ عِنْدَ دُخولي . لَقَدْ كُنْتِ أَجْمَلَ مِنْ أَيِّ مَرَّةٍ رَأَيْتُكِ فيها . »

أَمْضى ستيفن لَيْلَةً مُرْعِبَةً ؛ إذِ ٱنْتابَتْهُ أَحْلامٌ مُزْعِجَةٌ وَقاسِيَةٌ بَعْدَ أَنْ راحَ في ٱلنَّوْمِ . فَقَدْ بَدَتْ لَهُ كَلِمَةُ « سُمّ » وَكَأَنَّها كُتِبَتْ بِأَحْرُفٍ مِنْ نارٍ ، كَما حَمَلَتْهُ





أَحْلامُهُ إلى عالَمِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ . وَبَدا وَكَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ راشيل ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرى وَجْهَها أَوْ يَسْمَعَ صَوْتَها مَرَّةً أُخرى ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْرُبَ مِنْ تِلْكَ ٱلأَحْرُفِ ٱلنّارِيَّةِ ٱلَّتي كُتِبَتْ بِها تِلْكَ ٱلْكَلِمَةُ ٱلَّتي لازَمَتْهُ طَوالَ ٱلْوَقْتِ .

عِنْدَما ٱسْتَيْقَظَ ستيفن كانَتْ راشيل لا تَزالُ نائِمَةً ، وَكانَتْ زُجاجَةُ ٱلسُّمِّ في مَكانِها فَوْقَ ٱلْمِنْضَدَةِ . وَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةُ في سَريرِها ، ثُمَّ جَلَسَتْ وَعَيْناها تَجولانِ في أَنْحاءِ ٱلْغُرْفَةِ دونَ أَنْ تَسْتَقِرّا عَلى راشيل ، وَلٰكِنَّ نَظَراتِها ٱسْتَقَرَّتْ في ٱلنِّهايَةِ عَلى ٱلرُّكْنِ ٱلْمُظْلِمِ ٱلَّذي يَجْلِسُ فيهِ ستيفن . وَأَدْرَكَ ستيفن أَنَّ تِلْكَ ٱلْعَيْنَيْنِ ٱلْغاضِبَتَيْنِ لَمْ تَقَعا عَلَيْهِ . وَإِنَّما تَبْحَثانِ عَنْهُ ، وَكَأَنَّ ٱلْمَرْأَةَ تَعْرِفُ أَنَّهُ مَوْجودٌ بِٱلْغُرْفَةِ . وَلَمْ يَجِدْ في هاتَيْنِ ٱلْعَيْنَيْنِ شَيْئًا يُذَكِّرُهُ بِٱلْماضي ، فَٱلْفَتاةُ ٱلَّتي كانَ قَدْ تَزَوَّجَها لَيْسَ لَها ذٰلِكَ ٱلْوَجْهُ ٱلْمُرْعِبُ ، وَكَأَنَّ ما يَراهُ شَيْءٌ أَشْبَهُ بِحَيَوانٍ يَجْلِسُ في ٱلسَّريرِ .

وَما إِنْ لاحَظَتْ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلزُّجاجَتَيْنِ ٱلْمَوْضوعَتَيْنِ فَوْقَ ٱلْمِنْضَدَةِ حَتّى مَدَّتْ يَدَها بِنَهَمٍ . وَلٰكِنَّ ستيفن لَمْ يُحَرِّكْ ساكِنًا عِنْدَما شاهَدَها تُمْسِكُ بِزُجاجَةِ ٱلسُّمِّ وَتَفْتَحُها بِأَسْنانِها . وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، فَهَلْ كانَ ما يَراهُ حُلْمًا أَمْ حَقيقَةً ؟ وَلٰكِنَّهُ صاحَ أَخيرًا : « اِسْتَيْقِظي يا راشيل ! اِسْتَيْقِظي وَإِلّا ماتَتْ هٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ ! »

كانَتِ ٱلْمَرْأَةُ قَدْ رَفَعَتِ ٱلزُّجاجَةَ بِبُطْءٍ إلى فَمِها ، وَما مِنْ أَحَدٍ بَعْدَ ذٰلِكَ سَيُمْكِنُهُ مُساعَدَتُها . وَفي ٱللَّحْظَةِ ٱلتّالِيَةِ أَطْلَقَتْ راشيل صَرْخَةً وَهِيَ تَنْدَفِعُ إلى سَريرِها . وَقاوَمَتْها ٱلْمَرْأَةُ وَشَدَّتْ شَعْرَها ، وَلٰكِنَّ راشيل ٱنْتَزَعَتْ مِنْها ٱلزُّجاجَةَ .

اِنْدَفَعَ ستيفن إلى ٱلسَّريرِ قائِلًا : « ماذا يَحْدُثُ يا راشيل ؟ أَ حُلْمٌ هٰذا أَمْ

حَقيقَةٌ ؟ »

أجابَتْهُ راشيل : « إنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ ٱلآنَ يا ستيفِن . لا بُدَّ أنَّني ٱسْتَغْرَقْتُ في ٱلنَّوْمِ . »

عِنْدَما رَأى ستيفِن وَجْهَ راشيل ٱلشّاحِبَ وَشَعْرَها ٱلمُنْتَفِشَ ، وَما تَرَكَتْهُ أظافِرُ ٱلمَرْأةِ مِنْ خُدوشٍ عَلى وَجْهِها ؛ أدْرَكَ عِنْدَئِذٍ أنَّ ما حَدَثَ كانَ حَقيقَةً وَلَيْسَ حُلْمًا .

عادَتْ راشيل تَصُبُّ ٱلسُّمَّ عَلى قِطْعَةِ ٱلقُماشِ لِتَمْسَحَ بِهِ عَلى رَقَبَةِ ٱلمَرْأةِ قائِلَةً : « لَقَدْ بَلَغَتِ ٱلسّاعَةُ ٱلثّالِثَةَ ، وَكَمْ أنا سَعيدَةٌ أنَّني ظَلَلْتُ ساهِرَةً إلى جِوارِها . إنَّها هادِئَةٌ ٱلآنَ ، كَما أنَّني قَدِ ٱنْتَهَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَلَنْ نَحْتاجَ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى ما تَبَقّى بِهٰذِهِ ٱلزُّجاجَةِ . »

ثُمَّ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ ٱلمِدْفَأةِ وَأفْرَغَتْ عَلى ٱلرَّمادِ ما تَبَقّى بِٱلزُّجاجَةِ مِنْ سُمٍّ وَقالَتْ : « سَوْفَ أنْصَرِفُ ٱلآنَ وَأعودُ إلى مَنْزِلي يا ستيفِن . »

فَقالَ لَها : « سَوْفَ أُرافِقُكِ يا راشيل . لا أُريدُ أنْ تَخْرُجي بِمُفْرَدِكِ . »

قالَتْ : « لا ! يَجِبُ أنْ تَبْقى مَعَها ، فَلا خَوْفَ عَلَيَّ . »

سَأَلَها : « أَلا تَخافينَ أنْ تَتْرُكيني وَحْدي مَعَها ؟ »

أجابَتْ : « نَعَمْ يا ستيفِن . »

قالَ : « إنَّكِ تُحَوِّلينَني مِنَ ٱلشَّرِّ إلى ٱلخَيْرِ . كَمْ أوَدُّ أنْ أتَشَبَّهَ بِكِ أكْثَرَ

وَأكْثَرَ . لَقَدْ أنْقَذْتِني يا راشيل ، وَقَدْ تَساءَلْتُ عِنْدَما رَأيْتُ زُجاجَةَ ٱلسُّمِّ : ' ماذا عَسايَ أنْ أفْعَلَ لِنَفْسي أوْ لَها ؟ '... »

وَضَعَتْ راشيل يَدَها عَلى فَمِهِ لِتوقِفَ كَلِماتِهِ ، لٰكِنَّهُ تَناوَلَ يَدَها بَيْنَ يَدَيْهِ قائِلًا : « لَقَدْ رَأيْتُكِ بِجِوارِ فِراشِها ، وَسَأتَخَيَّلُكِ دائِمًا يا راشيل بِجِوارِ فِراشِها ، وَسَأتَخَيَّلُكِ دائِمًا بِجِواري . »

وَسارَ مَعَها إلى ٱلشّارِعِ ، وَأَلْقَتْ عَلَيْهِ تَحِيَّةَ ٱلمَساءِ بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ . وَكانَ ٱلمَطَرُ قَدْ تَوَقَّفَ وَبَدَتِ ٱلنُّجومُ في ٱلسَّماءِ أكْثَرَ إشْراقًا ، وَلَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ إلّا في شَيْءٍ واحِدٍ هُوَ أنَّ راشيل هِيَ ضَوْءُ ٱلنُّجومِ ٱلَّذي يُنيرُ حَياتَهُ .

الفَصْـــلُ ٱلثَّامِـــنُ

إذا كانَتِ ٱلأَنْوالُ في مَصْنَعِ باونْدِرْبي قادِرَةً عَلى أَنْ تَنْسِجَ ٱلخاماتِ لِتَصْنَعَ مِنْها أَشْياءَ جَديدَةً . فَٱلزَّمَنُ أَقْدَرُ مِنْ تِلْكَ ٱلأَنْوالِ وَأَقْوى ، فَهُوَ يَنْسِجُ خُيوطَ ٱلحَياةِ ، وَيَصْنَعُ مِنْها مُسْتَقْبَلَ ٱلنّاسِ . فَفي خِلالِ عامَيْنِ جَعَلَ ٱلزَّمَنُ مِنْ لويزا شابَّةً مُكْتَمِلَةَ ٱلأُنوثَةِ . وَجَعَلَ مِنَ ٱلصَّغيرِ توماس كاتِبًا في بَنْكِ باونْدِرْبي ، وَضَيْفًا في مَنْزِلِهِ أَيْضًا . وَقَدْ تَكونُ حَياةُ كاتِبِ ٱلبَنْكِ قاسِيَةً ، وَلٰكِنْ كانَ لَدى توماس وَقْتٌ كافٍ لِيُسَلّي نَفْسَهُ بَعيدًا عَنِ ٱلمَنْزِلِ .

أَمّا سيسي جوب ٱلخامَةُ ٱلطَّيِّبَةُ ، فَقَدْ صاغَتْ مِنْها يَدُ ٱلزَّمَنِ فَتاةً رائِعَةَ ٱلجَمالِ ، وَلٰكِنْ لِلأَسَفِ لَمْ تُغَيِّرْ مِنْ عَقْلِيَّتِها أَوْ أُسْلوبِها في ٱلتَّفْكيرِ . وَقَدْ أَحْزَنَ هٰذا ٱلسَّيِّدَ غرادْغرايْند ، وَلٰكِنَّ حُبَّهُ لَها كانَ أَكْبَرَ مِنْ غَضَبِهِ مِنْها . وَخِلالَ تِلْكَ ٱلفَتْرَةِ كانَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند قَدْ أَصْبَحَ عُضْوًا في ٱلبَرْلَمانِ عَنْ كوكْتاون . وَكانَ يُسْعِدُهُ دائِمًا أَنْ يُطْلِقَ عَلى نَفْسِهِ ٱسْمَ « عُضْو عَنِ ٱلحَقائِقِ » .

ذاتَ يَوْمٍ قالَ لِسيسي : « لَمْ تَعُدِ ٱلمَدْرَسَةُ ذاتَ فائِدَةٍ لَكِ يا آنِسَةُ جوب ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنَ ٱلأَفْضَلِ لَكِ أَنْ تَتْرُكيها . »

أَجابَتْهُ سيسي : « نَعَمْ يا سَيِّدي ، وَيُؤْسِفُني هٰذا . »

قالَ : « إِنَّكِ لَمْ تَتَعَلَّمي في ٱلمَدْرَسَةِ سِوى قَدْرٍ مَحْدودٍ مِنَ ٱلحَقائِقِ وَٱلأَرْقامِ . »

رَدَّتْ قائِلَةً : « هٰذا صَحيحٌ يا سَيِّدي ، رَغْمَ أَنَّني بَذَلْتُ قُصارى جُهْدي كَيْ أَتَعَلَّمَ . »

قالَ : « نَعَمْ يا آنِسَةُ جوب . لَقَدْ كُنْتُ أُراقِبُكِ عَنْ كَثَبٍ ، وَأَعْرِفُ أَنَّكِ حاوَلْتِ جاهِدَةً ، وَلٰكِنَّ ٱلمُشْكِلَةَ أَنَّكِ بَدَأْتِ مُتَأَخِّرَةً ؛ كَما أَنَّ حَياتَكِ ٱلأُولى لَمْ تَكُنْ حَياةً مُوَفَّقَةً . »

أَجابَتْهُ سيسي وَٱلدُّموعُ تَمْلَأُ عَيْنَيْها : « إِنّي آسِفَةٌ يا سَيِّدي . »

رَدَّ قائِلًا : « لا تَبْكي يا آنِسَةُ جوب ، لا تَبْكي . إِنَّني لا أَشْكو مِنْكِ ، فَأَنْتِ فَتاةٌ رَقيقَةٌ طَيِّبَةٌ وَمُحِبَّةٌ ، وَفي هٰذا ما يَكْفي . »

إِنْحَنَتْ سيسي قائِلَةً : « أَشْكُرُكَ يا سَيِّدي شُكْرًا جَزيلًا . »

قالَ : « لَقَدْ كُنْتِ دائِمًا عَوْنًا لِلسَّيِّدَةِ غرادْغرايْند ، بَلْ وَأَيْضًا لِلآنِسَةِ لويزا ، حَسْبَما أَعْتَقِدُ ، وَآمُلُ أَنْ تَكوني سَعيدَةً هُنا . »

رَدَّتِ ٱلفَتاةُ : « نَعَمْ يا سَيِّدي . »

وَفي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَقْبَلَتْ لويزا إِلى غُرْفَةِ ٱلدِّراسَةِ ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْها والِدُها ، وَأَمْسَكَ بِيَدِها قائِلًا : « يَبْدو يا عَزيزَتي أَنَّني قَدِ ٱنْشَغَلْتُ عَنْكِ حَتّى كَبِرْتِ وَأَصْبَحْتِ شابَّةً ناضِجَةً ، أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

كانَ رَدُّ لويزا نَظْرَةً سَريعَةً تَفَحَّصَتْ بِها وَجْهَ والِدِها ، ثُمَّ أَطْرَقَتْ قائِلَةً : « بَلى يا أَبي . »

قالَ لَها : « يَجِبُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكِ حَديثًا جادًّا يا عَزيزَتي . هَلْ لَكِ أَنْ

تحضري إلى مَكتبي غدًا صباحًا عقِبَ الإفطار ؟ سأُجري مُحادثةً مُهِمّةً مساءَ اليوم ، وعِندما أعودُ ستكونينَ قد أخلدتِ إلى النَّوم . »

وتمنّى لها ليلةً سعيدةً بعدَ أنْ قبّلَ وجنتَها ، وبادلتْهُ لويزا التحيّةَ .

بعدَ مُرورِ ساعةٍ تقريبًا ، قدِمَ توم الصَّغيرُ إلى ستّون لودج ، وسُرَّ عِندما وجدَ أُختَهُ وحدَها في غُرفةِ الدِّراسةِ . وما إنْ رأتْهُ لويزا حتّى قالتْ : « يا عزيزي توم ! إنّكَ لَمْ تأتِ هُنا مُنذُ زمنٍ طويلٍ . »

ردَّ توم : « نعَمْ يا لو . إنَّ أُمورًا عديدةً تَشغَلُني دائمًا في المساءِ ، كما أنَّ باوندربي العجوزَ عادةً ما يُكلِّفُني بما يَشغَلُني طوالَ اليوم . إنّهُ رجُلٌ صعبٌ في بعضِ الأحيانِ ، وعليَّ أنْ أُذكِّرَهُ بكِ دائمًا . ولكِنْ أخبريني يا لو هلْ ذكرَ لكِ أبي شيئًا اليومَ أوْ بالأمسِ ؟ »

أجابتْهُ : « لا يا توم ، ولكِنّهُ يُريدُ أنْ يتحدّثَ إليَّ صباحَ الغدِ . »

ردَّ قائلًا : « آهٍ ، هذا ما أعنيهِ ! هلْ تعرفينَ أينَ سيكونُ الليلةَ ؟ »

أجابتْ : « لا أعرفُ . »

قالَ لها : « إذًا سأُخبِرُكِ أنا : إنّهُ سيكونُ معَ السيِّدِ باوندربي ليتحدّثا في البنكِ . ولكِنْ هلْ تعرفينَ لِمَ يتحدّثانِ بالبنكِ ؟ سأُخبِرُكِ أنا : سيتحدّثانِ بالبنكِ حتّى لا تَسمَعَ السيِّدةُ سبارسيت حديثَهُما . » ثُمَّ وضعَ ذِراعَهُ حَوْلَ شقيقتِهِ وجذبَها إليهِ في حنانٍ ، وسألَها : « أنتِ تُحبّينني يا لو ، أليسَ كذلِكَ ؟ »

أجابتْهُ أُختُهُ : « بطبيعةِ الحالِ يا توم . ولكِنْ لِماذا لا تأتي لِزيارتي ؟ »



ردَّ توم : « إنّني أُفكِّرُ فيكِ دائمًا يا لو . إنّنا قدْ نظلُّ معًا لِفترةٍ ، بلْ وقدْ نبقى معًا على الدَّوام . أليسَ كذلِكَ ؟ كما أنّكِ إنْ وافقتِ الوالِدَ فيما سيقولُهُ لكِ فإنّكِ بهذا ستُساعدينني مُساعدةً كبيرةً ، بلْ قدْ أجدُ نفسي مِنْ أسعَدِ شبابِ كوكتاون حظًّا . »

لكِنَّ لويزا كانتْ تُحملِقُ إلى نيرانِ المِدفأةِ دونَ أنْ تكشِفَ ملامحُ وجهِها شيئًا عمّا يدورُ في سريرتِها . ولَمْ يستطِعْ أخوها أنْ يستشِفَّ شيئًا مِنْ تلكَ الملامحِ ، ولكِنّهُ جذبَها إليهِ أكثرَ فأكثرَ في حنانٍ زائدٍ وقبّلَ وجنتَها ؛ فقبّلتْهُ بدورِها وهيَ لا تزالُ تشخَصُ ببصرِها إلى نيرانِ المِدفأةِ .

واصلَ توم حديثَهُ قائلًا : « لقدْ جِئتُ لكيْ أُخبِرَكِ بشيءٍ ما ، ولا شكَّ أنّكِ

قَدْ حَزَرْتِ ٱلآنَ ما نَوَيْتُ أَنْ أَقولَهُ . وَٱلآنَ عَلَيَّ أَنْ أَنْصَرِفَ يا لو ، فَسَأَذْهَبُ ٱللَّيْلَةَ إلى حَفْلٍ في صُحْبَةِ بَعْضِ ٱلزُّمَلاءِ مِنْ مُوَظَّفي ٱلبَنْكِ . وَلٰكِنْ تَذَكَّري دائِمًا حُبَّكِ لي . »

قالَتْ : « سَأَتَذَكَّرُ ذٰلِكَ يا تُوم . »

قالَ : « يا لَكِ مِنْ فَتاةٍ رائِعَةٍ يا لُو ! إلى ٱللِّقاءِ . »

تَمَنَّتْ لَهُ أُخْتُهُ قَضاءَ أُمْسِيَةٍ سَعيدَةٍ وَهِيَ تَرْقُبُهُ يَخْرُجُ مُسْرِعًا ، ثُمَّ شَخَصَتْ بِبَصَرِها إلى نيرانِ ٱلمِدْفَأَةِ ٱلمَوْجودَةِ في حُجْرَةِ ٱلدِّراسَةِ وَكَأَنَّها تَبْحَثُ فيها عَنْ شَيْءٍ ما . وَلَمّا لَمْ تَجِدْهُ في تِلْكَ ٱلنّيرانِ جالَتْ بِبَصَرِها في ٱلسَّماءِ ٱلَّتي صَبَغَتْها نيرانُ ٱلمَصانِعِ بِٱللَّوْنِ ٱلأَحْمَرِ ، عَساها أَنْ تَجِدَ بِها ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذي تَبْحَثُ عَنْهُ . لَقَدْ جَعَلَ مِنْها ٱلزَّمَنُ فَتاةً ناضِجَةً . وَٱلآنَ تَتَساءَلُ : أَيُّ مُسْتَقْبَلٍ يَنْسِجُ لَها ٱلزَّمَنُ خُيوطَهُ ؟

حَمَلَتْ لَها صَبيحَةُ ٱليَوْمِ ٱلتّالي إجابَةَ هٰذا ٱلتَّساؤُلِ ، عِنْدَما تَحَدَّثَ إلَيْها والِدُها عَقِبَ ٱلإِفْطارِ قائِلًا : « كَمْ أَنا سَعيدٌ بِكِ يا عَزيزَتي لويزا ، وَسَعيدٌ بِتِلْكَ ٱلنَّتائِجِ ٱلَّتي حَقَّقْتِها بِتَعْليمِكِ . فَقَدْ أَفادَتْكِ ٱلحَقائِقُ كَثيرًا ؛ إذْ لَمْ أَسْمَحْ قَطُّ لِتِلْكَ ٱلنَّزَواتِ ٱلغَبِيَّةِ بِأَنْ تَجِدَ لَها مَكانًا في هٰذا ٱلبَيْتِ . وَلَمْ يَسْتَطِعِ ٱلخَيالُ ٱلعاطِلُ أَنْ يُخِلَّ بِميزانِ حَياتِكِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّني أَعْرِفُ أَنَّكِ سَتَتَّفِقينَ مَعي فيما سَأَقولُهُ ٱلآنَ . »

وَٱنْتَظَرَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْها تَعْليقًا عَلى ما قالَ ، وَلٰكِنَّها لَزِمَتِ ٱلصَّمْتَ ، فَٱسْتَطْرَدَ قائِلًا : « لَقَدْ تَقَدَّمَ رَجُلٌ يَطْلُبُ ٱلزَّواجَ بِكِ يا عَزيزَتي . »

إنْتَظَرَ هُنَيْهَةً أُخْرى لِيَسْمَعَ رَدَّها ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَنْطِقْ بِشَيْءٍ ، وَبَلَغَتْ بِهِ ٱلدَّهْشَةُ

حَدًّا جَعَلَهُ يُكَرِّرُ قَوْلَهُ بِرِقَّةٍ : « إنَّهُ يَطْلُبُ ٱلزَّواجَ بِكِ . »

قالَتْ لويزا : « إنَّني أَسْمَعُكَ يا أَبي . إنَّني مُصْغِيَةٌ إلَيْكَ . »

أَجابَها : « إذًا قولي شَيْئًا . »

قالَتْ : « لَيْسَ بَعْدُ يا والِدي ، فَلْتُخْبِرْني أَوَّلًا بِكُلِّ شَيْءٍ . »

إنْتابَ ٱلرَّجُلَ إحْساسٌ بِعَدَمِ ٱلإِرْتِياحِ ؛ فَتَناوَلَ مِسْطَرَةً مِنْ فَوْقِ مَكْتَبِهِ ، وَحَمْلَقَ إلَيْها قائِلًا : « نَعَمْ بِطَبيعَةِ ٱلحالِ . فَهُناكَ بَعْضُ ٱلحَقائِقِ ٱلمُهِمَّةِ ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ تَعْرِفيها . لَقَدْ كانَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي سَعيدًا أَيَّ سَعادَةٍ وَهُوَ يَراكِ تَكْبُرينَ حَتّى صِرْتِ شابَّةً ناضِجَةً ، وَكَمْ تَمَنّى دائِمًا أَنْ يَتَقَدَّمَ يَوْمًا طالِبًا أَنْ يَتَزَوَّجَكِ . وَيَعْتَقِدُ ٱلآنَ أَنَّ هٰذا ٱليَوْمَ قَدْ جاءَ ؛ لِذا فَهُوَ يَأْمُلُ أَنْ تَقْبَليهِ زَوْجًا لَكِ . هٰذِهِ هِيَ ٱلرِّسالَةُ ٱلَّتي أَحْمِلُها لَكِ . »

خَيَّمَ ٱلصَّمْتُ عَلى أَرْجاءِ ٱلغُرْفَةِ لِفَتْرَةٍ مِنَ ٱلوَقْتِ ، ثُمَّ قالَتْ لويزا بِهُدوءٍ : « أَ تَعْتَقِدُ يا أَبي أَنَّني أُحِبُّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي ؟ »

أَجابَها وَقَدِ ٱزْدادَ شُعورُهُ بِعَدَمِ ٱلإِرْتِياحِ : « لا أَعْرِفُ يا عَزيزَتي . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تُريدُني يا أَبي أَنْ أُحِبَّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي ؟ »

أَجابَها : « لا يا عَزيزَتي ، فَلَيْسَ هٰذا ما أُريدُهُ بِوَجْهٍ خاصٍّ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ يُريدُ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي أَنْ أُحِبَّهُ يا أَبي ؟ »

أَجابَها : « في حَقيقَةِ ٱلأَمْرِ ، هٰذا سُؤالٌ تَصْعُبُ ٱلإِجابَةُ عَنْهُ يا عَزيزَتي . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ يَصْعُبُ عَلَيْكَ أَنْ تُجيبَ بِنَعَمٍ أَوْ بِلا يا أَبي ؟ »

رَدَّ قائِلًا : « نَعَمْ . وَماذا تَعْني كَلِمَةُ « ٱلحُبّ » يا عَزيزَتي ، فَأَنْتِ وَٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي مِنْ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ يُؤْمِنونَ بِٱلحَقائِقِ وَلَيْسَ بِٱلنَّزَواتِ ٱلعارِمَةِ ؟ فَٱلشَّبابُ وَأُغْبِياءُ ٱلنّاسِ قَدْ يَتَكَلَّمونَ عَنِ ٱلحُبِّ ، وَلٰكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْرِنَ ذٰلِكَ بِعَرْضِ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي لِلزَّواجِ بِكِ . »

سَأَلَتْهُ : « أَيُّ كَلِمَةٍ يُمْكِنُني إِذًا أَنْ أَسْتَخْدِمَها يا أَبي بَدَلًا مِنْ كَلِمَةِ ٱلحُبِّ ؟ »

أَجابَها : « ٱلحَقائِقُ يا عَزيزَتي ، إِسْتَخْدِمي كَلِمَةَ ٱلحَقائِقِ . لَقَدْ بَلَغْتِ ٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِكِ تَقْريبًا ، وَلَعَلَّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي في ٱلخَمْسينَ مِنْ عُمْرِهِ ؛ وَلٰكِنْ لَيْسَ لِهٰذا ٱلفارِقِ في ٱلسِّنِّ أَهَمِّيَّةٌ تُذْكَرُ . فَأَنْتِ تُساوينَهُ في ٱلمَكانَةِ وَٱلثَّرْوَةِ ، وَعادَةً ما يَكونُ ٱلرَّجُلُ أَكْبَرَ سِنًّا مِنَ ٱلمَرْأَةِ عِنْدَ ٱلزَّواجِ . وَتِلْكَ حَقيقَةٌ نَجِدُها سَواءً في إِنْجِلْتِرا أَوْ في ٱلهِنْدِ أَوِ ٱلصّينِ . »

ظَلَّتْ لويزا عَلى هُدوئِها وَعادَتْ تَسْأَلُ والِدَها : « هَلْ تَعْتَقِدُ يا أَبي أَنَّهُ يُمْكِنُ لِلْحَقائِقِ أَنْ تَقومَ مَقامَ ٱلحُبِّ ؟ »

أَجابَها : « بِٱلتَّأْكيدِ يا عَزيزَتي . فَقَدْ طَلَبَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي أَنْ يَتَزَوَّجَكِ ، وَهٰذِهِ حَقيقَةٌ مِنَ ٱلحَقائِقِ . أَمّا ٱلحَقيقَةُ ٱلمُهِمَّةُ فَهِيَ إِجابَتُكِ عَنْ هٰذا ٱلسُّؤالِ بِكُلِّ بَساطَةٍ : هَلْ تَقْبَلينَهُ زَوْجًا لَكِ ؟ »

كَرَّرَتْ لويزا ٱلسُّؤالَ : « هَلْ أَقْبَلُهُ زَوْجًا لي ؟ »

كانَتِ ٱلفَتاةُ تَرْتَعِدُ ، وَتَمَنَّتْ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ لَوْ أَنَّها أَلْقَتْ بِنَفْسِها بَيْنَ ذِراعَيْ

أَبيها وَأَخْبَرَتْهُ بِمَكْنونِ قَلْبِها . وَلٰكِنَّ توماس غرادْغرايْند لَمْ يَلْحَظْ شَيْئًا ؛ فَقَدْ كانَ هُناكَ جِدارٌ مُرْتَفِعٌ يَفْصِلُ بَيْنَ عَقْلِهِ وَبَيْنَ كافَّةِ ٱلمَشاعِرِ ٱلمُعْتادَةِ ، وَلِهٰذا فَقَدْ مَرَّتْ تِلْكَ ٱللَّحْظَةُ مِثْلَما مَرَّ ما قَبْلَها مِنْ لَحَظاتٍ ، وَضاعَتْ عَلَيْها تِلْكَ ٱلفُرْصَةُ .

طالَ صَمْتُها فَعادَ والِدُها يَسْأَلُها : « فيمَ تُفَكِّرينَ يا عَزيزَتي ؟ »

أَجابَتْ : « إِنَّ ٱلحَياةَ قَصيرَةٌ يا أَبي . »

قالَ : « وَلٰكِنَّ ٱلنّاسَ يَعيشونَ ٱلآنَ أَطْوَلَ مِمّا كانوا يَعيشونَ مُنْذُ خَمْسينَ عامًا مَضَتْ . »

قالَتْ : « إِنَّني أُفَكِّرُ في حَياتي أَنا يا أَبي . »

قالَ : « لا شَكَّ يا عَزيزَتي أَنَّ ٱلحَياةَ سَتَطولُ بِكِ شَأْنُكِ في ذٰلِكَ شَأْنُ مُعْظَمِ ٱلنّاسِ . »

قالَتْ : « إِنَّني أَوَدُّ أَنْ أَصْنَعَ شَيْئًا طَيِّبًا في حَياتي ، وَقَدْ لا يَعْني هٰذا شَيْئًا ؛ فَٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي يَرْغَبُ في أَنْ يَتَزَوَّجَني ، وَأَنا لا أُحِبُّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي ، فَإِنْ فَهِمَ ذٰلِكَ فَسَأَقْبَلُهُ زَوْجًا ، وَعَلَيْهِ عِنْدَئِذٍ أَنْ يَقْبَلَني كَما أَنا ، وَأَرْجو أَنْ تُبْلِغَهُ ذٰلِكَ يا أَبي وَبِكُلِّ دِقَّةٍ . »

قالَ : « سَوْفَ أَفْعَلُ ذٰلِكَ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّوابِ أَنْ يَكونَ ٱلإِنْسانُ دَقيقًا . هَلْ لَدَيْكِ أَيَّةُ رَغْبَةٍ تَتَعَلَّقُ بِمَوْعِدِ زَواجِكِ ؟ »

أَجابَتْهُ : « لا يا أَبي ، إِنَّ هٰذا لا يَهُمُّ كَثيرًا . »

رَمَقَها والِدُها بِنَظْرَةٍ حادَّةٍ وَقالَ : « لَعَلَّهُ يَنْبَغي عَلَيَّ يا لويزا أَنْ أَسْأَلَكِ سُؤالًا أَخيرًا : هَلْ طَلَبَ شابٌّ آخَرُ أَنْ يَتَزَوَّجَكِ ؟ »

أَجابَتْهُ : « مَنْ تَظُنُّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِلزَّواجِ بي ؟ وَمَنْ ذا ٱلَّذي ٱلْتَقَيْتُ بِهِ مِنْ قَبْلُ ؟ وَأَيْنَ حَدَثَ هٰذا ؟ وَما هِيَ تَجارِبي العاطِفِيَّةُ ؟ »

قالَ : « لَقَدْ كانَ مِنْ واجِبي أَنْ أَسْأَلَكِ هٰذا ٱلسُّؤالَ يا لويزا . »

قالَتْ : « إِنَّني لا عَهْدَ لي بِما يُراوِدُ ٱلنِّساءَ مِنْ آمالٍ أَوْ بِما يَشْعُرْنَ بِهِ مِنْ رَغَباتٍ وَمِنْ عَواطِفَ . »

قالَ : « هٰذا صَحيحٌ يا عَزيزَتي ، وَإِنّي لَسَعيدٌ بِذٰلِكَ . »

اِسْتَطْرَدَتْ لويزا قائِلَةً : « كَثيرًا ما يُمَثِّلُ ٱلأَطْفالُ دَوْرَ ٱلأَبِ وَٱلأُمِّ عِنْدَما يَلْعَبونَ ، وَلٰكِنّي لَمْ أَفْعَلْ ذٰلِكَ ؛ فَقَدْ دَرَّبْتَني جَيِّدًا حَتّى لَمْ يَكُنْ لي يَوْمًا قَلْبُ طِفْلَةٍ . »

رَدَّ والِدُها : « هٰذا صَحيحٌ يا عَزيزَتي ، فَقَدْ كانَ في تَعْليمِكِ دائِمًا ما أَسْعَدَني سَعادَةً كُبْرى ، وَٱليَوْمَ هٰأَنَذا أَجْني ثِمارَ ذٰلِكَ ، فَٱلسَّيِّدُ باوِنْدَرْبي رَجُلٌ عَظيمٌ . وَلْنَذْهَبِ ٱلآنَ لِنُخْبِرَ والِدَتَكِ . »

كانَتْ زَوْجَةُ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند تَتَمَنّى لَوْ أَنَّ لويزا شَعَرَتْ بِٱلسَّعادَةِ . وَكانَتْ سيسي في تِلْكَ ٱلأَثْناءِ تَجْلِسُ إِلى جِوارِ فِراشِ ٱلسَّيِّدَةِ ٱلمَريضَةِ ، تَقومُ بِبَعْضِ أَشْغالِ ٱلإِبْرَةِ . وَنَظَرَتْ إِلى لويزا نَظْرَةً حَزينَةً ، وَلٰكِنَّها نَظْرَةٌ مَليئَةٌ بِمَشاعِرِ ٱلحُبِّ ٱلَّتي تُخالِطُها أَحاسيسُ ٱلشَّكِّ وَٱلشَّفَقَةِ . وَقَدْ أَدْرَكَتْ ذٰلِكَ لويزا ، وَتَبَدَّلَتْ

مَشاعِرُها مُنْذُ تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ، وَصارَتْ صامِتَةً جامِدَةً مُتَكَبِّرَةً ، وَكَفَّتْ عَنْ صَداقَتِها لِسيسي ، حَتّى إِنَّها لَمْ تَعُدْ تُبادِلُها ٱلحَديثَ .

الفَصْلُ آلتّاسِعُ

كانَ آلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي يَخْشى — إلى حَدٍّ ما — أَنْ يُخْبِرَ آلسَّيِّدَة سبارْسِت بِشَيْءٍ عَنْ نِيَّتِهِ في آلزَّواجِ ، وَكانَ يَتَساءَلُ عَمّا سَتَفْعَلُهُ : رُبَّما تَتْرُكُ آلبَيْتَ عَلى آلفَوْرِ ، أَوْ لا تُحَرِّكُ ساكِنًا ، وَكانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِمّا أَنْ يَتَحَطَّمَ قَلْبُها ، أَوْ تَقومَ بِتَحْطيمِ أَثاثِ آلبَيْتِ .

قالَ لَها : « يا سَيِّدَةُ سبارْسِت ! لَقَدْ نَشَأْتِ في أَحْضانِ آلتَّرَفِ وَآلرَّفاهِيَةِ ، كَما أَنَّكِ سَيِّدَةٌ عَظيمَةٌ فاضِلَةٌ وَحَكيمَةٌ أَيْضًا . »

قالَتْ : « يُسْعِدُني أَنْ يَكونَ هٰذا رَأْيَكَ يا سَيِّدي »

قالَ : « وَآلآنَ يا سَيِّدَتي سَوْفَ أُثيرُ دَهْشَتَكِ : سَوْفَ أَتَزَوَّجُ آبْنَةَ توماس غرادغرايْند . »

قالَتْ : « أَحَقًّا يا سَيِّدي ؟ أَتَمَنّى لَكَ آلسَّعادَةَ يا سَيِّدْ باوِنْدِرْبي . نَعَمْ ، أَتَمَنّى لَكَ كُلَّ آلسَّعادَةِ . » وَفي كِبْرِياءٍ يُخالِطُها إِحْساسٌ بِآلإِشْفاقِ عَلَيْهِ كَرَّرَتْ قَوْلَها : « أَتَمَنّى لَكَ ، مِنْ كُلِّ قَلْبي يا سَيِّدي ، دَوامَ آلسَّعادَةِ . »

رَدَّ قائِلًا : « شُكْرًا لَكِ يا سَيِّدَتي ، وَهٰذا ما أَتَمَنّاهُ أَيْضًا . وَلَعَلَّكِ لا تَرْغَبينَ في آلبَقاءِ مَعَنا بَعْدَ زَواجي ، وَلٰكِنَّني بِطَبيعَةِ آلحالِ أُرَحِّبُ بِكِ هُنا دائِمًا . »

هَزَّتِ آلسَّيِّدَةُ سبارْسِت رَأْسَها ، وَقالَتْ بِكِبْرِياءٍ : « لَنْ يُمْكِنَني أَنْ أَبْقى هُنا يا سَيِّدي . »

قالَ آلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي بِسُرْعَةٍ : « ثَمَّةَ شَقَّةٌ واسِعَةٌ فَوْقَ آلبَنْكِ يا سَيِّدَتي . إِنَّكِ إِنْ أَقَمْتِ بِها فَسَتُضيفينَ — بِلا شَكٍّ — قيمَةً إِلى آلبَنْكِ ، أَمّا أَنا فَسَأَدْفَعُ لَكِ آلمَبْلَغَ نَفْسَهُ ... »

قاطَعَتْهُ قائِلَةً : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَلا داعِيَ لِمُناقَشَةِ هٰذِهِ آلتَّفاصيلِ يا سَيِّدي ، فَآلأَمْرُ لا يَخْتَلِفُ كَثيرًا سَواءٌ أَقَمْتُ هُنا أَمْ بِآلبَنْكِ ، فَمَكانَتي سَتَظَلُّ عالِيَةً هُناكَ شَأْنُها شَأْنُ مَكانَتي هُنا . »

قاطَعَها باوِنْدِرْبي بِدَوْرِهِ قائِلًا : « آهٍ ، لا شَكَّ في ذٰلِكَ يا سَيِّدَتي . لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْتَرِحَ شَيْئًا أَقَلَّ مِمّا تَسْتَحِقُّهُ سَيِّدَةٌ لَها مِثْلُ أَصْلِكِ . فَأَنا — بِطَبيعَةِ آلحالِ — رَجُلٌ مِنَ آلشّارِعِ ، أَمّا أَنْتِ فَقَدِ آعْتَدْتِ حَياةَ آلتَّرَفِ وَآلنَّعيمِ . »

قالَتْ : « نَعَمْ ، هٰذا صَحيحٌ يا سَيِّدي . يا لَكَ مِنْ رَجُلٍ رَقيقٍ ! »

قالَ : « إِنَّ تِلْكَ آلشَّقَّةَ آلَّتي فَوْقَ آلبَنْكِ مُريحَةٌ لِلْغايَةِ ، وَيُمْكِنُكِ يا سَيِّدَتي أَنْ تَسْتَعيني بِمَنْ يُنَظِّفُها لَكِ . كَما أَنَّ هُناكَ رَجُلًا يَتَوَلّى حِراسَةَ آلبَنْكِ ، وَسَيَقومُ بِحِراسَتِكِ أَيْضًا . »

قالَتْ : « لا تَقُلْ شَيْئًا آخَرَ يا سَيِّدي ، فَأَنا أَقْبَلُ ما عَرَضْتَهُ عَلَيَّ بِكُلِّ آلشُّكْرِ وَآلِامْتِنانِ . » ثُمَّ أَضافَتْ وَقَدْ غَلَبَتْها مَشاعِرُ آلإِشْفاقِ عَلَيْهِ : « سَتَكونُ آلآنِسَةُ غرادغرايْند بِآلنِّسْبَةِ لَكَ غايَةَ أَمانيكَ ، وَكُلَّ ما تَسْتَحِقُّ يا سَيِّدي . »

فَأَجابَها مُؤَيِّدًا : « نَعَمْ ، نَعَمْ . آمُلُ ذٰلِكَ . »

حَرَصَتِ آلسَّيِّدَةُ سبارْسِت بَعْدَ ذٰلِكَ عَلى أَنْ تَبْدُوَ دائِمًا مُهَذَّبَةً بالِغَةَ آلرِّقَّةِ عِنْدَما



تَتَحَدَّثُ إلى ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي ، ٱلَّذي سَيَتَزَوَّجُ ٱلفَتاةَ ٱلَّتي يُريدُها وَيَسْتَحِقُّها . وَلٰكِنَّ نَظْرَةَ ٱلشَّفَقَةِ لَمْ تُفارِقْ وَجْهَها ، تِلْكَ ٱلنَّظْرَةَ ٱلَّتي جَعَلَتْ وَجْنَتَي ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي ٱلحَمْراوَيْنِ ٱلكَبيرَتَيْنِ تَبْدُوانِ ساخِنَتَيْنِ وَتَتَصَبَّبانِ عَرَقًا .

تَحَدَّدَ مَوْعِدُ ٱلزَّواجِ ، وَدَأَبَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي عَلى ٱلذَّهابِ إلى سْتُون لُودْج كُلَّ مَساءٍ . وَكانَ في ٱلهَدايا ٱلقَيِّمَةِ ٱلَّتي قَدَّمَها إلى لويزا ما قامَ مَقامَ ٱلحُبِّ . وَصُنِعَتْ لَها أَفْخَرُ ٱلمَلابِسِ وَٱلأَحْذِيَةِ . وَكانَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي وَٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند قَدِ ٱتَّفَقا عَلى ما يَؤُولُ إلى لويزا مِنْ مالٍ ، كَما خَطَّطا أَيْضًا لِلعُرْسِ مِنْ كافَّةِ ٱلنَّواحي ، بِما في ذٰلِكَ ٱلمَسائِلُ ٱلمالِيَّةُ وَٱلحَقائِقُ .

إنَّ ٱلنّاسَ قَدْ يَخْتَلِفونَ في إحْساسِهِمْ بِزَمَنِ ٱلحُبِّ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَشْعُرُ بِالسّاعاتِ تَمُرُّ سَريعَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُها أَوْقاتًا بَطيئَةً مُتَثاقِلَةً . أَمّا في سْتُون لُودْج فَٱليَوْمُ أَرْبَعٌ وَعِشْرونَ ساعَةً بِٱلتَّمامِ وَٱلكَمالِ ، وَكُلُّ ساعَةٍ سِتّونَ دَقيقَةً .

أَخيرًا جاءَ ٱليَوْمُ ٱلعَظيمُ ، فَقَدْ تَزَوَّجَ ٱلسَّيِّدُ جُوشْيا باوِنْدِرْبي كَريمَةَ عُضْوِ ٱلبَرْلَمانِ ٱلسَّيِّدِ تُوماس غرادْغرايْند . وَبَعْدَ أَنْ تَمَّتْ مَراسِمُ ٱلزَّواجِ تَناوَلَ ٱلضُّيوفُ طَعامَ ٱلإِفْطارِ في سْتُون لُودْج ، ثُمَّ أَلْقى ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي كَلِمَةً قالَ فيها :

« أَيُّها ٱلسَّيِّداتُ وَٱلسّادَةُ ، أَنا جُوشْيا باوِنْدِرْبي مِنْ كُوكْتاون . وَإنَّهُ لَشَرَفٌ لي وَلِزَوْجَتي أَنْ نُرَحِّبَ بِكُمْ هُنا . إنَّكُمْ جَميعًا تَعْرِفونَني جَيِّدًا ، وَتَعْرِفونَ أَنَّني قَدْ بَدَأْتُ حَياتي عَلى قارِعَةِ ٱلطَّريقِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَلا تَتَوَقَّعوا أَنْ تَسْمَعوا مِنّي كَلِماتٍ جَميلَةً . فَصَديقي وَصِهْري تُوماس غرادْغرايْند عُضْوٌ في ٱلبَرْلَمانِ ، وَهُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذي يُمْكِنُهُ أَنْ يُلْقِيَ خِطابًا مُناسِبًا .

« إنَّني أَشْعُرُ ٱليَوْمَ بِٱلفَخْرِ ؛ فَذٰلِكَ ٱلصَّبِيُّ ٱلقَذِرُ ٱلَّذي جاءَ مِنَ ٱلشّارِعِ قَدْ

تَزَوَّجَ ٱبْنَةَ تُوماس غرادْغرايْند . لَقَدْ كُنْتُ أَرْقُبُ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةَ وَهِيَ تَكْبُرُ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّها ٱلْيَوْمَ تَسْتَحِقُّ أَنْ أَكُونَ زَوْجًا لَها ، وَفي ٱلْوَقْتِ نَفْسِهِ سَتَتَّفِقونَ مَعي عَلى أَنَّني جَديرٌ بِها . فَشُكْرًا لَكُمْ أَيُّها ٱلسّادَةُ وَٱلسَّيِّداتُ لِتَمَنِّياتِكُمُ ٱلطَّيِّبَةِ لَنا . إِنَّني أَرى حَوْلَ ٱلْمائِدَةِ عَدَدًا مِنَ ٱلضُّيوفِ غَيْرِ ٱلْمُتَزَوِّجينَ فَإِلَيْهِمْ تَمَنِّياتي : إِنَّني أَتَمَنّى لِكُلِّ رَجُلٍ أَنْ يَجِدَ زَوْجَةً مِثْلَ زَوْجَتي ، كَما أَتَمَنّى لِكُلِّ سَيِّدَةٍ أَنْ تَجِدَ زَوْجًا مِثْلي . »

وَبَعْدَ مُضِيِّ ساعَةٍ كانَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي وَزَوْجَتُهُ مُسْتَعِدَّيْنِ لِلسَّفَرِ لِقَضاءِ شَهْرِ ٱلْعَسَلِ في فَرَنْسا . فَقَدْ كانَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي حَريصًا عَلى زِيارَةِ مَصانِعِ ٱلْأَقْمِشَةِ ٱلْقُطْنِيَّةِ في مَدينَةِ « ليون » لِهٰذا قَصَدَها لِقَضاءِ شَهْرِ ٱلْعَسَلِ .

وَٱلْتَقَتْ لويزا بِأَخيها عَلى سَلالِمِ سْتُون لُودْج فَقالَ لَها : « أَنْتِ أَحْسَنُ أُخْتٍ في ٱلْعالَمِ كُلِّهِ يا لُو ! »

فَأَحاطَتْهُ أُخْتُهُ بِذِراعَيْها ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعِ ٱلْكَلامَ ، وَلٰكِنَّ تُوم ٱسْتَطْرَدَ قائِلًا : « إِنَّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي مُسْتَعِدٌّ ٱلْآنَ ، فَعَلَيْكِ بِٱلذَّهابِ . مَعَ ٱلسَّلامَةِ ! سَأَكونُ في ٱنْتِظارِكُما عِنْدَما تَعودانِ . آهٍ يا لُو ! إِنَّني أَسْعَدُ شَبابِ كُوكْتاون ! أَ لَيْسَتِ ٱلْحَياةُ جَميلَةً ٱلْآنَ ؟ »

الفَصْـــلُ ٱلعاشِـــرُ

كانَ يَوْمًا حارًّا في مَدينَةِ كُوكْتاون ، وَكانَ كُلُّ ٱمْرِئٍ يَعْرِفُ أَنَّهُ فَصْلُ ٱلصَّيْفِ ، وَلَمْ تَكُنِ ٱلْحَرارَةُ بِسَبَبِ ما يُلْقيهِ ضَوْءُ ٱلشَّمْسِ مِنْ ظِلالٍ عَلى ٱلشَّوارِعِ . فَٱلنّاسُ في هٰذِهِ ٱلْمَدينَةِ لا يَرَوْنَ ٱلشَّمْسَ كَثيرًا ؛ لِأَنَّها تَتَوارى عادَةً خَلْفَ سُحُبِ ٱلدُّخانِ ٱلْكَثيفَةِ ٱلدّاكِنَةِ ٱلَّتي تُغَلِّفُ ٱلْمَدينَةَ . وَلٰكِنَّ ٱلْكُلَّ يَعْرِفُ أَنَّهُ ٱلصَّيْفُ ، فَٱلشَّهْرُ هُوَ شَهْرُ يولْيو ، وَمَصانِعُ ٱلْمَدينَةِ شَديدَةُ ٱلْحَرارَةِ .

لَقَدِ ٱنْقَضى عامٌ عَلى زَواجِ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي بِلويزا ، وَطَوالَ هٰذا ٱلْوَقْتِ لَمْ تَكُفَّ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت عَنْ ذٰلِكَ ٱلْإِحْساسِ بِٱلشَّفَقَةِ ٱلَّذي كانَتْ تُحِسُّ بِهِ ناحِيَةَ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي . وَكانَتْ في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ جالِسَةً بِجِوارِ نافِذَتِها ٱلْمُفَضَّلَةِ ، فَقَدْ كانَ لِمَسْكَنِها نافِذَتانِ تُطِلّانِ عَلى ٱلشّارِعِ ٱلَّذي يَقَعُ فيهِ ٱلْبَنْكُ ، وَتَسْتَطيعُ أَنْ تَرى مِنْهُما كُلَّ ما يَدورُ في ٱلْمَدينَةِ . وَكانَتْ كُلَّ صَباحٍ تُراقِبُ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي وَهُوَ يَعْبُرُ ٱلشّارِعَ مُتَوَجِّهًا إِلى ٱلْبَنْكِ ، وَتَراهُ في ٱلْمَساءِ وَهُوَ يَعودُ إِلى مَنْزِلِهِ ، وَكانَتْ إِلى جانِبِ هٰذا تَرى أَشْياءَ أُخْرى كَثيرَةً .

كانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت هِيَ ٱلْمَلِكَةَ ٱلْمُتَوَّجَةَ عَلى ٱلْبَنْكِ أَثْناءَ ٱللَّيْلِ ؛ إِذْ كانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّها هُناكَ لِتَحْرُسَ مَكاتِبَ ٱلْبَنْكِ وَغُرْفَةَ ٱلْخِزانَةِ ذاتَ ٱلْجُدْرانِ وَٱلْأَقْفالِ ٱلْحَديدِيَّةِ ٱلثَّلاثَةِ ٱلَّتي تَحْوي مُعْظَمَ أَمْوالِ كُوكْتاون . وَكانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت — إِلى جانِبِ ذٰلِكَ — تَتَوَلّى ٱلْإِشْرافَ عَلى ٱلْخادِمَةِ ٱلْعَجوزِ ٱلَّتي تَقومُ بِأَعْمالِ ٱلنَّظافَةِ وَٱلطَّهْيِ في ٱلْبَيْتِ ، كَما كانَتْ تَرْأَسُ ذٰلِكَ ٱلشّابَّ ٱلَّذي يَقومُ بِحِراسَةِ ٱلْبَنْكِ لَيْلًا ، وَٱلَّذي كانَ يَضَعُ سَريرَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ أَمامَ ٱلْغُرْفَةِ ٱلْحَديدِيَّةِ .

فِي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ شاهَدَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت ٱلسَّيِّد باوِنْدِرْبي وَهُوَ يُغادِرُ ٱلْبَنْكَ ، وَتَبِعَهُ ٱلْمُوَظَّفونَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِعَشْرِ دَقائِقَ ، ثُمَّ أَحْضَرَ ٱلحارِسُ ٱلشّابُّ إِبْريقَ ٱلشّاي لِلْمَلِكَةِ ، فَقالَتْ لَهُ : « شُكْرًا لَكَ يا بيتْزِر . »

قالَ : « شُكْرًا لَكِ أَنْتِ يا سَيِّدَتي . »

كانَ ٱلحارِسُ ٱلشّابُّ ذا شَعْرٍ فاتِحِ ٱللَّوْنِ ، وَبَشَرَةٍ بَيْضاءَ ، وَلَمْ يَطْرَأْ أَيُّ تَغْييرٍ عَلى مَلامِحِ وَجْهِهِ طِوالَ ٱلسَّنَواتِ ٱلْخَمْسِ ٱلأَخيرَةِ مِنْ عُمْرِهِ . وَكانَ يَتَمَتَّعُ بِذاكِرَةٍ قَوِيَّةٍ ٱحْتَفَظَتْ بِما تَعَلَّمَهُ مِنْ حَقائِقَ وَما رَآهُ مِنْ وُجوهٍ ، وَكانَ لا يَزالُ يَذْكُرُ ٱلْفَتاةَ رَقْمَ عِشْرينَ .

سَأَلَتْهُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « هَلْ أَغْلَقْتَ كُلَّ ٱلنَّوافِذِ وَٱلأَبْوابِ يا بيتْزِر . »

أَجابَها : « نَعَمْ يا سَيِّدَتي . »

وَلَمّا كانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت لا تَسْتَقْبِلُ كَثيرًا مِنَ ٱلزُّوّارِ فَإِنَّها كانَتْ عادَةً تُسَلّي نَفْسَها بِٱلحَديثِ مَعَ بيتْزِر كُلَّ لَيْلَةٍ . وَسَأَلَتْهُ وَهِيَ تَصُبُّ ٱلشّايَ : « ما ٱلأَخْبارُ ٱلْيَوْمَ يا بيتْزِر ؟ »

أَجابَها : « لا شَيْءَ جَديدَ يا سَيِّدَتي ، فَٱلْعُمّالُ في ٱلْمَصْنَعِ يُثيرونَ ٱلْمَتاعِبَ مَرَّةً أُخْرى ، وَلا أَظُنُّ أَنَّ في هٰذا شَيْئًا جَديدًا ، أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

سَأَلَتْهُ : « وَماذا يَفْعَلونَ ٱلآنَ يا بيتْزِر ؟ »

أَجابَها : « إِنَّهُمْ بِٱلطَّبْعِ يَتَحَدَّثونَ وَيَتَجادَلونَ ؛ فَهُمْ يُحاوِلونَ تَكْوينَ نِقابَةٍ عُمّالِيَّةٍ لَهُمْ . »

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « إِنَّ هٰذا أَمْرٌ سَيِّئٌ ، وَلا بُدَّ أَنْ يَتَصَدّى ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي وَأَصْدِقاؤُهُ لِهٰذا ٱلْعَبَثِ عَلى ٱلْفَوْرِ . لا بُدَّ مِنْ إِخْضاعِ ٱلْعُمّالِ ، وَلَنْ تَكونَ ثَمَّةَ نِقاباتُ عُمّالٍ في كوكْتاون . »

قالَ بيتْزِر : « أَنْتِ عَلى حَقٍّ تَمامًا يا سَيِّدَتي . »

قالَتْ : « آمُلُ أَيْضًا أَنْ يَكونَ مَسْلَكُ مُوَظَّفي ٱلْبَنْكِ مَسْلَكًا طَيِّبًا ، وَأَنْ يَكونوا جادّينَ في أَدائِهِمْ لِعَمَلِهِمْ . أَ لَيْسوا كَذٰلِكَ يا بيتْزِر ؟ »

كانَ بيتْزِر يَعْمَلُ أَيْضًا في ٱلْبَنْكِ أَثْناءَ ٱلنَّهارِ . وَكانَتْ مُهِمَّتُهُ أَنْ يَجْمَعَ ٱلأَخْبارَ لِلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي ، فَكانَ يَسْتَمِعُ لِما يَدورُ بَيْنَ عُمَلاءِ ٱلْبَنْكِ مِنْ أَحاديثَ ، وَكانَ يَسْتَمِعُ أَيْضًا لِأَحاديثِ ٱلْمُوَظَّفينَ ، وَٱسْتَطاعَ مِنْ خِلالِ هٰذا أَنْ يَعْرِفَ ٱلْكَثيرَ مِنَ ٱلأَسْرارِ ٱلَّتي كانَ يَنْقُلُها إِلى ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي . وَكانَ بيتْزِر — عَلى خِلافِ سيسي جوب — قَدْ عَرَفَ كافَّةَ ٱلْحَقائِقِ وَأَلَمَّ بِها مِنْ خِلالِ ما تَعَلَّمَهُ بِٱلْمَدْرَسَةِ . وَلَمْ يَكُنْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِٱلأَحاسيسِ ٱلْمَأْلوفَةِ أَوْ بِٱلتَّخَيُّلاتِ ٱلْوَهْمِيَّةِ ، بَلْ كانَتْ أَفْكارُهُ كُلُّها دَقيقَةً واضِحَةً ، حَتّى إِنَّهُ صارَ مِنْ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ حَظُوا بِإِعْجابِ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي وَٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند وَٱعْتِزازِهِما .

صَمَتَ هُنَيْهَةً قَبْلَ أَنْ يُجيبَ عَنْ سُؤالِ ٱلسَّيِّدَةِ سبارْسِت ثُمَّ قالَ : « بَلى يا سَيِّدَتي إِنَّهُمْ مُمْتازونَ تَمامًا ، بِٱسْتِثْناءِ ٱلسَّيِّدِ ٱلَّذي نَتَكَلَّمُ عَنْهُ عادَةً . »

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « آهٍ ! أَ تَقْصِدُ ... »

رَدَّ بيتْزِر : « إِنَّني أَقْصِدُ غرادْغرايْند ٱلصَّغيرَ . فَثَمَّةَ بَعْضُ شُكوكٍ حَوْلَهُ . »

قالَتْ : « أَلَمْ أُخبِرْكَ مِنْ قَبْلُ يا بيتَرز أَنَّني لا أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَكَ تَذكُرُ أَيَّةَ أَسْماءٍ ؟ »

قالَ : « بَلى يا سَيِّدَتي ... إِنّي آسِفٌ . »

قالَتْ : « تَذَكَّرْ يا بيتَرز ، أَنَّني مَسْئولَةٌ عَنِ ٱلبَنْكِ في ٱللَّيْلِ . لَقَدْ أَقَرَّ ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي بِمَكانَتي وَمَكانَةِ أُسْرَتي العالِيَةِ ؛ لِذا يَجِبُ أَنْ أَكونَ صادِقَةً مَعَهُ مُخْلِصَةً لَهُ ، وَهٰذا لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ إِذا ما سَمَحْتُ لِنَفْسي أَنْ أَسْمَعَكَ تُرَدِّدُ أَمامي أَسْماءً . فَأَنا لا يَسعُني أَنْ أَسْمَعَ ٱسْمًا شاءَ ٱلحَظُّ العاثِرُ أَنْ يَرْتَبِطَ لِلأَسَفِ بِٱسْمِهِ ؛ لِهٰذا أَرْجوكَ يا بيتَرز أَنْ تَسْتَخْدِمَ كَلِمَةَ ٱلشَّخْصِ . »

اِتَّجَهَ بيتَرز ناحِيَةَ ٱلنّافِذَةِ وَنَظَرَ مِنْها قائِلًا : « حَسَنًا يا سَيِّدَتي إِنَّ هٰذا ٱلشَّخْصَ ٱلصَّغيرَ لا يَتَصَرَّفُ كَما يَنْبَغي ، كَما أَنَّهُ لا يَعْمَلُ بِجِدٍّ ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ عَلى ٱلإِطْلاقِ مُنْذُ أَنْ قَدِمَ إِلى هُنا . وَفَضْلًا عَنْ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ مُسْرِفٌ كَسولٌ ، وَيُفْرِطُ في ٱلشَّرابِ . وَلَوْلا تِلْكَ ٱلعَلاقَةُ ٱلَّتي تَرْبِطُهُ بِٱلسَّيِّدِ باونْدِرْبي ما ٱسْتَطاعَ أَنْ يَعْمَلَ هُنا قَطُّ . »

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « آهٍ ! آهٍ ! »

قالَ : « أَتَمَنّى يا سَيِّدَتي أَلّا يُبَذِّرَ هٰذا ٱلشَّخْصُ أَمْوالَ قَريبِهِ . إِنَّ ٱلسَّيِّدَ ٱلَّذي يَعْمَلُ هٰذا ٱلشَّخْصُ في خِدْمَتِهِ لَجَديرٌ بِعَطْفِنا وَشَفَقَتِنا . »

قالَتْ : « أَجَلْ يا بيتَرز ، لَقَدْ كُنْتُ أُشْفِقُ دائِمًا عَلَيْهِ ، وَسَأُشْفِقُ عَلَيْهِ أَبَدًا . »

قالَ : « إِنَّ هٰذا ٱلشَّخْصَ ٱلصَّغيرَ يَكادُ يُبَعْثِرُ نُقودَهُ كَيْفَما يَشاءُ يا سَيِّدَتي . »

قالَتْ : « كانَ يَجِبُ أَنْ يَكونَ مِثْلَكَ يا بيتَرز . »

رَدَّ بيتَرز مَسْرورًا : « أَشْكُرُكِ يا سَيِّدَتي . إِنَّني أَدَّخِرُ بِٱلفِعْلِ مِنْ مُرَتَّبي ، أَمّا هٰذا فَإِنَّهُ لا يَدَّخِرُ شَيْئًا . » وَٱبْتَعَدَ عَنِ ٱلنّافِذَةِ فَجْأَةً وَقالَ : « سَيِّدَتي إِنَّ هُناكَ سَيِّدًا يَقِفُ في ٱلشّارِعِ ، وَكانَ يَنْظُرُ إِلى ٱلنّافِذَةِ طَوالَ دَقيقَةٍ أَوْ دَقيقَتَيْنِ ، وَها هُوَ ذا قادِمٌ نَحْوَ ٱلبابِ . »

وَفي ٱللَّحْظَةِ ٱلتّالِيَةِ سَمِعا طَرْقًا عَلى ٱلبابِ ، فَتَساءَلَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « تُرى مَنْ يَكونُ هٰذا ٱلشَّخْصُ ؟ لَقَدْ تَأَخَّرَ عَنْ مَواعيدِ ٱلعَمَلِ بِٱلبَنْكِ ، وَلٰكِنْ لَعَلَّهُ مِنَ ٱلأَوْفَقِ أَنْ أُقابِلَهُ . فَلْتَرَ يا بيتَرز مَنْ يَكونُ ؟ »

بَعْدَ دَقيقَةٍ عادَ بيتَرز وَمَعَهُ ٱلزّائِرُ ، وَقالَ : « هٰذا ٱلسَّيِّدُ يَوَدُّ مُقابَلَتَكِ يا سَيِّدَتي . »



وَدَخَلَ خَلْفَ بيتِرِز شابٌّ أَنيقٌ فيهِ نَوْعٌ مِنَ ٱللَّامُبالاةِ . وَحَكَمَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت عَلى ٱلفَوْرِ بِأَنَّهُ سَيِّدٌ مُهَذَّبٌ .

قالَ ٱلرَّجُلُ : « عَفْوًا يا سَيِّدَتي . »

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت في نَفْسِها : « رَجُلٌ في ٱلخامِسَةِ وَٱلثَّلاثينَ مِنْ عُمْرِهِ . مُشْرِقُ ٱلوَجْهِ ، جَميلُ ٱلصُّورَةِ ، لَهُ أَسْنانٌ قَوِيَّةٌ ، وَصَوْتٌ جَميلٌ ، وَعَيْنانِ جَسورَتانِ . » وَما لَبِثَتْ أَنْ قالَتْ لَهُ : « تَفَضَّلْ بِٱلجُلوسِ يا سَيِّدي . »

شَكَرَها ٱلرَّجُلُ ، وَلَمْ يَجْلِسْ وَإِنَّما ٱسْتَنَدَ إِلى ٱلمائِدَةِ قائِلًا : « مَعْذِرَةً ! لَقَدْ تَرَكْتُ خادِمي وَحَقائِبي في مَحَطَّةِ ٱلقِطارِ ، وَلٰكِنِ ٱسْمَحي لي أَنْ أَسْأَلَكِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلمَدينَةَ غَريبَةٌ ، فَهَلْ هِيَ مُعْتِمَةٌ دائِمًا كَما أَراها ٱلآنَ ؟ »

أَجابَتْهُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « إِنَّها عادَةً تَكونُ أَشَدَّ عَتَمَةً . »

قالَ ٱلرَّجُلُ : « هٰذا مُسْتَحيلٌ ! وَمَعْذِرَةً : هَلْ تُقيمينَ هُنا دائِمًا يا سَيِّدَتي ؟ »

أَجابَتْ : « لا يا سَيِّدي . وَلٰكِنَّني أُقيمُ هُنا مُنْذُ وَفاةِ زَوْجي ، وَكُنْتُ قَبْلَ ذٰلِكَ أَعيشُ في ظُروفٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمامًا . »

سَأَلَها : « أَ لَمْ تَسْأَمي هٰذا ٱلمَكانَ ؟ »

أَجابَتْهُ : « إِنَّ سُوءَ ٱلطّالِعِ ، وَبَعْضَ وَقائِعِ ٱلحَياةِ أَتَتْ بي لِأَعيشَ هُنا ، وَلٰكِنَّني ٱعْتَدْتُ ذٰلِكَ . »

قالَ بِغَيْرِ ٱكْتِراثٍ : « لَعَلَّ مِنَ ٱلحِكْمَةِ ... »

فَقاطَعَتْهُ قائِلَةً : « وَلٰكِنْ هَلْ لي أَنْ أَسْأَلَكَ يا سَيِّدي لِماذا أَرَدْتَ مُقابَلَتي ؟ »

أَجابَ ٱلرَّجُلُ : « بِٱلطَّبْعِ ، وَأَشْكُرُكِ لِتَذْكيرِي . إِنَّني أَحْمِلُ خِطابًا لِلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي يُقَدِّمُني لَهُ . وَعِنْدَما سَأَلْتُ أَحَدَ ٱلأَشْخاصِ عَنْ مَكانِ إِقامَتِهِ أَتى بي إِلى هُنا . وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ كانَ يَظُنُّ أَنَّ ٱلبَنْكَ لَمْ يُغْلِقْ أَبْوابَهُ بَعْدُ . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي لا يُقيمُ هُنا ، أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَتْهُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « أَجَلْ يا سَيِّدي ، إِنَّهُ لا يُقيمُ هُنا . »

قالَ ٱلرَّجُلُ ، وَقَدِ ٱرْتَكَزَ بِإِحْدى قَدَمَيْهِ عَلى زاوِيَةِ ٱلمِنْضَدَةِ : « شُكْرًا لَكِ . لَنْ أَسْتَطيعَ إِذًا أَنْ أُسَلِّمَهُ هٰذا ٱلخِطابَ ٱللَّيْلَةَ ، وَلٰكِنَّني عَلى ٱلأَقَلِّ قَدْ عَرَفْتُ مَكانَ ٱلبَنْكِ . لا شَكَّ أَنَّكِ تَعْرِفينَ أَيْنَ يُقيمُ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي ، وَسَأَكونُ سَعيدًا لَوْ أَرْشَدْتِني إِلَيْهِ . »

ٱلْتَزَمَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت ٱلصَّمْتَ هُنَيْهَةً ؛ فَقالَ لَها ٱلرَّجُلُ ، بَعْدَ أَنْ رَفَعَ قَدَمَهُ عَنْ زاوِيَةِ ٱلمِنْضَدَةِ : « لا بُدَّ أَنَّكِ تَتَساءَلينَ عَمَّنْ أَكونُ . » ثُمَّ أَخْرَجَ خِطابًا مِنْ جَيْبِهِ وَقالَ : « إِنَّ هٰذا ٱلخِطابَ مُوَجَّهٌ إِلى ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي ، وَمُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ غرادْغرايْند عُضْوِ ٱلبَرْلَمانِ ، وَكُنْتُ قَدْ تَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ في لَنْدَن . »

فَٱتَّجَهَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت نَحْوَ ٱلنّافِذَةِ ، وَأَشارَتْ لِلزّائِرِ إِلى مَنْزِلِ باوِنْدِرْبي ، فَقالَ لَها : « شُكْرًا يا سَيِّدَتي . أَعْتَقِدُ أَنَّكِ تَعْرِفينَ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي مَعْرِفَةً جَيِّدَةً . »

قالَتْ : « نَعَمْ يا سَيِّدي . إِنَّني أَعْرِفُهُ مُنْذُ عَشْرِ سَنَواتٍ . »

قالَ لَها : « يا لَها مِنْ فَتْرَةٍ طَويلَةٍ . أَ لَمْ يَتَزَوَّجِ ٱبْنَةَ غرادْغرايْند ؟ »

أَجابَتْهُ : « بلى . لَقَدْ نالَ هٰذا ٱلشَّرَفَ يا سَيِّدي . »

قالَ ٱلرَّجُلُ : « لَقَدْ حَدَّثَني ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند عَنِ ٱبْنَتِهِ ، وَأَخْبَرَني أَنَّها تَتَمَتَّعُ بِعَقْلٍ راجِحٍ ، وذَكِيَّةٌ جِدًّا ، وَفَطِنَةٌ . آهٍ ، أَراكِ تَبْتَسِمينَ يا سَيِّدَتي ! أَلا تُوافِقينَ عَلى ذٰلِكَ ؟ كَمْ عُمْرُها ؟ خَمْسٌ وَثَلاثونَ أَمْ أَرْبَعونَ سَنَةً ؟ »

ضَحِكَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت وَقالَتْ : « إِنَّها لَيْسَتْ سِوى طِفْلَةٍ ! وَلَمْ تَكُنْ قَدْ بَلَغَتِ ٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِها عِنْدَما تَزَوَّجَتْ . »

قالَ ٱلرَّجُلُ : « كَمْ يُدْهِشُني أَنْ أَسْمَعَ هٰذا . لَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَلْتَقِيَ في مَنْزِلِ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي بِسَيِّدَةٍ حَكيمَةٍ كَبيرَةٍ في ٱلسِّنِّ ، فَشُكْرًا لَكِ لِتَصْحيحِ مَعْلوماتي ، وَشُكْرًا لِمُساعَدَتِكِ . وَٱلآنَ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ . طابَتْ لَيْلَتُكِ يا سَيِّدَتي . »

عِنْدَما غادَرَ ٱلرَّجُلُ ٱلبَيْتَ ٱتَّجَهَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت نَحْوَ ٱلنّافِذَةِ لِتُراقِبَهُ وَهُوَ يَسيرُ في خُطُواتٍ مُتَثاقِلَةٍ .

وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ أَقْبَلَ بيتْزر لِيَأْخُذَ أَكْوابَ ٱلشّاي ٱلفارِغَةَ ، وَقالَ لِلسَّيِّدَةِ سبارْسِت : « إِنَّ هٰذا ٱلرَّجُلَ يُنْفِقُ ٱلكَثيرَ عَلى مَلابِسِهِ يا سَيِّدَتي . »

قالَتْ : « إِنَّ مَلابِسَهُ غايَةٌ في ٱلأَناقَةِ يا بيتْزر . »

قالَ بيتْزر : « وَلٰكِنَّها لا تَسْتَحِقُّ ما يُنْفَقُ عَلَيْها مِنْ نُقودٍ . يَبْدو أَنَّ هٰذا ٱلسَّيِّدَ لا يَكِدُّ في سَبيلِ كَسْبِ ٱلنُّقودِ . »

ظَلَّتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت جالِسَةً بِجِوارِ ٱلنّافِذَةِ ساعَتَيْنِ أَوْ ثَلاثَ ساعاتٍ دونَ أَنْ تُضيءَ مِصْباحَ غُرْفَتِها حَتّى بَعْدَ أَنْ أَظْلَمَتِ ٱلغُرْفَةُ . وَكانَتِ ٱلسَّماءُ قَدِ ٱصْطَبَغَتْ

بِٱللَّوْنِ ٱلأَحْمَرِ بِسَبَبِ أَلْسِنَةِ ٱللَّهَبِ ٱلَّتي كانَتْ تَتَصاعَدُ مِنْ مَصانِعِ كُوكْتاون . وَأَخيرًا قامَتْ لِتَنامَ ، وَقالَتْ : « يا لَكَ مِنْ أَحْمَقَ ! »

مَنْ كانَ ذٰلِكَ ٱلأَحْمَقُ ؟ ذٰلِكَ ما لَمْ تُفْصِحْ عَنْهُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت .

الفَصْلُ ٱلحادِي عَشَرَ

كانَ زائِرُ ٱلسَّيِّدَةِ سبارْسِت يُدعى جيمس هارتْهاوْس ، وَيُطلِقُ عَلَيْهِ أَصْدِقاؤُهُ ٱسْمَ جيم . وَكانَ ٱلأَخَ ٱلأَصْغَرَ لِأَحَدِ أَعْضاءِ ٱلبَرْلَمانِ مِمَّنْ يَحْظَوْنَ بِإِعْجابِ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند .

وَقَدْ عَمِلَ جيم هارتْهاوْس ضابِطًا في ٱلجَيْشِ لِفَتْرَةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، وَلٰكِنَّهُ ٱعْتَزَلَ ٱلخِدْمَةَ بِسَبَبِ ٱلأَعْباءِ ٱلثَّقيلَةِ ٱلَّتي أَتْعَبَتْهُ . وَعَمِلَ في خِدْمَةِ ٱلحُكومَةِ ٱلبريطانِيَّةِ خارِجَ ٱلبِلادِ ، وَلٰكِنَّهُ وَجَدَ ٱلعَمَلَ في ٱلبُلْدانِ ٱلأَجْنَبِيَّةِ شاقًّا وَمُرْهِقًا ، فَعادَ إِلى إِنْجِلْترا . وَرَحَلَ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى ٱلشَّرْقِ ، وَلٰكِنَّ حَرارَةَ ٱلبِلادِ جَعَلَتْهُ يَعودُ إِلى وَطَنِهِ حَيْثُ مارَسَ ٱلعَديدَ مِنَ ٱلأَعْمالِ لٰكِنَّهُ لَمْ يَرْضَ عَنْ أَيٍّ مِنْها .

ذاتَ يَوْمٍ قالَ لَهُ أَخوهُ عُضْوُ ٱلبَرْلَمانِ : « إِنَّ جَماعَةَ ٱلحَقائِقِ ٱلمُجَرَّدَةِ تَبْحَثُ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ مُناسِبٍ لِيَعْمَلَ مَعَهُمْ ، فَلِماذا لا تَعْمَلُ في مَيْدانِ ٱلحَقائِقِ يا جيم . »

أَجابَهُ جيم مُوافِقًا : « إِنَّها فِكْرَةٌ طَيِّبَةٌ ، وَخُصوصًا أَنَّهُ لَيْسَ أَمامي في ٱلوَقْتِ ٱلحالِيِّ ما هُوَ أَفْضَلُ مِنْها . »

وَأَعارَهُ أَخوهُ كِتابًا أَوْ كِتابَيْنِ بِهَدَفِ تَأْهيلِهِ لِلعَمَلِ في مَيْدانِ ٱلحَقائِقِ ، وَبَعْدَ أُسْبوعٍ شَعَرَ بِأَنَّهُ قَدِ ٱكْتَسَبَ قَدْرًا كافِيًا مِنَ ٱلمَهارَةِ وَٱلقُدْرَةِ عَلى فَهْمِ ٱلحَقائِقِ مِمّا يُؤَهِّلُهُ لِهٰذا ٱلعَمَلِ ٱلَّذي عَزَمَ عَلى ٱلقِيامِ بِهِ . وَعِنْدَما قابَلَ أَخوهُ ٱلسَّيِّدَ غرادْغرايْند في ٱلبَرْلَمانِ قالَ لَهُ : « إِذا كُنْتَ في حاجَةٍ إِلى رَجُلٍ مُلِمٍّ بِٱلحَقائِقِ

يا توم ، فَعَلَيْكَ بِمُقابَلَةِ أَخي جيم ، فَفي مَقْدورِهِ أَنْ يُعِدَّ خُطَبًا رائِعَةً ، وَلَدَيْهِ طَريقَةٌ مُمْتازَةٌ في ٱلتَّعامُلِ . »

وَوَصَلَ هارتْهاوْس بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى مَدينَةِ كوكْتاون حَيْثُ نَزَلَ بِأَحَدِ فَنادِقِها وَٱلتَقى بِٱلسَّيِّدَةِ سبارْسِت . وَفي صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي لِوُصولِهِ أَرْسَلَ خادِمَهُ إِلى مَنْزِلِ باوِنْدِرْبي حامِلًا رِسالَةَ غرادْغرايْند ٱلَّتي جاءَ فيها :

« إِلى جوشْيا باوِنْدِرْبي بِمَدينَةِ كوكْتاون : رِسالَةٌ مِنْ توماس غرادْغرايْند بِخُصوصِ تَقْديمِ جيمس هارتْهاوْس . »

وَبَعْدَ أَنْ تَسَلَّمَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي ٱلرِّسالَةَ بِساعَةٍ واحِدَةٍ ، جاءَ بِنَفْسِهِ إِلى ٱلفُنْدُقِ . وَكانَ جيم في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ يُطِلُّ مِنْ نافِذَةِ ٱلغُرْفَةِ ٱلَّتي كانَ يَتَناوَلُ فيها إِفْطارَهُ ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ أَماراتُ ٱلحُزْنِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ ٱلعَمَلَ في مَيْدانِ ٱلحَقائِقِ سَيَسْتَهْويهِ أَوْ يُثيرُ ٱهْتِمامَهُ خُصوصًا في مَدينَةٍ مِثْلِ كوكْتاون ، حَتّى إِنَّهُ كادَ يَتَراجَعُ عَنِ ٱلِٱلْتِحاقِ بِهٰذا ٱلعَمَلِ ، وَأَنْ يَبْحَثَ لِنَفْسِهِ عَنْ عَمَلٍ آخَرَ . وَلٰكِنْ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ وَصَلَ أَحَدُ عُمّالِ ٱلفُنْدُقِ وَبِصُحْبَتِهِ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي ٱلَّذي قَدَّمَ نَفْسَهُ قائِلًا : « إِسْمي جوشْيا باوِنْدِرْبي مِنْ مَدينَةِ كوكْتاون يا سَيِّدي . »

أَجابَهُ جيم : « يُسْعِدُني لِقاؤُكَ . » وَلٰكِنَّ مَظْهَرَهُ لَمْ يَدُلَّ مُطْلَقًا عَلى أَنَّهُ كانَ سَعيدًا بِهٰذا ٱللِّقاءِ .

إِسْتَطْرَدَ باوِنْدِرْبي قائِلًا : « حَسَنًا يا سَيِّدي ! أَعْتَقِدُ أَنَّكَ وَجَدْتَ كوكْتاون مَكانًا غَريبًا ؛ وَلِهٰذا فَإِنَّني سَأَحْكي لَكَ عَنْها ، سَواءٌ ٱسْتَمَعْتَ لِما أَقولُ أَمْ لَمْ تَسْتَمِعْ . »

قالَ جيم : « أَرْجو أَنْ تُحَدِّثَني عَنها . »

قالَ باوندِرْبي : « إِنَّ مَدينَتَنا لا تُعْجِبُ مَنْ يَأْتي إِلَيْها مِنْ أَهالي لَنْدَن . فَهُمْ يَجدونَها مَدينَةً مُظْلِمَةً يَمْلَأُها ٱلدُّخانُ . وَلٰكِنَّ هٰذا ٱلدُّخانَ يا سَيِّدُ هارتْهاوْس هُوَ طَعامُنا وَشَرابُنا ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ لا يَضُرُّ بِٱلصِّحَّةِ أَبَدًا ، بَلْ عَلى ٱلعَكْسِ مِنْ ذٰلِكَ فَإِنَّ لَهُ فائِدَةً لِأَجْسامِنا ؛ لِذا فَإِنَّنا لا نُريدُ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْهُ ، بَلْ إِنَّنا نَوَدُّ أَنْ نَحْتَفِظَ بِهِ . »

وَلَمّا كانَ هارتْهاوْس قَدْ عَقَدَ ٱلعَزْمَ عَلى أَنْ يَمْضِيَ قُدُمًا في هٰذا ٱلأَمْرِ ، فَإِنَّهُ قالَ : « نَعَمْ ، إِنَّ ما تَقولُهُ صَحيحٌ ، وَأَنا أُوافِقُكَ عَلى ذٰلِكَ تَمامًا يا سَيِّدُ باوندِرْبي . »

قالَ باوندِرْبي : « يُسْعِدُني أَنَّكَ تُوافِقُني عَلى هٰذا ٱلرَّأْيِ . وَٱلآنَ إِلَيْكَ بَعْضَ ٱلحَقائِقِ ٱلأُخْرى . إِنَّ مَجالَنا هُوَ صِناعَةُ ٱلنَّسيجِ ، وَهِيَ أَفْضَلُ وَأَسْهَلُ عَمَلٍ في ٱلعالَمِ . كَما أَنَّ ٱلعُمّالَ ٱلَّذينَ يَعْمَلونَ مَعَنا في هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ يَتَقاضَوْنَ أُجورًا أَعْلى مِمّا يَتَقاضاهُ غَيْرُهُمْ مِنَ ٱلعُمّالِ ، وَلا يَبْقى ما يُمْكِنُ أَنْ نُضيفَهُ إِلى مَصانِعِنا بِهَدَفِ تَحْسينِها سِوى أَنْ نَفْرِشَها بِٱلسَّجاجيدِ ٱلهِنْدِيَّةِ ، وَلٰكِنَّ هٰذا ما لَنْ نَفْعَلَهُ . »

قالَ هارتْهاوْس : « أَنْتَ مُحِقٌّ في كَلامِكَ تَمامًا يا سَيِّدُ باوندِرْبي . »

قالَ باوندِرْبي : « وَلٰكِنَّ ٱلنّاسَ هُنا لا يَرْضَوْنَ بِشَيْءٍ ؛ فَهُمْ يَطْمَعونَ في أَنْ يَتَناوَلوا أَفْضَلَ ٱللُّحومِ ٱلحَمْراءِ يَوْمِيًّا ، بَلْ وَيُريدونَ أَنْ يَأْكُلوا ٱللَّحْمَ بِمَلاعِقَ مِنْ ذَهَبٍ ؛ وَلِهٰذا تَراهُمُ ٱليَوْمَ يَتَحَدَّثونَ عَنْ أُمورٍ غَريبَةٍ كَٱلنِّقاباتِ ٱلعُمّالِيَّةِ . فَهَلْ سَمِعْتَ مِثْلَ هٰذا ٱللَّغْوِ مِنْ قَبْلُ . »

أَجابَهُ هارتْهاوْس : « أَعْتَقِدُ أَنَّ ما تَقولُهُ هُوَ عَيْنُ ٱلصَّوابِ يا سَيِّدُ باوندِرْبي . »

قالَ ٱلسَّيِّدُ باوندِرْبي : « إِنَّني عِنْدَما أَتَعامَلُ مَعَ أَيِّ شَخْصٍ أَوَدُّ دائِمًا أَنْ أُفْهِمَهُ جَيِّدًا ، كَما أَوَدُّ أَنْ يَفْهَمَني بِدَوْرِهِ جَيِّدًا . وَلِهٰذا فَقَدْ قُلْتُ لَكَ كُلَّ هٰذِهِ ٱلحَقائِقِ ، كَما أَنَّني مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى سَأُساعِدُكَ قَدْرَ ٱسْتِطاعَتي ، وَثَمَّةَ شَيْءٌ آخَرُ أَوَدُّ أَنْ أُضيفَهُ لِما قُلْتُ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ أَيْضًا : فَأَنْتَ يا سَيِّدي تَنْتَمي إِلى عائِلَةٍ لَها شَأْنُها ، أَمّا أَنا فَلَسْتُ سِوى بَعْضٍ مِنْ قَذارَةِ ٱلطَّريقِ ، تِلْكَ ٱلقَذارَةِ ٱلَّتي أَعْرِفُها جَيِّدًا ؛ إِذْ إِنَّني قَدْ أَزَلْتُها عَنْ نَفْسي بِجُهودِيَ ٱلذّاتِيَّةِ . وَلِهٰذا فَإِنَّ ما أَشْعُرُ بِهِ مِنْ فَخْرٍ لا يَقِلُّ عَمّا تَشْعُرُ بِهِ مِنْ فَخْرٍ . وَلَعَلَّكَ تَعْرِفُ أَيْضًا أَنَّني تَزَوَّجْتُ ٱبْنَةَ توم غرادْغرايْند . وَإِذا لَمْ يَكُنْ هُناكَ ما يَشْغَلُكَ هٰذا ٱلصَّباحَ ، فَأَرْجو أَنْ تُرافِقَني إِلى بَيْتي ؛ إِذْ يُسْعِدُني أَنْ أُقَدِّمَكَ إِلى ٱبْنَةِ غرادْغرايْند . »

أَجابَهُ جيم : « إِنَّ ٱقْتِراحَكَ هٰذا يُعَبِّرُ عَنْ أَعَزِّ أُمْنِياتي . »

بَعْدَ حَوالَي نِصْفِ ساعَةٍ ٱلْتَقى جيم هارتْهاوْس بِٱلسَّيِّدَةِ باوندِرْبي . وَكانَ فِي ٱللِّقاءِ ما حَرَّكَ مَشاعِرَهُ ، فَقَدْ وَجَدَ ٱلسَّيِّدَةَ باوندِرْبي هادِئَةَ ٱلطِّباعِ بِدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ ، وَبَدَتْ وَكَأَنَّها لا تَكْتَرِثُ كَثيرًا بِما يَدورُ حَوْلَها ، وَلٰكِنَّها أَخَذَتْ تُراقِبُ ضَيْفَها بِإِمْعانٍ . وَوَجَدَها مُعْتَزَّةً بِنَفْسِها ، وَتَشْعُرُ بِٱلخَجَلِ مِنْ تَصَرُّفاتِ زَوْجِها وَمَسْلَكِهِ ٱلفَظِّ .

لَمْ يَسْبِقْ لِجيم أَنِ ٱلْتَقى في حَياتِهِ بِسَيِّدَةٍ مِثْلِ لويزا . كانَتْ جَميلَةً ، رَغْمَ أَنَّها كانَتْ تُحاوِلُ ٱلسَّيْطَرَةَ عَلى نَظَراتِها . وَٱسْتَشَفَّ أَيْضًا أَنَّها تَعْتَمِدُ تَمامًا عَلى نَفْسِها ، كَما ٱسْتَنْتَجَ أَيْضًا أَنَّها سَيِّدَةٌ لا تَنالُ مِنْها ٱلشُّكوكُ أَوِ ٱلأَوْهامُ ، ما لَمْ يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ يَدْعو إِلى ٱلشَّكِّ . ها هِيَ ذي تَقِفُ أَمامَهُ وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ هُناكَ ما يَشْغَلُ

ذهنها وأنّ أفكارها قد شردت وذهبت بها بعيدًا . وأدرك أنّه حتى تلك اللّحظة لم يفهمها فهمًا كاملًا .

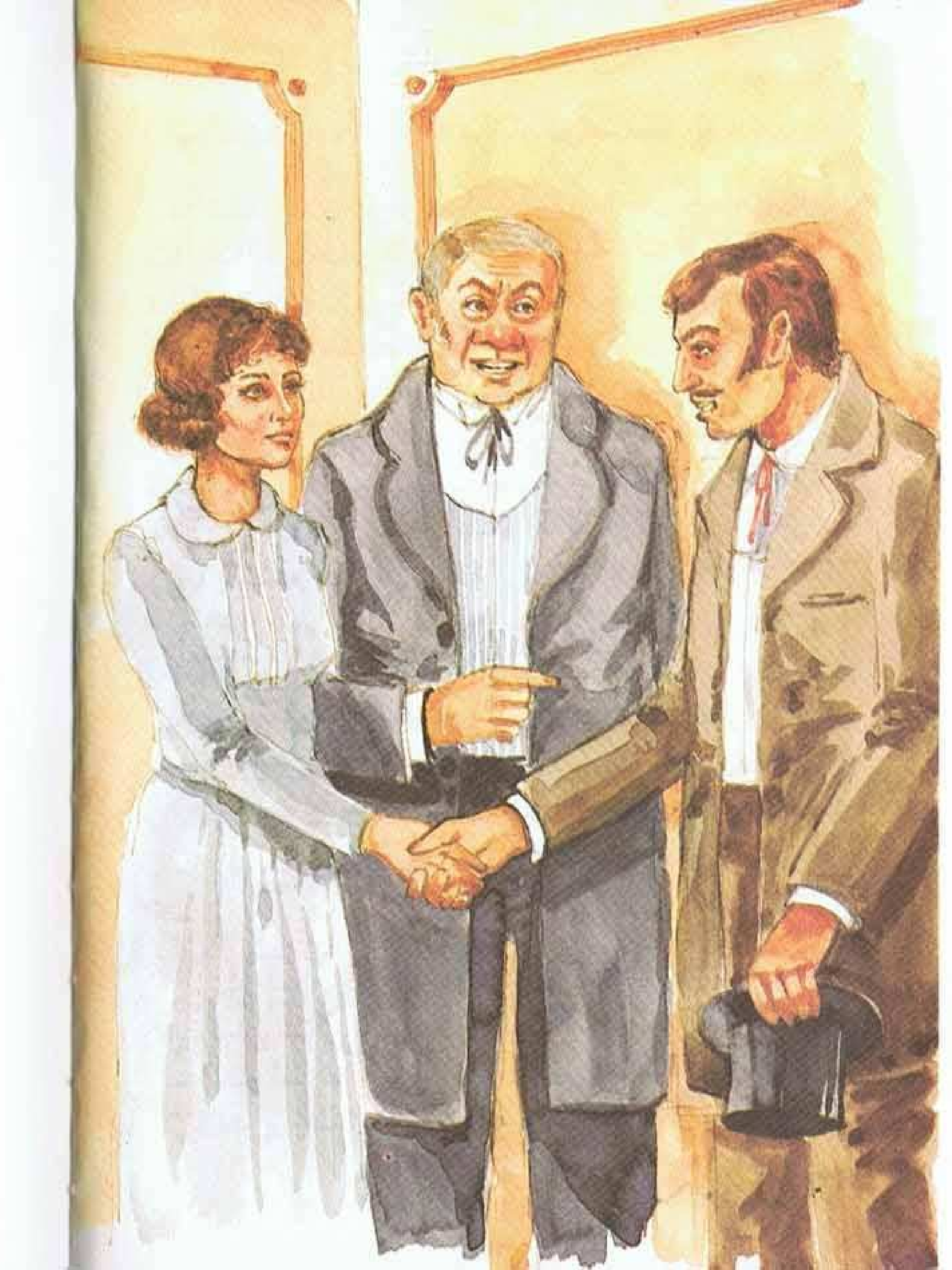
وعندما أجال بصره في الغرفة لم يجد بها ما يعكس لمسات المرأة أو ذوقها ، ولم يجد في الغرفة ما يبهج النّفس أو يشعرها بالرّاحة ، أو يدلّ على ذكريات سعيدة ، فقد كانت غرفة مترفة قبيحة وثقيلة على النّفس . وبعد أن قدّم باوندربي ضيفه إلى زوجته قال : « يبدو يا لو أنّه سوف يكون لكوكتاون عضوان بالبرلمان هما : والدك والسّيّد هارتهاوس الّذي جاء ليدرس المنطقة . » والتفت إلى ضيفه قائلًا :

« إنّ زوجتي ــ كما ترى يا سيّدي ــ أصغر منّي سنًّا ، ولا أعرف لماذا قبلت أن تتزوّجني ، ولكن لا بدّ أنّها وجدت سببًا لذلك . فهي إلى جانب صغر سنّها تلمّ إلمامًا كافيًا بكلّ ما في العالم من حقائق ، فإن كنت ترغب في التّعلّم سريعًا فليس هناك معلّم أرشّحه لك أفضل من لو باوندربي . »

أجاب جيم : « إنّني واثق بذلك . »

قال باوندربي : « إنّني لا أمتدح النّاس عادة ، فأنا لم أتعلّم هذه العادة . كما أنّني لست من علية القوم المهذّبين يا سيّد هارتهاوس ، فما أنا إلّا جوشيا باوندربي من كوكتاون ، وفي هذا ما يكفي . وأنا لا أهتمّ كثيرًا بما للآخرين من مكانة ، أو مظهر ، كما يفعل غيري من النّاس . »

قال جيم وهو ينظر إلى لويزا مبتسمًا : « إنّ السّيّد باوندربي مخلوق نبيل الأصل يعيش طليقًا في بيئته الطّبيعيّة ، أمّا أنا فلست سوى كائن ضعيف تمّ ترويضه . »



قالَتْ لويزا بِهُدوءٍ : « أَراكَ تُبْدي قَدْرًا كَبيرًا مِنَ ٱلِاحْتِرامِ لِلسَّيِّدِ باونْدِرْبي ، وَلَيْسَ في هٰذا ما يُدْهِشُني . »

دَهِشَ جيم قَليلًا لِهٰذا ٱلتَّعْليقِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ ما تَقْصِدُهُ لويزا جَيِّدًا . وَلٰكِنَّها ٱسْتَطْرَدَتْ قائِلَةً : « إِنَّكَ تَزْمِعُ خِدْمَةَ بَلَدِكَ ، وَتَأْمُلُ أَنْ تُوَفَّقَ في إِيجادِ ٱلْحُلولِ ٱلْمُناسِبَةِ لِمُشْكِلاتِ هٰذا ٱلْبَلَدِ . »

ضَحِكَ جيم قائِلًا : « إِنَّني لَمْ أَتَظاهَرْ يا سَيِّدَةُ باونْدِرْبي بِأَنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَجِدَ ٱلْحُلولَ لِتِلْكَ ٱلْمُشْكِلاتِ ؛ فَقَدْ شاهَدْتُ ٱلْكَثيرَ خِلالَ أَسْفاري وَتَبَيَّنَ لي أَنَّهُ ما مِنْ شَيْءٍ في هٰذِهِ ٱلْحَياةِ لَهُ قيمَةٌ تُذْكَرُ ، أَمّا عَنْ دُخولِيَ ٱلْبَرْلَمانَ فَإِنَّني لَنْ أَدْخُلَهُ إِلّا ٱسْتِجابَةً لِآراءِ والِدِكِ ، وَهِيَ آراءٌ سَديدَةٌ مِثْلُ آراءِ ٱلْآخَرينَ . »

سَأَلَتْهُ لويزا : « أَ لَيْسَ لَكَ رَأْيٌ خاصٌّ في هٰذا ٱلصَّدَدِ يا سَيِّدُ هارْتْهاوْس ؟ »

أَجابَها : « نَعَمْ ، لَيْسَ لي رَأْيٌ في ذٰلِكَ عَلى ٱلْإِطْلاقِ ، فَضْلًا عَنْ أَنَّنا إِذا ما نَظَرْنا إِلى أَيَّةِ مَجْموعَةٍ مِنَ ٱلْآراءِ لَوَجَدْناها لا تَخْتَلِفُ كَثيرًا عَنْ غَيْرِها مِنَ ٱلْآراءِ ؛ فَعادَةً ما يَكونُ لَها جَميعًا ٱلنَّفْعُ نَفْسُهُ أَوِ ٱلضَّرَرُ نَفْسُهُ . وَهٰذا ما يُذَكِّرُني بِقَوْلٍ مَأْثورٍ يُرَدِّدُهُ ٱلْإيطالِيّونَ وَهُوَ : « إِنَّ ٱلْمُقَدَّرَ سَيَكونُ . » وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْحَقيقَةُ ٱلْوَحيدَةُ ، فَهَلْ تُوافِقينَني عَلى هٰذا ٱلرَّأْيِ ؟ »

وَيَبْدو أَنَّ هٰذا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلنَّزاهَةِ ٱلزّائِفَةِ وَٱلْخَطِرَةِ قَدْ أَعْجَبَ ٱلسَّيِّدَةَ باونْدِرْبي ؛ لِذا واصَلَ جيم حَديثَهُ بِسُرْعَةٍ قائِلًا : « إِنَّ ٱلْحَقائِقَ وَٱلْأَرْقامَ مَمْلوءَةٌ بِٱلْمُتْعَةِ ، وَهِيَ تُتيحُ لِلْإِنْسانِ أَحْسَنَ ٱلْفُرَصِ . وَأَنا أَسْتَمْتِعُ بِها كَثيرًا ، وَلا أومِنُ بِها ؛ وَلِهٰذا سَأَدْخُلُ ٱلْبَرْلَمانَ مِنْ أَجْلِها ، وَما أَظُنُّني كُنْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا خِلافَ ذٰلِكَ حَتّى لَوْ أَنَّني

أُصَدِّقُها أَوْ أومِنُ بِها . »

قالَتْ لويزا : « سَوْفَ تَكونُ عُضْوًا غَيْرَ عادِيٍّ مِنْ أَعْضاءِ ٱلْبَرْلَمانِ . »

قالَ : « هٰذا لَيْسَ صَحيحًا عَلى ٱلْإِطْلاقِ ؛ فَنَحْنُ جَميعًا لَنا ٱلْأَفْكارُ نَفْسُها يا سَيِّدَةُ باونْدِرْبي . وَلٰكِنَّ ٱلْكَثيرينَ تَنْقُصُهُمُ ٱلْقُدْرَةُ عَلى أَنْ يَذْكُروا ذٰلِكَ صَراحَةً . »

بَدا ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي ، أَثْناءَ هٰذِهِ ٱلْمُناقَشَةِ ، وَكَأَنَّهُ سَيَنْفَجِرُ ؛ فَقَدِ ٱحْمَرَّ وَجْهُهُ ، وَصارَ أَشْبَهَ بِكُرَةٍ حَمْراءَ كَبيرَةٍ ، وَفَجْأَةً قاطَعَهُما قائِلًا : « عَلَيْكَ أَنْ تَقومَ يا سَيِّدُ هارْتْهاوْس بِزِيارَةِ بَعْضِ ٱلشَّخْصِيّاتِ ٱلْمُهِمَّةِ في ٱلْمَدينَةِ ، وَأَنا عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِأَصْحَبَكَ ٱلْآنَ . وَعَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ تَتَناوَلَ مَعَنا ٱلْعَشاءَ ٱللَّيْلَةَ . »

قامَ ٱلسَّيِّدُ هارْتْهاوْس بِهٰذِهِ ٱلزِّياراتِ ، وَأَجادَ في حَديثِهِ مَعَ تِلْكَ ٱلشَّخْصِيّاتِ ٱلَّتي زارَها ، إِلّا أَنَّ ٱلْعَمَلَ أَرْهَقَهُ . وَعِنْدَما ذَهَبَ لِتَناوُلِ ٱلْعَشاءِ وَجَدَ ٱلْمائِدَةَ قَدْ أُعِدَّتْ لِأَرْبَعَةِ أَشْخاصٍ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْها سِوى ثَلاثَةٍ فَقَطْ . وَأَثْناءَ ٱلْعَشاءِ تَحَدَّثَ باونْدِرْبي حَديثَهُ ٱلَّذي يَفْخَرُ فيهِ بِأَنَّهُ وُلِدَ في ٱلشّارِعِ ، وَأَفْرَطَ في ذِكْرِ ٱلْعَديدِ مِنَ ٱلتَّفْصيلاتِ عَنْ طُفولَتِهِ مِمّا أَتْعَبَ جيم هارْتْهاوْس حَتّى إِنَّهُ فَكَّرَ في ٱلذَّهابِ مَرَّةً ثانِيَةً إِلى ٱلْهِنْدِ أَوْ إِلى مِصْرَ . رُبَّما ٱسْتَطاعَ أَنْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ ما لَمْ تَكُنْ لويزا تَشْغَلُ تَفْكيرَهُ . وَتَساءَلَ جيم في نَفْسِهِ : « هَلْ هُناكَ شَيْءٌ في ٱلْعالَمِ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يُؤَثِّرَ فيها ؟ »

نَعَمْ لَقَدْ كانَ هُناكَ شَيْءٌ ما ؛ فَقَدْ فُتِحَ ٱلْبابُ ، وَدَخَلَ تُوم . وَما لَبِثَ أَنْ تَغَيَّرَ وَجْهُ ٱلْفَتاةِ بِمُجَرَّدِ أَنْ رَأَتْهُ ، وَٱرْتَسَمَتْ عَلى شَفَتَيْها ٱبْتِسامَةٌ جَميلَةٌ ، وَمَدَّتْ يَدَها

لِتَلْتَقِيَ أَصابِعُها بِأَصابِعِ تُوم في قُوَّةٍ . وَقالَ جيم في نَفْسِهِ : « آهِ ، هٰذا ٱلْجَرْوُ إِذًا هُوَ ٱلشَّخْصُ ٱلْوَحيدُ ٱلَّذي تُحِبُّهُ ؟ » وَتَمَّ ٱلتَّعارُفُ بِٱلْجَرْوِ ٱلَّذي جَلَسَ إِلى ٱلْمائِدَةِ مَعَهُمْ .

قَدْ لا يَكونُ ٱلْجَرْوُ ٱسْمًا ظَريفًا وَلٰكِنَّ تُوم كانَ يَسْتَحِقُّهُ . وَقالَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي مُخاطِبًا تُوم : « لَقَدْ تَأَخَّرْتَ يا تُوم ٱلصَّغيرُ ، فَلِماذا ؟ »

أَجابَ تُوم : « لَقَدْ كانَتْ أَمامي أَعْمالٌ كَثيرَةٌ لِأُنْجِزَها . إِنَّ تَأْخيري لا يُهِمُّ ، أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي : « عَلى ٱلشَّبابِ أَلّا يَتَأَخَّروا عَنْ مَوْعِدِ ٱلطَّعامِ . »

فَهِمَ جيم مُشْكِلَةَ ذٰلِكَ ٱلْبَيْتِ ، وَقالَ : « إِنَّ وَجْهَ أَخيكِ يا سَيِّدَةُ باوِنْدِرْبي مَأْلوفٌ لي . رُبَّما أَكونُ قَدْ قابَلْتُهُ في ٱلْمَدْرَسَةِ أَوْ في ٱلشَّرْقِ ، رُبَّما ؟ »

أَجابَتْ لويزا : « لا أَعْتَقِدُ ؛ فَلَقَدْ دَرَسَ هُنا ، وَلَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ ٱلسَّفَرُ خارِجَ إِنْجِلْترا بَعْدُ . » ثُمَّ سَأَلَتْ تُوم : « هَلْ سافَرْتَ يا تُوم ؟ »

أَجابَ ٱلْأَخيرُ : « لا ، لَمْ يُسْعِدْني ٱلْحَظُّ بِٱلسَّفَرِ يا سَيِّدي . »

لَقَدْ شَغَلَتِ ٱلسَّيِّدَةُ باوِنْدِرْبي وَشَقيقُها تَفْكيرَ جيم طَوالَ ٱلْعَشاءِ ، وَلَمْ يَجِدْ في تُوم ٱلصَّغيرِ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ ٱلتَّقْديرَ ، فَقَدْ وَجَدَهُ فَظًّا في مَسْلَكِهِ ، بَلْ كانَ في بَعْضِ ٱلْأَحْيانِ قاسِيًا حَتّى مَعَ شَقيقَتِهِ ، فَقالَ في نَفْسِهِ : « لا بُدَّ أَنَّ قَلْبَها يَشْعُرُ بِٱلْوَحْدَةِ . فَإِذا كانَ هٰذا ٱلْجَرْوُ يَسْتَحْوِذُ عَلى كُلِّ حُبِّها . فَلا بُدَّ إِذًا أَنَّها تَشْعُرُ بِٱلْوَحْدَةِ إِلى أَقْصى حَدٍّ . »

الفَصْلُ ٱلثّانِي عَشَرَ

كانَ جيمس هارتْهاوْس يَتَظاهَرُ أَثْناءَ تَناوُلِ ٱلْعَشاءِ بِأَنَّهُ مُعْجَبٌ بِتُوم ٱلصَّغيرِ ، وَأَخَذَ يُشَجِّعُهُ عَلى ٱلْكَلامِ . وَعِنْدَما حانَ وَقْتُ ٱلِٱنْصِرافِ ٱدَّعى هارتْهاوْس أَنَّهُ لا يَعْرِفُ طَريقَ ٱلْعَوْدَةِ إِلى ٱلْفُنْدُقِ ٱلَّذي يَنْزِلُ بِهِ ، فَعَرَضَ ٱلْجَرْوُ أَنْ يُرافِقَهُ إِلى هُناكَ .

عِنْدَما وَصَلا إِلى ٱلْفُنْدُقِ ، جَلَسَ تُوم فَوْقَ أَحَدِ ٱلْمَقاعِدِ ٱلطَّويلَةِ ٱلْوَثيرَةِ ، وَأَمَرَ لَهُ جيم بِشَرابٍ ، ثُمَّ تَوالَتِ ٱلْأَشْرِبَةُ ٱلَّتي كانَتْ كُلُّها مُنْعِشَةً قَوِيَّةً .



سَأَلَهُ تُوم : « هَلْ أَمْضَيْتَ وَقْتًا كافِيًا اللَّيْلَةَ مَعَ باوِنْدِرْبِي ٱلعَجوزِ ؟ »

أَجابَهُ جيم : « إِنَّهُ شَخْصٌ مُمْتازٌ . »

سَأَلَهُ تُوم : « هَلْ تَعْتَقِدُ ذٰلِكَ حَقًّا ؟ »

أَجابَهُ جيم وَقَدْ عَلَتْ شَفَتَيْهِ ٱبْتِسامَةٌ تَدُلُّ عَلى عَدَمِ ٱلِاكْتِراثِ : « نَعَمْ ، وَأُخو زَوْجَتِهِ مُضْحِكٌ لِلْغايَةِ ! »

عَلَّقَ تُوم قائِلًا : « لَعَلَّكَ تَعْني أَنَّ باوِنْدِرْبِي ٱلعَجوزَ صِهْرٌ مُضْحِكٌ لِلْغايَةِ . »

قالَ جيم : « لا أَظُنُّ أَنَّ هٰذا تَعْليقٌ مُناسِبٌ يا تُوم . »

كانَ تُوم يَشْعُرُ بِٱلرِّضا عَنْ نَفْسِهِ ، وَأُعْجِبَ بِهارتْهاوْس ، كَما أُعْجِبَ بِمَلابِسِهِ وَبِصَوْتِهِ ، وَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُنادِيَهُ بِٱسْمِ تُوم دونَ كُلْفَةٍ . وَبِصِفَةٍ عامَّةٍ شَعَرَ بِأَنَّها أُمْسِيَّةٌ رائِعَةٌ . »

ٱسْتَطْرَدَ تُوم قائِلًا : « إِنَّني لَمْ أَشْعُرْ يَوْمًا بِأَنَّني أُحِبُّ باوِنْدِرْبِي ٱلعَجوزَ ، وَلا أَعْتَقِدُ أَنَّني سَأَبْدَأُ ٱليَوْمَ في أَنْ أُغَيِّرَ رَأْيِي فيهِ وَأُحِبَّهُ . »

فَقالَ لَهُ جيم : « لا أَظُنُّكَ تُبْدي مِثْلَ هٰذا ٱلرَّأْيِ عَلى مَسْمَعٍ مِنْ زَوْجَتِهِ ، أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ تُوم : « أَ تَعْني شَقيقَتي ؟ آهٍ ، بَلى ! » ثُمَّ رَشَفَ رَشْفَةً مِنْ شَرابِهِ وَواصَلَ حَديثَهُ قائِلًا : « إِنَّ لُو لا تُحِبُّ باوِنْدِرْبِي ٱلعَجوزَ هِيَ ٱلأُخْرى . »

قالَ جيم : « لا أَظُنُّكَ تَعْني ما تَقولُ . »

قالَ تُوم : « بَلْ أَعْنيهِ تَمامًا . وَهٰذا صَحيحٌ فَهِيَ لا تُحِبُّهُ . »

قالَ جيم : « وَلٰكِنَّها تَزَوَّجَتْهُ يا تُوم ، وَيَبْدو أَنَّهُما يَعيشانِ سَعيدَيْنِ . »

قالَ تُوم : « إِنَّكَ تَعْرِفُ والِدي ؛ فَلَيْسَ مِنَ ٱلغَرابَةِ في شَيْءٍ أَنْ تَتَزَوَّجَ لُو باوِنْدِرْبِي ٱلعَجوزَ ، خُصوصًا أَنَّها لَمْ تَعْرِفْ غَيْرَهُ مِنَ ٱلرِّجالِ طَوالَ حَياتِها . وَعِنْدَما رَشَّحَهُ والِدي لِلزَّواجِ بِها قَبِلَتْهُ . »

قالَ جيم : « أَ هُوَ ٱمْتِثالُ ٱلِابْنَةِ ٱلصّالِحَةِ لِلْواجِبِ ؟ »

رَدَّ تُوم : « أَعْتَقِدُ أَنَّهُ ٱمْتِثالُ ٱلأُخْتِ ٱلصّالِحَةِ لِلْواجِبِ . »

لَمْ يُعَلِّقْ هارتْهاوْس بَعْدَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ ، وَلٰكِنَّ ٱلجَرْوَ ٱسْتَطْرَدَ قائِلًا : « لَقَدْ أَقْنَعْتُها بِأَنْ تَتَزَوَّجَ باوِنْدِرْبِي ٱلعَجوزَ ، لِأَنَّني كُنْتُ قَدْ دُفِعْتُ لِلْعَمَلِ مَعَهُ في ٱلبَنْكِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَوَدُّ أَنْ أَعْمَلَ هُناكَ . وَمِنْ ثَمَّ فَلَوْ رَفَضَتِ ٱلزَّواجَ بِهِ لَسَبَّبَ هٰذا لي ٱلعَديدَ مِنَ ٱلمَتاعِبِ ، وَلَمّا أَوْضَحْتُ لَها ذٰلِكَ ٱلمَوْقِفَ قَبِلَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَهُ . إِنَّها تَسْعَدُ دائِمًا بِأَنْ تَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلي . أَلا تَرى هٰذا مَوْقِفًا طَيِّبًا مِنْها ؟ »

قالَ جيم : « نَعَمْ ، إِنَّهُ مَوْقِفٌ طَيِّبٌ لِلْغايَةِ . »

قالَ تُوم : « لَمْ يَكُنِ ٱلأَمْرُ يَعْني ٱلكَثيرَ لَها ، فَلَمْ يَكُن في حَياتِها رَجُلٌ آخَرُ . وَكانَ بَيْتُنا أَشْبَهَ بِٱلسِّجْنِ ، خُصوصًا بَعْدَ أَنْ غادَرْتُهُ لِلْعَمَلِ ، وَكانَ عَلَيَّ في ٱلوَقْتِ ذاتِهِ أَنْ أُفَكِّرَ في مُسْتَقْبَلي وَفي راحَتي ، وَقَدْ كانَ ذٰلِكَ مَوْقِفًا طَيِّبًا مِنْها عِنْدَما وَضَعَتْ ذٰلِكَ في ٱعْتِبارِها . »

قالَ جيم مُؤَيِّدًا ، وَهُوَ يَصُبُّ ٱلمَزيدَ مِنَ ٱلشَّرابِ في كَأْسَيْهِما : « نَعَمْ ، إِنَّهُ

كَذٰلِكَ بِالتَّأْكِيدِ ، وَهِيَ تَبْدو سَعيدَةً تَمامًا . »

قالَ تُوم : « مِنَ ٱلْمُمْكِنِ لِأَيَّةِ فَتاةٍ أَنْ تَجِدَ سَعادَتَها أَيْنَما كانَتْ ، أُضِفْ إِلى ذٰلِكَ أَنَّ لُو لَيْسَتْ بِٱلْفَتاةِ ٱلعادِيَّةِ ، فَفي ٱسْتِطاعَتِها أَنْ تَنْطَوِيَ عَلى نَفْسِها وَتَسْتَغْرِقَ في ٱلتَّفْكيرِ لِساعاتٍ طَويلَةٍ . »

قالَ هارتْهاوْس بِهُدوءٍ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَتَسْتَطيعُ أَنْ تُسَلِّيَ نَفْسَها . »

قالَ تُوم : « لا ، لا أَعْتَقِدُ ذٰلِكَ ؛ فَقَدْ مَلَأَ والِدي عَقْلَها عَلى طَريقَتِهِ بِشَتّى أَنْواعِ ٱلحَقائِقِ ٱلجافَّةِ وَٱلأَرْقامِ ٱلمُرْهِقَةِ . »

قالَ هارتْهاوْس : « إِذًا صاغَها عَلى شاكِلَتِهِ ؟ »

أَجابَ تُوم : « نَعَمْ ، كَما صاغَ ٱلجَميعَ أَيْضًا بِمَنْ فيهِمْ أَنا نَفْسي . »

قالَ جيم : « لا يا تُوم ، إِنَّهُ لَمْ يَصُغْكَ عَلى هٰذا ٱلنَّحْوِ . »

قالَ تُوم : « لا ، بَلْ إِنَّهُ فَعَلَ ذٰلِكَ يا سَيِّدُ هارتْهاوْس . فَقَدْ كُنْتُ غايَةً في ٱلغَباءِ ، بَلْ كُنْتُ حِمارًا عِنْدَما تَرَكْتُ ٱلبَيْتَ ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ ٱلحَياةِ . »

قالَ جيم : « لا شَكَّ أَنَّكَ تَمْزَحُ يا تُوم . إِنَّني لا أُصَدِّقُ ذٰلِكَ . »

قالَ تُوم وَهُوَ يَرْشِفُ مِنْ كَأْسِهِ : « هٰذا صَحيحٌ . » ثُمَّ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلى ٱلمَقْعَدِ قائِلًا : « وَلٰكِنَّني بِطَبيعَةِ ٱلحالِ تَعَلَّمْتُ ٱلقَليلَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِجُهْدِيَ ٱلخاصِّ وَلا فَضْلَ لِوالِدي في ذٰلِكَ . »

سَأَلَهُ ٱلسَّيِّدُ هارتْهاوْس : « وَماذا عَنْ شَقيقَتِكَ ٱلذَّكِيَّةِ ؟ »

أَجابَ تُوم : « إِنَّ شَقيقَتِيَ ٱلذَّكِيَّةَ لَمْ تَتَغَيَّرْ ، وَكَثيرًا ما كانَتْ تَشْكو إِلَيَّ حالَها ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَها يَوْمًا تِلْكَ ٱلأَفْكارُ ٱلَّتي تُراوِدُ ٱلفَتاةَ ٱلعادِيَّةَ . كَما أَنَّها لَمْ تَعْرِفْ في حَياتِها شَيْئًا عَنِ ٱلحُبِّ أَوِ ٱلحَياةِ . وَلٰكِنَّ ٱلفَتَياتِ يَخْتَلِفْنَ عَنِ ٱلرِّجالِ ، فَهُنَّ لا يَحْتَجْنَ ٱلكَثيرَ . »

لَمْ يَقُلْ تُوم ٱلمَزيدَ ، بَلْ راحَ في ٱلنَّوْمِ عَلى كُرْسِيِّهِ إِلى أَنْ رَكَلَهُ هارتْهاوْس قائِلًا : « لَقَدْ تَأَخَّرَ بِنا ٱلوَقْتُ ؛ فَٱنْهَضْ وَعُدْ إِلى مَنْزِلِكَ . »

قالَ تُوم وَهُوَ يَنْهَضُ واقِفًا : « لَقَدْ كانَتْ تِلْكَ ٱلأَشْرِبَةُ جَيِّدَةً ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً بِدَرَجَةٍ كافِيَةٍ بِٱلنِّسْبَةِ لي . »

قالَ جيم : « لا ، لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً بِدَرَجَةٍ كافِيَةٍ ! »

قالَ تُوم : « لَقَدْ كانَتْ أَشْبَهَ بِٱلماءِ ، وَلٰكِنْ أَيْنَ ٱلبابُ ؟ طابَتْ لَيْلَتُكَ . »

اِصْطَحَبَ أَحَدُ ٱلخَدَمِ تُوم إِلى ٱلشّارِعِ ، وَكانَ بِٱسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَسيرَ وَحْدَهُ حَتّى مَنْزِلِهِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ بِٱسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ شَيْئًا مِمّا قالَهُ .

الفَصْـــلُ ٱلثَّالِـــثَ عَشَـــر

أَلَّفَ عُمَّالُ ٱلنَّسيجِ في كُوكْتاون نِقابَةً لِلْعُمّالِ ، بِقِيادَةِ رَجُلٍ يُدْعى سلاكْبِريدْج ، وَلَمْ يَكُنْ واحِدًا مِنَ ٱلْعُمّالِ بَلْ كانَ خَطيبًا . وَكانَ يُريدُ أَنْ يَحْصُلَ عُمّالُ ٱلنَّسيجِ عَلى أُجورٍ أَعْلى ، وَأَنْ تَتَوافَرَ لَهُمْ ظُروفُ عَمَلٍ أَفْضَلُ .

وَعَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سلاكْبِريدْج لَمْ يَكُنْ عَلى دَرَجَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ ٱلْعَدْلِ أَوِ ٱلأَمانَةِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَحُلْ دونَ ٱتِّفاقِ ٱلْعُمّالِ مَعَهُ ، وَٱنْضِمامِهِمْ إِلى ٱلنِّقابَةِ ، بِٱسْتِثْناءِ رَجُلٍ واحِدٍ . وَكانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْفَعوا بِضْعَةَ بِنْساتٍ أُسْبوعِيًّا لِسلاكْبِريدْج .

وَذاتَ لَيْلَةٍ ٱجْتَمَعَ ٱلْعُمّالُ كُلُّهُمْ في قاعَةٍ كَبيرَةٍ ، وَرَأَسَ ٱلإِجْتِماعَ أَكْبَرُ ٱلْعُمّالِ سِنًّا ، وَتَحَدَّثَ في ٱلإِجْتِماعِ سلاكْبِريدْج مُمْتَدِحًا ٱلنِّقابَةَ ، وَأَساءَ إِلى ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذي رَفَضَ ٱلإِنْضِمامَ إِلَيْهِمْ ، فَٱرْتَفَعَ صَوْتٌ مِنْ بَيْنِ ٱلْحاضِرينَ قائِلًا :

« مَنْ هُوَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلُ ؟ لَوْ كانَ ٱلْيَوْمَ مَوْجودًا بَيْنَنا فَدَعْهُ يَتَكَلَّمْ ! » وَٱرْتَفَعَتْ صَيْحاتٌ أُخْرى تُطالِبُ ذٰلِكَ ٱلشَّخْصَ بِأَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ ، وَطالَبوا بِأَنْ تُتاحَ لَهُ فُرْصَةُ ٱلْحَديثِ ؛ فَصَعِدَ رَجُلٌ إِلى ٱلْمِنَصَّةِ ، وَكانَتْ تَبْدو عَلى مَلامِحِهِ أَماراتُ ٱلأَمانَةِ وَٱلإِخْلاصِ ، وَدَلائِلُ ٱلإِرْهاقِ وَكِبَرِ ٱلسِّنِّ . وَإِثْرَ صُعودِهِ إِلى ٱلْمِنَصَّةِ قالَ رَئيسُ ٱلإِجْتِماعِ :

« يَجِبُ عَلى ٱلسَّيِّدِ سلاكْبِريدْج أَنْ يَلْتَزِمَ بِمَبادِئِ ٱلْعَدالَةِ ، وَأَنْ يَجْلِسَ حَتّى

نَسْتَمِعَ إِلى ما يَقولُهُ ستيفِن بلاكْبول ، فَأَنْتُمْ تَعْرِفونَ جَميعًا ما يَتَمَتَّعُ بِهِ ستيفِن مِنْ سُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ ، كَما تَعْرِفونَ أَيْضًا مُشْكِلَتَهُ . »

جَلَسَ رَئيسُ ٱلإِجْتِماعِ بَعْدَ أَنْ صافَحَ ستيفِن ، كَما جَلَسَ أَيْضًا سلاكْبِريدْج ، لِيَسْتَمِعَ ٱلْجَميعُ إِلى ستيفِن ٱلَّذي تَحَدَّثَ قائِلًا :

« أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ ، إِنَّني ٱلْوَحيدُ مِنْ بَيْنِ عُمّالِ مَصْنَعِ نَسيجِ باوِنْدِرْبي ٱلَّذي لَمْ يَنْضَمَّ إِلى ٱلنِّقابَةِ ، وَلَنْ أَنْضَمَّ إِلَيْها مُسْتَقْبَلًا . هٰذِهِ ٱلنِّقابَةُ لا تُساعِدُني ، وَلا أَعْتَقِدُ أَنَّها سَوْفَ تُساعِدُكُمْ يَوْمًا . كَما أَنَّ لَدَيَّ سَبَبًا خاصًّا يَمْنَعُني مِنَ ٱلإِنْضِمامِ إِلَيْها ، وَهٰذا سِرٌّ لَنْ أَبوحَ بِهِ لِأَحَدٍ ، وَهُوَ سَبَبٌ عَلى قَدْرٍ كَبيرٍ مِنَ ٱلأَهَمِّيَّةِ بِٱلنِّسْبَةِ لي . »

قَفَزَ سلاكْبِريدْج مِنْ مَكانِهِ صائِحًا : « إِنَّ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلَ سَوْفَ يُدَمِّرُكُمْ أَنْتُمْ وَأَبْناءَكُمْ وَأَحْفادَكُمْ . »

رَدَّ ستيفِن قائِلًا : « إِنَّ ٱلسَّيِّدَ سلاكْبِريدْج خَطيبٌ ، مِهْنَتُهُ ٱلْخَطابَةُ ، وَيُدْفَعُ لَهُ أَجْرٌ عَنْها ؛ فَلْيُؤَدِّ عَمَلَهُ ، وَسَأُؤَدّي أَنا عَمَلي . وَهُوَ مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى يَجْهَلُ ما بِحَياتي مِنْ أَلَمٍ ، وَتِلْكَ هِيَ مُشْكِلَتي وَحْدي . »

فَصاحَ أَحَدُ ٱلْحاضِرينَ قائِلًا : « اِجْلِسْ يا سلاكْبِريدْج وَأَعْطِ ٱلرَّجُلَ فُرْصَتَهُ لِيَتَحَدَّثَ . »

واصَلَ ستيفِن حَديثَهُ : « زُمَلائي ٱلْعُمّالَ ! إِنَّني أَعْرِفُ ما سَيَحْدُثُ لي عِنْدَما لا أَنْضَمُّ إِلى ٱلنِّقابَةِ . سَتَرْفُضونَ جَميعًا صَداقَتي ، وَعَلَيَّ أَنْ أَتَقَبَّلَ ذٰلِكَ . »

قالَ رَئيسُ ٱلإِجْتِماعِ : « فَلْتُفَكِّرْ مَرَّةً أُخْرى يا فَتى قَبْلَ فَواتِ ٱلأَوانِ . »

أجابَ ستيفن : « لَقَدْ فَكَّرْتُ كَثيرًا يا سَيِّدي ، فَوَجَدْتُ أَنّي بِكُلِّ بَساطَةٍ لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَنْضَمَّ إلى هٰذِهِ ٱلنِّقابَةِ . »

لَمْ يَكُنْ ستيفن غاضِبًا مِنْ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالِ ، بَلْ كانَ يَعْرِفُهُمْ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً وَهُمْ يَعْرِفونَهُ كَذٰلِكَ ، فَٱسْتَمَرَّ في حَديثِهِ قائِلًا : « إِنَّ كُلَّ ما عَلَيَّ هُوَ أَنْ أُباشِرَ عَمَلي وَحْدي وَسْطَكُمْ ، وَأَرْجو أَنْ تَسْمَحوا لي بِذٰلِكَ . فَيَجِبُ يا أَصْدِقائي أَنْ أَعْمَلَ في كوكْتاون حَتّى أَعيشَ ، وَهٰذا ما كُنْتُ أَفْعَلُهُ طَوالَ حَياتي ، بَلْ وَمُنْذُ طُفولَتي ، وَإِلّا فَأَيْنَ عَسايَ أَنْ أَذْهَبَ ٱلْآنَ ؟ »

خَيَّمَ ٱلصَّمْتُ عَلى ٱلْمَكانِ ، فَتَرَكَ ستيفن ٱلْمِنَصَّةَ وَأَفْسَحَ لَهُ ٱلرِّجالُ ٱلطَّريقَ ، وَمَشى بَيْنَهُمْ دونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلى أَيٍّ مِنْهُمْ حَتّى خَرَجَ مِنْ بابِ ٱلْقاعَةِ .

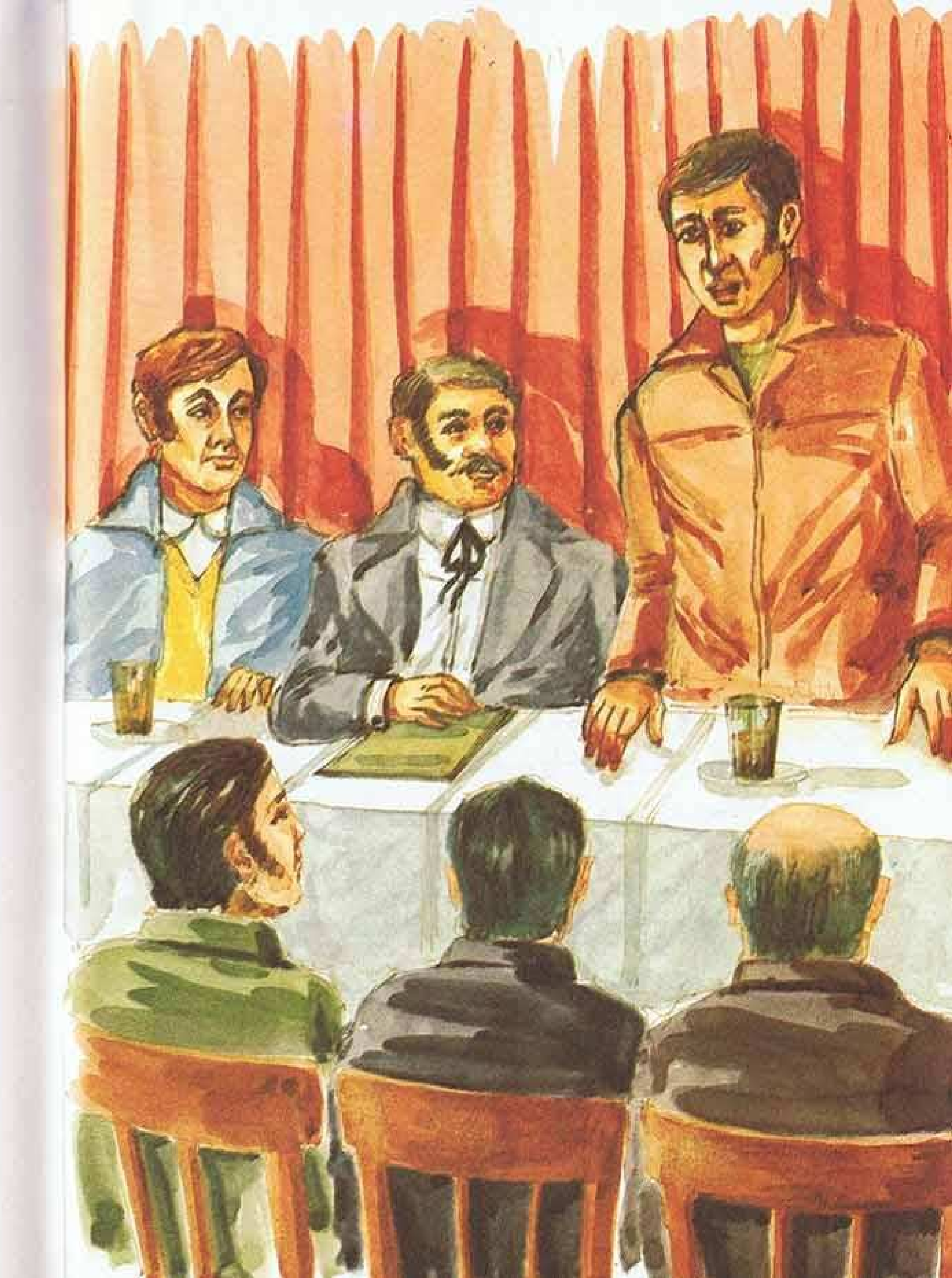
صاحَ سلاكْبريدْج مُخاطِبًا ٱلْعُمّالَ : « لا مَكانَ بَيْنَنا لِشِرّيرٍ ! فَقوموا بِواجِبِكُمْ يا عُمّالَ كوكْتاون ! وَلْنَهْتِفِ ٱلْآنَ ثَلاثَ مَرّاتٍ مِنْ أَجْلِ ٱلنِّقابَةِ . »

هَتَفَ ٱلْخَطيبُ ٱلْهُتافَ ٱلْأَوَّلَ وَحْدَهُ ، أَمّا ٱلْهُتافُ ٱلثّاني فَقَدْ رَدَّدَهُ مَعَهُ عِشْرونَ شَخْصًا ، ثُمَّ رَدَّدَ ٱلْجَميعُ ٱلْهُتافَ ٱلثّالِثَ .

اتَّسَمَتْ حَياةُ ستيفن بَعْدَ ذٰلِكَ بِٱلْوَحْدَةِ ، فَكانَ كُلَّما سارَ في ٱلشّارِعِ أَوْ في مَصْنَعِ ٱلنَّسيجِ لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ أَوْ يُبادِلْهُ ٱلْحَديثَ أَحَدٌ ، حَتّى ٱلنِّساءُ ٱللّاتي كانَ يَعْمَلُ مَعَهُنَّ ٱلْتَزَمْنَ ٱلصَّمْتَ .

كانَ ستيفن دائِمًا شَخْصًا هادِئًا ، وَأَصْبَحَ ٱلْآنَ يَشْعُرُ بِٱلْوَحْدَةِ ٱلتّامَّةِ ، وَلَمْ يَعُدْ يَرى راشيل ، بَلْ حَرَصَ عَلى أَلّا يَبْحَثَ عَنْها .

مَرَّتِ ٱلْأَيّامُ ٱلتّالِيَةُ عَلى ذٰلِكَ ٱلِاجْتِماعِ بَطيئَةً مُتَثاقِلَةً ، وَفي ٱللَّيْلَةِ ٱلرّابِعَةِ عِنْدَما



غادَرَ ستيفِن آلمَصنَعَ في مَوْعِدِهِ آلمُعْتادِ آستَوْقَفَهُ في آلشّارِعِ شابٌّ ذو شَعْرٍ فاتِحِ آللَّوْنِ ، وَكانَ هٰذا آلشَّخْصُ هُوَ بيتَزْر آلَّذي سَألَهُ : « أَ لَسْتَ أَنْتَ بلاكبُول ؟ »

رَدَّ ستيفِن : « بَلى . » وَقَدْ أَسْعَدَهُ أَنْ يَتَناهى إلى سَمْعِهِ صَوْتُ رَجُلٍ يُحَدِّثُهُ ؛ فَرَفَعَ قُبَّعَتَهُ بِآلتَّحِيَّةِ .

« يُريدُ آلسَّيِّدُ باوندِرْبي أَنْ يَراكَ ، فَهَلْ تَعْرِفُ أَيْنَ يُقيمُ ؟ »

فَلَمّا رَدَّ بِالإيجابِ قالَ لَهُ آلشّابُّ : « إذًا آذْهَبْ إلَيْهِ في مَنْزِلِهِ فَهُوَ يَنْتَظِرُكَ هُناكَ . »

عِنْدَما ذَهَبَ بلاكبُول إلى باونْدِرْبي سَألَهُ آلأخيرُ بِصَوْتٍ عالٍ : « حَسَنًا يا ستيفِن ، ماذا فَعَلَ بِكَ مُهَرِّجو كُوكْتاون ؟ »

كانَ ستيفِن يَقِفُ أَمامَهُ وَقَدْ أَمْسَكَ بِقُبَّعَتِهِ في يَدِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إلى آلأَشْخاصِ آلأَرْبَعَةِ آلمَوْجودينَ في آلغُرْفَةِ يَتَناوَلونَ آلشّايَ ، وَهُمُ آلسَّيِّدُ باوندِرْبي وَزَوْجَتُهُ وَشَقيقُها ، وَضَيْفُهُمُ آلقادِمُ مِنْ لَنْدن . وَآستَحَثَّهُ باوندِرْبي لِيُجيبَهُ عَنْ سُؤالِهِ قائِلًا : « تَكَلَّمِ آلآنَ ، فَأَنا أَنْتَظِرُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ جَوابًا . »

وَلَمّا كانَ ستيفِن قَدْ عاشَ في صَمْتٍ طَوالَ آلأَيّامِ آلأَرْبَعَةِ آلسّابِقَةِ ، فَإنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِآرْتِياحٍ لِسَماعِهِ صَوْتَ باوندِرْبي آلأَجَشَّ ، وَلٰكِنَّهُ أَجابَ قائِلًا : « لَقَدْ نَقَلَ ذٰلِكَ آلشّابُّ رِسالَتَكَ يا سَيِّدي ، وَعَرَفْتُ أَنَّكَ تَرْغَبُ في مُقابَلَتي . »

قالَ باوندِرْبي : « حَدِّثْني عَنْ نَفْسِكَ وَعَنْ نِقابَةِ آلعُمّالِ . »

أَجابَهُ ستيفِن : « آسِفٌ يا سَيِّدي ، لَيْسَ عِنْدي ما أَقولُهُ في هٰذا آلشَّأْنِ . »

إرْتَفَعَتْ أَنْفاسُ آلسَّيِّدِ باوندِرْبي حَتّى صارَتْ أَشْبَهَ بِريحٍ قَوِيَّةٍ ، وَوَجَّهَ حَديثَهُ إلى هارتْهاوْس قائِلًا : « هَلْ سَمِعْتَ ما قالَ يا هارتْهاوْس ؟ إنَّ هٰذا واحِدٌ مِنْ عُمّالي . وَكُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّهُ في سَبيلِهِ إلى أَنْ يَنْحَرِفَ وَيَزْدادَ سوءًا فَحَذَّرْتُهُ ، وَعَلى آلرَّغْمِ مِمّا فَعَلَهُ بِهِ هٰؤُلاءِ آلحَمْقى ، فَها هُوَ ذا يَخْشى أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ . »

قالَ ستيفِن : « إنَّني لا أَخْشى شَيْئًا يا سَيِّدي ، وَلٰكِنْ لَيْسَ عِنْدي ما أَقولُهُ لَكَ . »

قالَ باوندِرْبي : « إنَّ هٰذا لَأَمْرٌ مُضْحِكٌ يا ستيفِن . هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّني سَأُصَدِّقُ أَنَّ سلاكبْريدْج لا يُثيرُ آلمَتاعِبَ هُنا ؟ »

أَجابَهُ ستيفِن : « عَفْوًا يا سَيِّدي ، لٰكِنْ إذا ما فَسَدَ آلقادَةُ فَلَيْسَ هُناكَ ما يَعيبُ آلنّاسَ . كُلُّ ما في آلأَمْرِ أَنَّهُمْ لا يَجِدونَ قادَةً أَفْضَلَ . »

قالَ باوندِرْبي مُوَجِّهًا حَديثَهُ إلى هارتْهاوْس : « أَنْصِتْ يا هارتْهاوْس لِما يُقالُ ، وَبِذٰلِكَ سَوْفَ تَتَعَرَّفُ إلى بَعْضِ مُشْكِلاتِنا . » ثُمَّ تَنَهَّدَ في عُمْقٍ قائِلًا : « قُلْ لي يا ستيفِن ، لِماذا رَفَضْتَ أَنْ تَنْضَمَّ إلى تِلْكَ آلنِّقابَةِ ؟ »

أَجابَ ستيفِن : « لَقَدْ كُنْتُ أُفَضِّلُ أَلّا أَقولَ شَيْئًا عَنْ ذٰلِكَ . أَما وَقَدْ سَأَلْتَني فَإنَّني سَأُجيبُكَ . لَقَدْ وَعَدْتُ بِذٰلِكَ . »

قالَ باوندِرْبي : « لٰكِنَّكَ لَمْ تَعِدْني بِشَيْءٍ . »

قالَ ستيفِن : « لا يا سَيِّدي . لَمْ يَكُنْ وَعْدي لَكَ . »

قالَ باونْدِرْبي بحيرةٍ : « بطبيعةِ الحالِ ، لَمْ يكُنْ وَعْدُكَ لي ، فهؤلاءِ الرِّجالُ لا يَشْغَلُهُمْ أَمْري على الإطلاقِ . » لكِنَّ ستيفن اسْتدارَ فجأةً وَوجَّهَ حديثَهُ إلى السَّيِّدةِ باونْدِرْبي قائِلاً : « لا يا سيِّدتي ! إنَّ هؤلاءِ الرِّجالَ ليْسوا بمُهرِّجينَ أَوْ لُصوصٍ ، وَإِنْ كُنْتُ أُدْرِكُ أَنَّهُمْ لَمْ يُحسِنوا مُعامَلتي ، وَلكِنَّهُمْ يعتقدونَ أنَّهُمْ أدَّوْا واجِبَهُمْ . وَتلْكَ هِيَ الحقيقةُ ، فأنا أعْرِفُ هؤلاءِ الرِّجالَ مَعْرِفةً جيِّدةً ، فقدْ عِشْتُ بَيْنَهُمْ طَوالَ حياتي ، وَيجِبُ عَليَّ أنْ ألتزِمَ بالحقيقةِ كُلَّما تكلَّمْتُ عنْهُمْ . فهُمْ في الواقِعِ رِجالٌ أُمناءُ وَمُخْلِصونَ ، مُهذَّبونَ صادِقونَ ، تَمتلئُ قُلوبُهُمْ بمشاعِرِ العطْفِ وَالمحبَّةِ . »

ضحِكَ باونْدِرْبي ضِحْكةً عاليةً وَقالَ : « وَلكِنَّهُمْ لا يُحِبّونَكَ يا ستيفن ! »

اِسْتَمرَّ ستيفن في مُخاطبتِهِ السَّيِّدةَ باونْدِرْبي قائِلاً : « إنَّهُمْ يُحِبّونَ زُملاءَهُمْ يا سيِّدتي ، وَأنا واحِدٌ مِنْ زُملائِهِمْ . إنَّ بعْضَ ما يتَّصِفونَ بِهِ مِنْ صِفاتٍ طيِّبةٍ ، كالشَّرفِ وَالإحساسِ بالواجِبِ مِنْ شأْنِهِ أنْ يُثيرَ بَعْضَ المتاعِبِ ، أَوْ يُسبِّبَ بَعْضَ الأخطارِ . وَرَغْمَ حِرْصِهِمْ على الالتزامِ بجانبِ الصَّوابِ فهُناكَ أخطاءٌ تقعُ أحيانًا وَلا قِبَلَ لَهُمْ بِها . »

عِنْدَئِذٍ بَدَأَ باونْدِرْبي يشْعُرُ بالضِّيقِ وَالغضبِ إزاءَ تِلْكَ المُناقشةِ الَّتي ليْسَتْ مِنْ شُؤونِ زَوْجتِهِ ، فقالَ لستيفن : « اِسْتَمِعْ لِما سأقولُ يا ستيفن . إنَّ هٰذا السَّيِّدَ — وَأشارَ إلى هارْتهاوْس — عُضْوٌ في البَرْلمانِ ، وَقدْ جاءَ مِنْ لندن ، وَيودُّ أنْ يَعْرِفَ الحقائِقَ . وَالآنَ أخْبِرْني ما هِيَ شكْواكَ ؟ »

أجابَ ستيفن : « إنَّني لا أشْكو شيْئًا ، وَقدْ جِئْتُ هُنا لأنَّكَ تُريدُ أنْ تتحدَّثَ إليَّ . »

سأَلَهُ باونْدِرْبي : « حسَنًا وَمِمَّ يشْكو العُمّالُ ؟ »

أجابَ ستيفن : « أنا لسْتُ مُتحدِّثًا لبِقًا ، وَلكِنَّني أعْرِفُ الكثيرَ عَنْ مُشْكِلاتِهِمْ ، فنحْنُ نعيشُ في مدينةٍ بالِغةِ الثَّراءِ ، وَبالِغةِ الفَقْرِ في الوَقْتِ نفْسِهِ . فالآلافُ مِنَ العُمّالِ يَعْملونَ في المَصانِعِ ، وَيؤدّونَ جميعُهُمُ العَمَلَ نفْسَهُ الَّذي التحقوا بِهِ مُنْذُ صِباهُمْ ، وَلَنْ يكُفّوا عَنْ أدائِهِ حتّى يموتوا . وَلكِنِ انْظُرْ يا سيِّدي إلى بُيوتِنا : إنَّها بُيوتٌ صغيرةٌ مُظْلِمةٌ تكْتَظُّ بسُكّانِها ، وَلا بارِقةَ أمَلٍ تُبشِّرُ بحياةٍ أفضَلَ ، اللَّهُمَّ إلّا الرّاحةَ الأبديَّةَ الَّتي تأتي في النِّهايةِ . إنَّكَ تكْتُبُ عنّا يا سيِّدي كما تتحدَّثُ في البَرْلمانِ عَنْ أُمورِنا ، وَلا شكَّ أنَّكَ دائِمًا مُحِقٌّ فيما تقولُهُ ، وَنحْنُ دائِمًا مُخْطِئونَ . إنَّ حياتَنا يا سيِّدي ما هِيَ إلّا ضَرْبٌ مِنَ التَّخبُّطِ ، التَّخبُّطِ الهائِلِ . »

سأَلَهُ باونْدِرْبي : « وَكيفَ يُمْكِنُكَ أنْ تُصحِّحَ هٰذا التَّخبُّطَ ؟ »

أجابَ ستيفن : « إنَّني لا أستطيعُ أنْ أجِدَ حلًّا لِهٰذا . أليْسَ هٰذا مِنْ صَميمِ واجِباتِ قادَتِنا هُنا ، وَهُناكَ في البَرْلمانِ ؟ »

قالَ باونْدِرْبي : « إنَّني أعْرِفُ ذٰلِكَ . وَسوْفَ نقْبِضُ على كُلِّ هؤلاءِ الرِّجالِ مِنْ أمْثالِ سلاكبريدج ، وَنُلْقي بِهِمْ في السِّجْنِ . »

هزَّ ستيفن رأْسَهُ وَقالَ : « إنَّ هٰذا لَنْ يُغيِّرَ مِنَ الأمْرِ شيْئًا يا سيِّدي . لقدْ عِشْنا وَسْطَ هٰذا التَّخبُّطِ قبْلَ أنْ يظْهَرَ سلاكبريدج . » ثُمَّ نظَرَ إلى ساعةٍ مُعلَّقةٍ على الحائِطِ وَاسْتطْرَدَ قائِلاً « إنَّكَ يا سيِّدي لَنْ تسْتطيعَ أنْ توقِفَ مسيرةَ الزَّمنِ إذا وَضَعْتَ هٰذِهِ السّاعةَ في السِّجْنِ . »

نَظَرَتِ ٱلسَّيِّدَةُ باونْدِرْبي إلى ستيفِن نَظْرَةً سَريعَةً ، ثُمَّ أَشارَتْ بِنَظْرَتِها نَحْوَ ٱلبابِ فَفَهِمَ ستيفِن ما تَعْنيهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى مِقْبَضِ ٱلبابِ . وَلٰكِنَّهُ كانَ يُدْرِكُ أَيْضًا أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُدافِعَ عَنْ شَرَفِ قَوْمِهِ . وَنَظَرَ إلى ٱلسَّيِّدِ هارتْهاوْس وَقالَ :

« أَنا لَسْتُ رَجُلًا مُتَعَلِّمًا يا سَيِّدي ، وَلا أَعْرِفُ سَبيلًا لِوَضْعِ حَدٍّ لِهٰذا ٱلتَّخَبُّطِ . وَلٰكِنَّني أَعْرِفُ ٱلأَشْياءَ ٱلَّتي لا يُمْكِنُ أَنْ تَضَعَ حَدًّا لَها . وَلَيْسَ بِمَقْدورِ يَدٍ واحِدَةٍ — مَهْما بَلَغَتْ قُوَّتُها — أَنْ تَضَعَ حَدًّا لِذٰلِكَ ٱلتَّخَبُّطِ ، كَما أَنَّ ٱلسَّلْبِيَّةَ لَنْ تُنْهِيَهُ . وَإِذا ٱفْتَرَضْنا أَنَّ طَرَفًا مِنَ ٱلأَطْرافِ عَلى صَوابٍ دائِمًا ، فَلا بُدَّ أَنْ يَكونَ ٱلطَّرَفُ ٱلثّاني مُخْطِئًا دائِمًا ، وَلَنْ يُساعِدَ ذٰلِكَ عَلى إِنْهاءِ هٰذا ٱلوَضْعِ . فَهُناكَ يا سَيِّدي عالَمٌ أَسْوَدُ وَأَجْوَفُ يَفْصِلُ بَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ ، وَٱنْفِصالُهُما عَلى ذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ لا يَضَعُ حَدًّا لِتِلْكَ ٱلمُشْكِلَةِ . فَنَحْنُ جَميعًا رِجالًا وَنِساءً لَسْنا آلاتٍ أَوْ شُخوصًا لا حَياةَ فيها ، بَلْ إِنَّنا بَشَرٌ لَنا قُلوبُنا ، وَنُحِبُّ وَنَتَمَنّى ، وَلَنا مَخاوِفُنا وَذِكْرَياتُنا ، مِثْلُ ما لَكُمْ تَمامًا . »

فَتَحَ ستيفِن ٱلبابَ وَٱنْتَظَرَ ، فَقالَ باونْدِرْبي وَقَدِ ٱحْمَرَّ وَجْهُهُ ٱحْمِرارًا شَديدًا : « آهٍ ، إِنَّها تِلْكَ ٱلمِلْعَقَةُ ٱلذَّهَبِيَّةُ مَرَّةً أُخْرى يا بلاكْبُول . فَأَنْتُمْ دائِمو ٱلشَّكْوى ، حَتّى لَقَدْ صارَتِ ٱلشَّكْوى هِيَ كُلَّ حَياتِكُمْ . »

هَزَّ ستيفِن رَأْسَهُ وَقالَ : « ما أَنا إِلّا نَسّاجٌ يا سَيِّدي . »

قالَ باونْدِرْبي : « إِنَّكَ تُثيرُ ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلمَتاعِبِ ، حَتّى لَقَدْ ضاقَتْ بِكَ ٱلنِّقابَةُ نَفْسُها . إِنَّني ما كُنْتُ أَظُنُّ يَوْمًا أَنَّ هٰؤُلاءِ ٱلنّاسَ عَلى صَوابٍ ، وَلٰكِنَّني أَتَّفِقُ مَعَهُمُ ٱلآنَ عَلى شَيْءٍ واحِدٍ ، فَقَدْ ضِقْتُ أَنا أَيْضًا بِكَ . »

تَطَلَّعَ ستيفِن بِسُرْعَةٍ إلى وَجْهِ باونْدِرْبي ، وَلٰكِنَّ ٱلأَخيرَ قالَ : « بَعْدَ أَنْ تَحْصُلَ عَلى أُجْرِكَ في نِهايَةِ هٰذا ٱلأُسْبوعِ ، عَلَيْكَ أَنْ تَجِدَ لِنَفْسِكَ مَكانًا آخَرَ تَذْهَبُ إِلَيْهِ . »

أَجابَهُ ستيفِن : « وَلٰكِنْ يا سَيِّدي إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْصُلَ عَلى عَمَلٍ مَعَكَ ، فَلَنْ أَحْصُلَ عَلى عَمَلٍ في أَيِّ مَكانٍ . أَنْتَ تَعْرِفُ هٰذا يا سَيِّدي ! »

قالَ باونْدِرْبي : « هٰذِهِ مُشْكِلَتُكَ ٱلخاصَّةُ . »

نَظَرَ ستيفِن إلى ٱلسَّيِّدَةِ باونْدِرْبي ، وَلَمْ تَكُنْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَٱسْتَدارَ وَغادَرَ ٱلغُرْفَةَ .

الفَصْلُ ٱلرّابِعَ عَشَرَ

كانَ ٱلظَّلامُ قَدْ بَدَأَ يُخَيِّمُ على ٱلمَدينَةِ عِنْدَما غادَرَ ستيفِن مَنْزِلَ باوِنْدِرْبي . وَفي ٱلشّارِعِ كانَتْ ثَمَّةَ مُفاجَأَةٌ ، بَلْ مُفاجَأَتانِ في ٱنْتِظارِهِ ، فَقَدِ ٱلْتَقى بِتِلْكَ ٱلسَّيِّدَةِ ٱلعَجوزِ ٱلغَريبَةِ ٱلَّتي قابَلَها مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عامٍ . وَها هُوَ يَلْتَقي بِها مَرَّةً أُخْرى . أَمّا ٱلمُفاجَأَةُ ٱلثّانِيَةُ فَهِيَ وُجودُ راشيل مَعَها .

قالَ : « آهٍ يا عَزيزَتي راشيل !أَأَنْتِ مَعَها يا سَيِّدَتي ؟ »

أَجابَتْهُ ٱلعَجوزُ قائِلَةً : « نَعَمْ إِنَّني مَعَها ، وَقَدِ ٱلْتَقَيْتُ بِها لِتَوِّي . وَكُنْتُ أُراقِبُ مَنْزِلَ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي مُنْذُ ٱلصَّباحِ . وَقَدْ سَمِعْتُ بِنَبَإِ زَواجِهِ العامَ الماضِيَ ، وَكُنْتُ آمُلُ أَنْ أَرى زَوْجَتَهُ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تُغادِرِ ٱلمَنْزِلَ قَطُّ . وَقَدِ ٱلْتَقَيْتُ بِهٰذِهِ ٱلشّابَّةِ مُنْذُ عَشْرِ دَقائِقَ ، وَتَبادَلْنا ٱلحَديثَ . »

عاوَدَ ستيفِن ٱلإِحْساسُ بِأَنَّهُ لا يُحِبُّ هٰذِهِ ٱلمَرْأَةَ ٱلعَجوزَ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ تَفْسيرًا لِذٰلِكَ ، وَخُصوصًا أَنَّها كانَتْ تَتَّسِمُ بِٱلبَساطَةِ وَٱلصِّدْقِ ، فَقالَ لَها بِطَريقَتِهِ ٱلرَّقيقَةِ ٱلمُعْتادَةِ : « حَسَنًا يا سَيِّدَتي . لَقَدِ ٱلْتَقَيْتُ بِٱلسَّيِّدَةِ باوِنْدِرْبي ، وَهِيَ شابَّةٌ جَميلَةٌ ، وَلَها عَيْنانِ تَمْتَلِئانِ بِٱلفِكْرِ ، وَهِيَ هادِئَةُ ٱلطَّبْعِ . »

قالَتِ ٱلعَجوزُ : « شابَّةٌ وَجَميلَةٌ أَجَلْ ! وَسَعيدَةٌ ؟ »

قالَ ستيفِن مُتَرَدِّدًا : « فيما أَحْسَبُ يا سَيِّدَتي . »

سَأَلَتْهُ ٱلمَرْأَةُ : « فيما تَحْسَبُ ؟ لا بُدَّ أَنَّها سَعيدَةٌ . إِنَّها زَوْجَةُ رَئيسِكُمْ . »

نَظَرَ ستيفِن إِلى راشيل وَقالَ : « لَنْ يَكونَ رَئيسي بَعْدَ هٰذا ٱلأُسْبوعِ . »

سَأَلَتْهُ راشيل في قَلَقٍ : « هَلْ سَتَتْرُكُ ٱلمَصْنَعَ يا ستيفِن ؟ »

أَجابَها : « يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَتْرُكَهُ . فَهٰذا أَفْضَلُ شَيْءٍ لي وَلِلْعُمّالِ ٱلآخَرينَ . كَما يَجِبُ أَنْ أُغادِرَ كوكْتاون ، وَأَبْحَثَ عَنْ عَمَلٍ في مَكانٍ آخَرَ . »

سَأَلَتْهُ : « أَيْنَ سَتَذْهَبُ يا ستيفِن . »

أَجابَها : « لا أَعْلَمُ ٱلآنَ ، وَلٰكِنَّني سَأَجِدُ مَكانًا آخَرَ . »

كانَ ستيفِن يَكْرَهُ أَنْ يَتْرُكَ راشيل ، وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ قَدْ يَكونُ أَجْدى لَها ، فَلَنْ يَجِدَ ٱلعُمّالُ مُبَرِّرًا لِلْغَضَبِ عَلَيْها بَعْدَ أَنْ يَذْهَبَ ، فَقالَ لَها : « إِنَّني أَشْعُرُ بِأَنَّ ثِقْلًا قَدِ ٱنْزاحَ عَنْ صَدْري . »

اِبْتَسَمَتْ لَهُ راشيل ٱبْتِسامَةً وَدودًا ، وَمَشى ٱلثَّلاثَةُ مَعًا .

سَأَلَ ستيفِن ٱلسَّيِّدَةَ ٱلعَجوزَ : « هَلْ سَتَقْضينَ لَيْلَتَكِ في كوكْتاون يا سَيِّدَتي ؟ »

أَجابَتْهُ : « نَعَمْ ، في ذٰلِكَ ٱلفُنْدُقِ ٱلصَّغيرِ ٱلقَريبِ مِنَ ٱلمَحَطَّةِ ؛ لِأَنَّني سَأُسافِرُ غَدًا عائِدَةً إِلى بَيْتي . »

قالَ لَها ستيفِن : « تَفَضَّلي في بَيْتي يا سَيِّدَتي وَتَناوَلي ٱلشّايَ ، وَفي هٰذِهِ ٱلحالَةِ سَتَأْتي راشيل أَيْضًا ، وَسَأُرافِقُكِ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى ٱلفُنْدُقِ . رُبَّما يَنْقَضي وَقْتٌ طَويلٌ يا راشيل قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِيَ مَرَّةً أُخْرى . »

قَبِلا دَعْوَتَهُ ، وَسارَ ثَلاثَتُهُمْ حَتّى ذٰلِكَ ٱلشّارِعِ ٱلضَّيِّقِ حَيْثُ يُقيمُ ستيفن . وَهُناكَ نَظَرَ ستيفن في خَوْفٍ إلى أَعْلى ، فَوَجَدَ نافِذَةَ غُرْفَتِهِ مَفْتوحَةً كَما تَرَكَها في ٱلصَّباحِ . فَلَمْ يَكُنْ في ٱلغُرْفَةِ أَحَدٌ بَعْدَ أَنْ هَرَبَتْ زَوْجَتُهُ مُنْذُ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ وَتَرَكَتِ ٱلبَيْتَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَيْنَ ذَهَبَتْ . وَكانَ عَلى ستيفن أَنْ يَشْتَرِيَ أَثاثًا جَديدًا لِيَفْرِشَ بِهِ غُرْفَتَهُ .

بَعْدَ أَنْ دَخَلوا أَشْعَلَ ستيفن ٱلمِصْباحَ ، وَتَوَلَّتْ راشيل تَقْطيعَ ٱلخُبْزِ وَٱلزُّبْدِ وَإِعْدادَ ٱلشّايِ . وَتَمَتَّعَتِ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلعَجوزُ بِٱلوَجْبَةِ ٱلَّتي تَناوَلَتْها ، وَبَدَتْ عَلَيْها ٱلسَّعادَةُ . وَسَأَلَها ستيفن : « إِنَّني لا أَعْرِفُ ٱسْمَكِ بَعْدُ يا سَيِّدَتي ، فَما ٱسْمُكِ ؟ »

أَجابَتْهُ : « إِسْمي ٱلسَّيِّدَةُ بِغْلَر ، وَقَدْ تُوُفِّيَ زَوْجي مُنْذُ سَنَواتٍ ، وَكانَ رَجُلًا طَيِّبًا لِلْغايَةِ . »

سَأَلَها : « إِنَّني آسِفٌ . هَلْ لَدَيْكِ أَوْلادٌ ؟ »

اِهْتَزَّ كوبُ ٱلشّايِ في يَدِ ٱلسَّيِّدَةِ بِغْلَر عِنْدَ سَماعِ هٰذا ٱلسُّؤالِ ، وَلٰكِنَّها أَجابَتْهُ : « لا ، لَمْ يَعُدْ لِيَ ٱلآنَ أَوْلادٌ ! »

هَمَسَتْ راشيل إلى ستيفن قائِلَةً : « لَقَدْ ماتوا . »

قالَ ستيفن : « آسِفٌ يا سَيِّدَتي لِتَوْجيهي هٰذا ٱلسُّؤالَ . كَمْ أَلومُ نَفْسي لِأَنَّني ... »

قاطَعَتْهُ ٱلعَجوزُ قائِلَةً : « لَقَدْ كانَ لِيَ ٱبْنٌ ، وَكانَ جادًّا في عَمَلِهِ وَناجِحًا كُلَّ

ٱلنَّجاحِ ، وَلٰكِنَّني أُفَضِّلُ أَلّا أَتَكَلَّمَ عَنْهُ . إِنَّهُ ... » ثُمَّ وَضَعَتْ كوبَها وَقالَتْ : « لَقَدْ فَقَدْتُهُ . »

في ٱللَّحْظَةِ ٱلتّالِيَةِ سَمِعَ ٱلجَميعُ ضَوْضاءَ عَلى ٱلسُّلَّمِ ، ثُمَّ سَمِعوا صَوْتَ سَيِّدَةٍ تُنادي ستيفن . وَكانَتْ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةُ هِيَ صاحِبَةَ ٱلمَتْجَرِ بِٱلطّابَقِ ٱلسُّفْلِيِّ مِنَ ٱلبَيْتِ . وَخَرَجَ ستيفن إِلَيْها ، وَتَحَدَّثا مَعًا . وَتَناهى إلى آذانِ راشيل وَٱلسَّيِّدَةِ بِغْلَر ٱسْمٌ رَدَّدَتْهُ ٱلسَّيِّدَةُ بِغْلَر بِصَوْتٍ خافِتٍ قائِلَةً : « باوِنْدِرْبي ! يَجِبُ أَنْ أَخْتَفِيَ عَنْهُ ! » ثُمَّ هَبَّتْ واقِفَةً وَهِيَ تَقولُ : « أَرْجوكُمْ ، لا تَجْعَلوهُ يَراني . »

تَعَجَّبَ ستيفن وَسَأَلَها في دَهْشَةٍ : « ما ٱلأَمْرُ يا سَيِّدَتي ؟ إِنَّهُ لَيْسَ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي ، إِنَّها زَوْجَتُهُ ، وَلا أَظُنُّكِ تَخافينَ مِنْها ، فَقَدْ ذَكَرْتِ مُنْذُ ساعَةٍ أَنَّكِ تَعْتَقِدينَ أَنَّها ٱمْرَأَةٌ رائِعَةٌ . »

سَأَلَتْهُ وَهِيَ لا تَزالُ تَرْتَجِفُ : « هَلْ هِيَ حَقًّا ٱلسَّيِّدَةُ باوِنْدِرْبي ؟ أَ واثِقٌ أَنْتَ بِذٰلِكَ ؟ »

أَجابَها : « تَمامَ ٱلثِّقَةِ . »

فَقالَتْ : « سَأَلْزَمُ مَكاني في هٰذا ٱلرُّكْنِ مِنَ ٱلغُرْفَةِ ، وَأَرْجوكَ أَلّا تَتَحَدَّثَ إِلَيَّ . »

حَمَلَ ستيفن ٱلمِصْباحَ وَنَزَلَ ٱلسُّلَّمَ ، ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ لويزا يَتْبَعُها ٱلجَرْوُ شَقيقُها ، ثُمَّ دَخَلوا جَميعًا ٱلغُرْفَةَ .

كانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ زِيارَةٍ تَقومُ بِها لويزا إلى مَسْكَنِ أَيٍّ مِنَ ٱلعُمّالِ في كوكْتاون .

لَقَدْ كانَتْ تَعْرِفُ ٱلْكَثيرَ مِنَ ٱلْحَقائِقِ عَنْ هٰؤُلاءِ ٱلنّاسِ وَعَنْ عَمَلِهِمْ ، وَلٰكِنَّ مَعْرِفَتَها بِهِمْ كانَتْ أَشْبَهَ بِمَعْرِفَتِها بِٱلْحَشَراتِ ٱلَّتي كانَتْ تَقْرَأُ عَنْها في كُتُبِ ٱلْعُلومِ ، فَهُمْ جَميعًا يَبْنونَ أَعْشاشَهُمْ وَيَعْمَلونَ . وَكانَتْ غُرْفَةُ ستيفن واحِدَةً مِنْ تِلْكَ ٱلأَعْشاشِ .

تَطَلَّعَتْ لويزا حَوْلَها لِبِضْعِ دَقائِقَ ، وَلاحَظَتْ فِي ٱلْغُرْفَةِ قِطَعَ ٱلأَثاثِ ٱلْقَليلَةَ ، وَبَعْضَ ٱلْكُتُبِ . وَوَقَعَ بَصَرُها عَلى ٱلسَّيِّدَتَيْنِ ، فَخَمَّنَتْ أَنَّ ٱلشّابَّةَ ٱلصَّغيرَةَ لَيْسَتْ زَوْجَةَ ستيفن . وَكَما حَدَثَ في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ عِنْدَما تَحَدَّثَ ستيفن إِلى ٱلسَّيِّدَةِ باوِنْدِرْبي ، تَحَدَّثَتْ هِيَ إِلى راشيل فَقالَتْ لَها : « لَقَدْ جِئْتُ لِأَمُدَّ يَدَ ٱلْمُساعَدَةِ إِنْ سَمَحْتُمْ لي بِذٰلِكَ . هَلْ تَعْرِفينَ ما حَدَثَ ؟ هَلْ أَخْبَرَكِ بِٱلأَمْرِ ؟ »

أَجابَتْها راشيل : « لَقَدْ أَخْبَرَني أَنَّهُ سَوْفَ يَتْرُكُ ٱلْعَمَلَ . »

قالَتْ لويزا : « إِذا تَرَكَ ٱلْعَمَلَ في مَصْنَعِ زَوْجي ، فَلَنْ يَكونَ بِٱسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا آخَرَ في مَدينَةِ كوكْتاون . أَ لَيْسَ هٰذا صَحيحًا ؟ »

قالَتْ راشيل : « بَلى أَيَّتُها ٱلشّابَّةُ ، فَسَوْفَ تَكونُ سُمْعَتُهُ قَدْ ساءَتْ بَيْنَ ٱلْجَميعِ . »

قالَتْ لويزا : « كَما أَنَّ زُمَلاءَهُ مِنَ ٱلْعُمّالِ لَنْ يَقْبَلوا ٱلْعَمَلَ مَعَهُ ؛ لِأَنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَشْتَرِكَ في نِقابَتِهِمْ ، وَلِلسَّبَبِ نَفْسِهِ أَيْضًا لَنْ يُوَظِّفَهُ أَيٌّ مِنْ أَصْحابِ ٱلأَعْمالِ . وَلٰكِنْ أَخْبِريني هَلْ وَعَدَكِ بِأَلّا يَنْضَمَّ إِلى ٱلنِّقابَةِ ؟ »

اِنْفَجَرَتْ راشيل في ٱلْبُكاءِ قائِلَةً : « إِنَّني لَمْ أَطْلُبْ مِنْهُ وَعْدًا . يا لَلْفَتى ٱلْمِسْكينِ ! إِنَّني ما أَرَدْتُ إِلّا أَنْ أُجَنِّبَهُ ٱلْمَتاعِبَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِهِ . وَلَمْ أَكُنْ

أَظُنُّ أَنَّهُ سَوْفَ يَفْقِدُ عَمَلَهُ ، وَلٰكِنْ ها هُوَ ٱلآنَ يُفَضِّلُ ٱلْمَوْتَ عَلى أَنْ يَنْقُضَ وَعْدَهُ . »

أَمْسَكَ ستيفن بِيَدِ راشيل قائِلًا : « إِنَّني أُكِنُّ لَكِ تَقْديرًا كَبيرًا وَحُبًّا فائِقًا يا راشيل . لَقَدْ كُنْتُ سَعيدًا عِنْدَما وَعَدْتُ ذٰلِكَ ٱلْوَعْدَ ، وَسَيُسْعِدُني أَيْضًا أَنْ أُحافِظَ عَلَيْهِ . »

نَظَرَتْ إِلَيْهِ لويزا نَظْرَةً تَكْشِفُ عَنْ مَزيدٍ مِنَ ٱلاِحْتِرامِ لَهُ ، ثُمَّ أَحْنَتْ رَأْسَها ، وَسَأَلَتْهُ في صَوْتٍ خافِتٍ : « ماذا سَتَصْنَعُ ؟ »

أَجابَها : « سَأَذْهَبُ بَعيدًا يا سَيِّدَتي ، وَسَأُحاوِلُ أَنْ أَجِدَ لِنَفْسي عَمَلًا في أَيِّ مَكانٍ آخَرَ . »

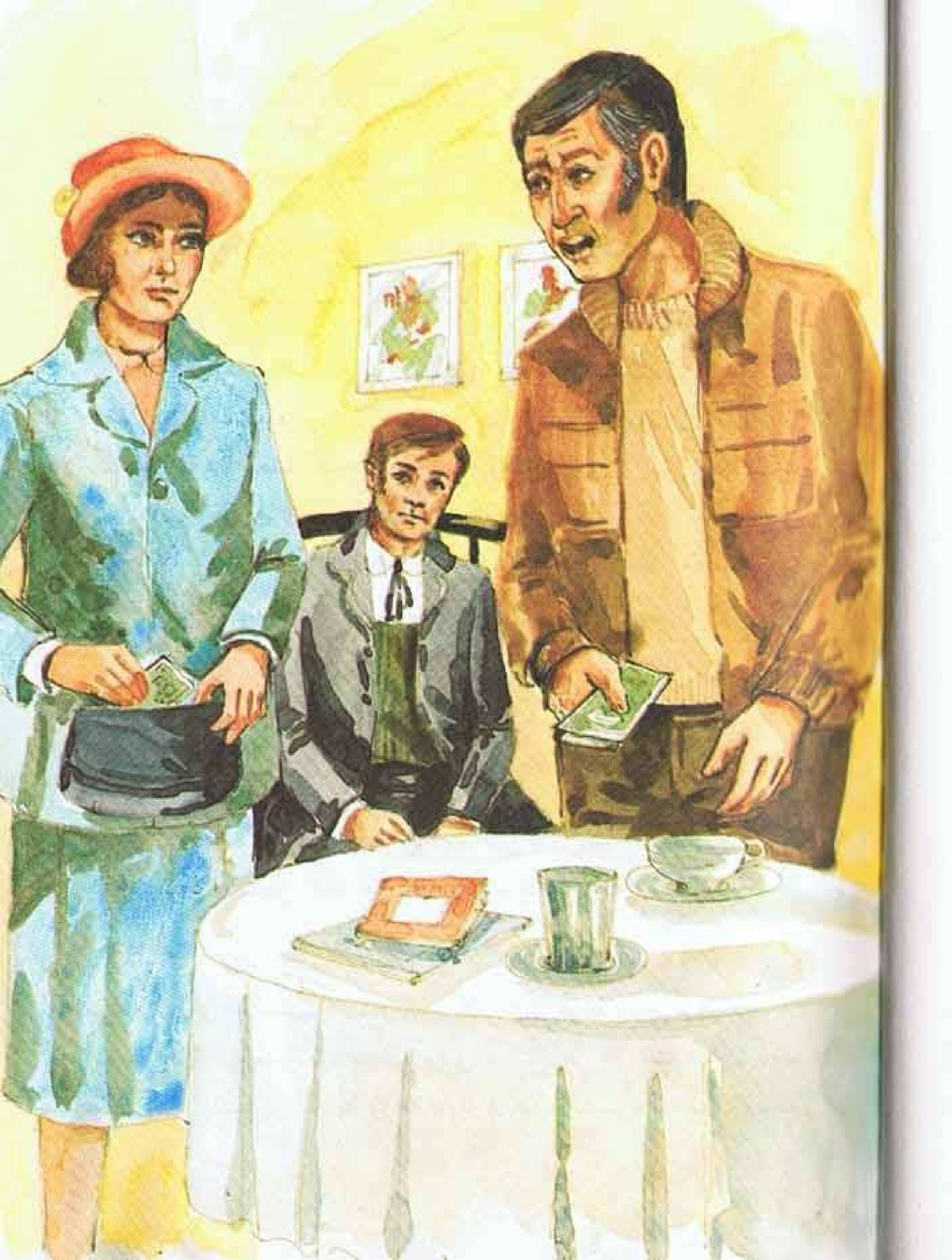
سَأَلَتْهُ : « وَكَيْفَ سَتُسافِرُ ؟ »

أَجابَها : سَأَسيرُ يا سَيِّدَتي . »

قالَتْ لويزا : « راشيل ! » ثُمَّ فَتَحَتْ حَقيبَةَ يَدِها ، وَأَخْرَجَتْ مِنْها أَرْبَعَةَ جُنَيْهاتٍ وَضَعَتْها عَلى ٱلْمِنْضَدَةِ قائِلَةً : « إِنَّكِ تَعْرِفينَهُ جَيِّدًا ، وَيُمْكِنُكِ أَنْ تُبَلِّغيهِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلنُّقودَ لَهُ دونَ أَنْ تَجْرَحي بِذٰلِكَ شُعورَهُ . هَلْ لَكِ أَنْ تَفْعَلي ذٰلِكَ ؟ »

قالَتْ راشيل : « لا أَسْتَطيعُ أَيَّتُها ٱلشّابَّةُ ! وَإِنَّهُ لَعَطْفٌ زائِدٌ مِنْكِ أَنْ تُفَكِّري بِأَمْرِ هٰذا ٱلْفَتى ٱلْمِسْكينِ ، وَلٰكِنْ ما مِنْ أَحَدٍ يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْكِ هٰذِهِ ٱلنُّقودَ إِلّا هُوَ شَخْصِيًّا . »

غَطّى ستيفن وَجْهَهُ بِراحَتَيْهِ لِلَحْظَةٍ قَصيرَةٍ ، ثُمَّ ٱبْتَسَمَ وَقالَ : « يا لَكُما مِنْ



سَيِّدَتَيْنِ عَطوفَتَيْنِ . إنَّ لِلرِّجالِ بَعْضًا مِنْ عِزَّةِ ٱلنَّفْسِ ، وَأَنا لَسْتُ غَبِيًّا ، وَلَسْتُ ناكِرًا لِلْجَميلِ ، وَلِهٰذا فَإِنَّني سَآخُذُ جُنَيْهَيْنِ يا سَيِّدَتي ، وَسَوْفَ أَرُدُّهُما لَكِ حالَما أَجِدُ عَمَلًا ، وَسَيَكونُ ذٰلِكَ عِنْدَئِذٍ أَطْيَبَ عَمَلٍ أُؤَدّيهِ . »

تَناوَلَ ستيفِن ٱلْجُنَيْهَيْنِ ، وَوَضَعَتْ لويزا ٱلْجُنَيْهَيْنِ ٱلآخَرَيْنِ في حَقيبَتِها ، أَمّا شَقيقُها ٱلَّذي كانَ يَجْلِسُ عَلى ٱلسَّريرِ طَوالَ ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ فَقَدْ نَهَضَ عِنْدَما وَجَدَ أُخْتَهُ توشِكُ أَنْ تَنْصَرِفَ ، وَقالَ لَها بِسُرْعَةٍ :

« إِنْتَظِري لَحْظَةً يا لو . هَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ ؟ لَقَدْ طَرَأَتْ لي فِكْرَةٌ . تَعالَ مَعي يا بلاكْبول خارِجَ ٱلْغُرْفَةِ لَحْظَةً . »

عِنْدَما تَحَرَّكَ ستيفِن نَحْوَ ٱلْمِصْباحِ قالَ لَهُ توم : « لا يا رَجُلُ . لَسْنا في حاجَةٍ إِلى ضَوْءٍ . »

تَبِعَ ستيفِن توم إِلى خارِجِ ٱلْغُرْفَةِ ، فَقالَ لَهُ توم هامِسًا : « إِنَّني أُريدُ أَنْ أُساعِدَكَ ، وَلا تَطْلُبْ مِنّي مَزيدًا مِنَ ٱلتَّفاصيلِ لِأَنَّها ما زالَتْ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ . وَلٰكِنِ ٱسْتَمِعْ لِما أَقولُهُ . إِنَّني أَعْمَلُ بِٱلْبَنْكِ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ بيتَرْ ٱلْحارِسَ بِطَبيعَةِ ٱلْحالِ . مَتى سَتُغادِرُ كوكْتاون ؟ »

أَجابَهُ ستيفِن : « إِنَّ ٱلْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ ٱلإِثْنَيْنِ ، وَسَأَرْحَلُ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمَ ٱلسَّبْتِ . »

قالَ توم : « حَسَنًا . سَأُحاوِلُ أَنْ أُساعِدَكَ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَنْتَظِرَ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ ٱلْبَنْكِ كُلَّ مَساءٍ حَتّى يَوْمِ سَفَرِكَ . وَسَوْفَ أُخْبِرُ أُخْتي بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَعْرِفُ أَنَّها سَتُوافِقُني . وَلٰكِنْ لا تَتَحَدَّثْ إِلى بيتَرْ ، فَإِذا ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ أَجْلِكَ

فسيتولى بيتزر إبلاغك رسالتي . هل فهمت ؟ »

أجابه ستيفن : « نعم يا سيدي . إن ذلك واضح تمام الوضوح . »

ثم فتح توم الباب ونادى أخته قائلا : « هيا يا لو ، فأنا مستعد للانصراف الآن . » واندفع يهبط السلم مسرعا ، وانتظر أخته في الشارع .

تحركت مشاعر السيدة بغلر لمشاهدتها تلك السيدة المحببة إلى النفس . وقام صديقاها ، ستيفن وراشيل ، باصطحابها إلى الفندق الذي تنزل به ، وبعد أن تمنيا لها ليلة سعيدة انصرفا وسارا معا حتى وصلا منزل راشيل . وهناك اتفقا على ألا يلتقيا مرة أخرى حتى يغادر ستيفن المدينة . ولكنهما تبادلا بعض كلمات المحبة والتشجيع . وبعد أن تواعدا على تبادل الخطابات ودع كل منهما الآخر .

استمر ستيفن في عمله أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وكان يقف كل مساء خلال هذه الأيام الثلاثة على مقربة من البنك ويجول حوله . وكان يرى بيتزر ، إلا أن الأخير لم يبادره بالحديث . وشاهد ستيفن السيدة التي كانت تعمل مديرة منزل لدى السيد باوندربي ، وكانت تطل من نافذتها التي فوق البنك .

وفي ليلة الخميس انتظر ستيفن طوال ساعتين ولكن شيئا لم يحدث ، سوى ما كان يشعر به ستيفن كلما نظر إليه الناس ، إذ كان يشعر وكأنه لص .

وقد قضى ستيفن تلك الليلة نائما على الأرض لأنه كان قد باع كل ما لديه من أثاث . وفي الخامسة من صباح اليوم التالي غادر غرفته ، وخرج إلى شوارع المدينة الخالية ، وبعد مسيرة ساعتين وصل قمة تل يطل على مشارف المدينة ، ووقف هناك وتطلع إلى المدينة ورآها غارقة في ضوء الشمس الساطع ، وسمع

الأجراس تدق إيذانا ببدء العمل ، وقد ارتفعت أعمدة الدخان الأسود في السماء . وشعر ستيفن عندئذ بأنه غلام صغير ، وبأن أصوات الطيور وشدوها تحمل إليه رسالة حب من راشيل .

الفَصْلُ ٱلخامِسَ عَشَرَ

كانَ ٱلسَّيِّدُ هارتْهاوْس يَمْتَلِكُ حِصانًا يَرْكَبُهُ عِنْدَ ذَهابِهِ إلى ٱلاِجْتِماعاتِ ، وَكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُسافِرَ أَحْيانًا إلى قُرًى تَبْعُدُ عِدَّةَ كيلومِتْراتٍ . وَلَمْ تَكُنْ أَعْمالُهُ في ٱلْمَدينَةِ تَسْتَغْرِقُ مِنْ وَقْتِهِ ٱلْكَثيرَ ، فَهُوَ يُلْقي ٱلْخُطَبَ وَٱلْمُحاضَراتِ . وَكانَ شَخْصًا مَحْبوبًا مِنَ ٱلْجَميعِ ، وَكانَ آلُ باونْدَرْبي أَفْضَلَ أَصْدِقائِهِ ، وَكانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ باونْدَرْبي أَفْضَلَهُمْ جَميعًا .

وَكانَتْ لويزا مُعْجَبَةً بِبَعْضِ أَفْكارِهِ ٱلَّتي تَدُلُّ عَلى عَدَمِ ٱلاِكْتِراثِ بِشَيْءٍ . وَكانَتْ تَتَذَكَّرُ قَوْلَهُ « إِنَّ ٱلْمُقَدَّرَ سَيَكونُ » ، فَهُوَ قَوْلٌ يَتَّفِقُ مَعَ شَيْءٍ في أَعْماقِها ، كَما أَنَّهُ يُذَكِّرُها بِأَنَّها قالَتْ يَوْمًا لِأَبيها إِنَّ زَواجَها لا يَعْني شَيْئًا لَها . وَكانَ ٱلسَّيِّدُ هارتْهاوْس بِدَوْرِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خاوٍ وَلا قيمَةَ لَهُ . وَلَمْ تَكُنْ لويزا تَرى جَديدًا في آرائِهِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ تُؤْمِنُ بِها ، وَلَمْ تَكُنْ آراؤُهُ ضارَّةً ، وَلٰكِنَّ لويزا كانَتْ تَجِدُ في حَديثِها إلى هارتْهاوْس مُتْعَةً .

وَلاحَظَ هارتْهاوْس تَغَيُّرًا طَفيفًا عَلى لويزا ، وَتَذَكَّرَ كُلَّ ما قالَهُ أَخوها عَنْها ، وَكانَ قَدْ بَدَأَ يَفْهَمُها وَيَفْهَمُ سُلوكَها بِبُطْءٍ . فَهُوَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْبُرَ أَغْوارَ عَقْلِها ، أَوْ يَصِلَ إلى أَعْماقِ تَفْكيرِها وَيَتَعَرَّفَ إلى دَقائِقِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ تَفْكيرُهُ ٱلضَّحْلُ لِيُتيحَ لَهُ ذٰلِكَ . وَلٰكِنْ كانَ كُلَّما وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْها قالَ في نَفْسِهِ :

« إِنَّ وَجْهَها يَزْدادُ جَمالًا وَتَأَلُّقًا خاصَّةً عِنْدَما يَقَعُ بَصَرُها عَلى ٱلْجَرْوِ . كَمْ أَوَدُّ أَنْ أَرى مِثْلَ هٰذا ٱلتَّغَيُّرِ عَلى مَلامِحِها عِنْدَما تَراني أَنا . »

وَكانَ ٱلسَّيِّدُ باونْدَرْبي قَدِ ٱشْتَرى بَيْتًا بِٱلرّيفِ ؛ إِذْ راقَتْ لَهُ فِكْرَةُ أَنْ يَكونَ لَهُ بَيْتٌ في ٱلْمَدينَةِ وَآخَرُ في ٱلرّيفِ . وَكانَ بَيْتًا كَبيرًا يَبْعُدُ عَنْ كوكْتاون مَسافَةَ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرينَ كيلومِتْرًا ، وَيَقَعُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ مَحَطَّةٍ صَغيرَةٍ لِلسِّكَكِ ٱلْحَديدِيَّةِ ، وَكانَتِ ٱلْقِطاراتُ تَسيرُ بِٱنْتِظامٍ مِنَ ٱلْمَدينَةِ وَإِلَيْها .

وَكانَ يُحيطُ بِٱلْبَيْتِ حَديقَةٌ خاصَّةٌ بِهِ ، تَمْلَأُها ٱلْأَشْجارُ ٱلَّتي تُلْقي بِظِلِّها عَلى ٱلْمَكانِ وَعَلى ٱلْعَديدِ مِنَ ٱلْمَقاعِدِ ٱلْمَوْجودَةِ . أَمّا ٱلطَّريقُ ٱلْمُمْتَدُّ إلى كوكْتاون فَقَدِ ٱمْتَلَأَ بِمَناجِمِ ٱلْفَحْمِ ٱلْقَديمَةِ ٱلْمَهْجورَةِ ٱلَّتي تَرَكَتْ آثارًا سَوْداءَ عَلى ٱلْأَرْضِ . وَكانَتِ ٱلْمَباني ٱلْمَوْجودَةُ بِٱلْمِنْطَقَةِ خالِيَةً بِدَوْرِها ، وَكادَتِ ٱلشُّجَيْراتُ ٱلنّامِيَةُ



حَوْلَها تَحْجُبُها عَنِ ٱلأَنْظارِ ، وَتَكاثَرَتْ أَيْضًا ٱلشُّجَيْراتُ وَٱلحَشائِشُ ، وَٱرْتَفَعَتْ حَوْلَ مَداخِلِ تِلْكَ ٱلمَناجِمِ ٱلقَديمَةِ . وَبِصورَةٍ عامَّةٍ كانَتِ ٱلمِنْطَقَةُ غَيْرَ آمِنَةٍ خاصَّةً أَثْناءَ ٱللَّيْلِ . وَلٰكِنَّ ٱلحُقولَ كانَتْ تَبْدو دائِمًا نَضِرَةً رائِعَةً بَعيدًا عَنْ أَعْمِدَةِ ٱلدُّخانِ ٱلَّتي تُرى مِنْ بَعيدٍ وَهِيَ تَرْتَفِعُ في سَماءِ كُوكْتاون .

أَحَبَّتْ لويزا هٰذا ٱلمَكانَ وَصارَتْ تَقْضي بِهِ مُعْظَمَ أَوْقاتِ ٱلصَّيْفِ ٱلحارِّ . وَكانَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي يَحْضُرُ إِلَيْها لَيْلًا ، وَيُقيمُ هُناكَ أَيّامَ ٱلآحادِ . وَعَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْكَبُ ٱلخَيْلَ عادَةً ؛ فَإِنَّهُ ٱحْتَفَظَ هُناكَ بِحَظيرَةٍ لِلْخَيْلِ تَضُمُّ ٱثْنَيْ عَشَرَ حِصانًا . وَقَدْ دُعِيَ ٱلسَّيِّدُ هارِتْهاوْس لِيُقيمَ هُناكَ ؛ إِذْ قالَ لَهُ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي :

« لا حاجَةَ بِكَ لِأَنْ تَسْتَأْجِرَ حَظيرَةً في كُوكْتاون ؛ إِذْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَحْتَفِظَ هُنا بِحِصانِكَ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تُقيمَ هُنا أَيْضًا إِنْ رَغِبْتَ في ذٰلِكَ . »

وَجاءَتْ أَيّامُ ٱلصَّيْفِ ٱلحارَّةُ ، وَكانَ مَنْظَرُ ٱلمَقاعِدِ وَسْطَ ٱلحَديقَةِ جَميلًا . وَوَجَدَ ٱلسَّيِّدُ هارِتْهاوْس في هٰذا ٱلمَكانِ ما يُناسِبُ مُحاوَلاتِهِ لِلنَّجاحِ في تَحْريكِ مَشاعِرِ لويزا ناحِيَتَهُ .

وَفي عَصْرِ أَحَدِ ٱلأَيّامِ جَلَسَ إِلى جِوارِها وَقالَ : « أَوَدُّ أَنْ أُحَدِّثَكِ بِشَأْنِ أَخيكِ صَديقي تُوم ٱلصَّغيرِ يا سَيِّدَةُ باوِنْدِرْبي . »

وَما إِنْ سَمِعَتْ لويزا ذٰلِكَ حَتّى تَوَرَّدَتْ وَجْنَتاها ، فَقالَ هارِتْهاوْس لِنَفْسِهِ : « كَمْ هِيَ جَميلَةٌ ! » ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ في حَديثِهِ قائِلًا : « عَفْوًا يا سَيِّدَةُ باوِنْدِرْبي ، وَلٰكِنَّ تِلْكَ ٱلنَّظْرَةَ ٱلَّتي أَراها في عَيْنَيْكِ مِنْ شَأْنِها أَنْ تَجْعَلَ تُوم يَشْعُرُ بِٱلفَخْرِ ، وَلا يَسَعُني إِلّا أَنْ أُعَبِّرَ عَنْ إِعْجابي بِما أَراهُ ... »

قاطَعَتْهُ لويزا قائِلَةً : « إِنّي في ٱنْتِظارِ ما تَوَدُّ أَنْ تَقولَهُ عَنْ تُوم . »

قالَ : « أَراكِ حازِمَةً مَعي ، وَهٰذا ما أَسْتَحِقُّهُ . فَأَنا أَعْرِفُ أَنَّني لا قيمَةَ لي ، وَإِنْ كُنْتُ في ٱلوَقْتِ نَفْسِهِ صادِقًا مَعَكِ وَلَسْتُ بِمُخادِعٍ ، كَما أَنَّني مُهْتَمٌّ بِأُمورِ أَخيكِ . »

قالَتْ : « هَلْ ثَمَّةَ شَيْءٌ تَهْتَمُّ بِهِ يا سَيِّدُ هارِتْهاوْس ؟ »

أَجابَها : « نَعَمْ ، إِنَّني أَهْتَمُّ بِتُوم . إِنَّكِ قَدْ فَعَلْتِ ٱلكَثيرَ مِنْ أَجْلِهِ ، بَلْ إِنَّكِ كَرَّسْتِ حَياتَكِ كُلَّها مِنْ أَجْلِهِ . »

تَمَلْمَلَتْ لويزا في جِلْسَتِها فَجْأَةً ، وَلٰكِنَّ هارِتْهاوْس واصَلَ حَديثَهُ بِسُرْعَةٍ قائِلًا : « عَفْوًا ، مَرَّةً أُخْرى ، وَلٰكِنّي أَهْتَمُّ بِهِ مِنْ أَجْلِهِ هُوَ . » ثُمَّ ٱبْتَسَمَ وَقالَ : « قَدْ لا يَبْدو في ٱلأَمْرِ شَيْءٌ ما لَمْ يَكُنِ ٱلشّابُّ ناكِرًا لِلْجَميلِ أَوْ عَلى قَدْرٍ مِنَ ٱلجَفاءِ ، أَوْ لَعَلَّهُ يُنْفِقُ ٱلكَثيرَ ، فَلا بَأْسَ مِنْ ذٰلِكَ . هَلْ لِتُوم مِثْلُ هٰذِهِ ٱلصِّفاتِ ؟ »

قالَتْ : « أَجَلْ . »

سَأَلَها : « هَلْ يُقامِرُ ؟ »

أَجابَتْهُ : « أَعْتَقِدُ ذٰلِكَ . » وَسَكَتَتْ هُنَيْهَةً ثُمَّ قالَتْ : « نَعَمْ ، أَعْرِفُ أَنَّهُ يُقامِرُ . »

سَأَلَها : « كَما أَنَّهُ يَخْسِرُ نُقودًا بِطَبيعَةِ ٱلحالِ . »

قالَتْ : « نَعَمْ . »

قالَ : « إنَّ كُلَّ مُقامِرٍ يَخسَرُ نُقودًا ، وَلٰكِنْ هَلْ لي أَنْ أَسْأَلَ : هَلْ تُمِدّينَهُ بِٱلنُّقودِ ٱلَّتي يُقامِرُ بِها ؟ إِنَّني أَعْرِفُ أَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ شَأْني ، وَلٰكِنَّني أَعْتَقِدُ أَنَّ تُوم رُبَّما يُعاني مِنْ بَعْضِ ٱلمَتاعِبِ ، وَأَوَدُّ أَنْ أُساعِدَهُ إِذا كانَ ذٰلِكَ ضَرورِيًّا ، وَهٰذا مِنْ أَجْلِهِ بِطَبيعَةِ ٱلحالِ . »

لَمْ تُعَلِّقْ لويزا بِشَيْءٍ ، وَٱسْتَمَرَّ هارتْهاوْس في حَديثِهِ قائِلًا :

« لَيْسَ لِتوم مَزايا كَثيرَةٌ ، فَوالِدُهُ ٱلمُوَقَّرُ ، بِما بَثَّ فيهِ مِنْ أَفْكارٍ لَمْ يُؤَهِّلْهُ تَأْهيلًا كافِيًا لِذٰلِكَ ؛ أَعْني لِمُواجَهَةِ ذٰلِكَ ٱلعالَمِ ٱلقاسي . كَما أَنَّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي رَغْمَ أَنَّهُ رَجُلٌ فاضِلٌ وَقَوِيٌّ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِٱلشَّخْصِ ٱلمُناسِبِ ٱلَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ شابٌّ طَلَبًا لِلْمُساعَدَةِ . »

قالَتْ لويزا وَهِيَ تُفَكِّرُ في نَفْسِها : « هٰذا صَحيحٌ . صَحيحٌ تَمامًا . »

قالَ هارتْهاوْس : « حَسَنًا ، إِنَّني إِذًا عَلى أَتَمِّ ٱلِاسْتِعْدادِ لِلْمُعاوَنَةِ ، كَما أَنَّ لي بَعْضَ ٱلخِبْرَةِ في مِثْلِ هٰذِهِ ٱلمُشْكِلاتِ ، فَإِذا قُلْتِ لِيَ ٱلحَقيقَةَ بِصَراحَةٍ ... »

قاطَعَتْهُ لويزا قائِلَةً : « اِفْهَمْني يا سَيِّدُ هارتْهاوْس . أَنا لا أَشْكو مِنْ شَيْءٍ ، كَما أَنَّني لا أَنْدَمُ عَلى ما فَعَلْتُهُ مِنْ أَجْلِهِ . »

قالَ هارتْهاوْس في نَفْسِهِ : « يا لَها مِنْ شُجاعَةٍ أَيْضًا ! »

واصَلَتْ لويزا حَديثَها قائِلَةً : « كانَ أَخي مَدينًا طَوالَ عامٍ أَوْ أَكْثَرَ ، لِذا بِعْتُ بَعْضَ جَواهِرِيَ ٱلَّتي لَمْ أَكُنْ بِحاجَةٍ إِلَيْها ... » ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عَنِ ٱلكَلامِ وَنَظَرَتْ إِلى ٱلسَّيِّدِ هارتْهاوْس . لَقَدْ باعَتْ بَعْضَ ٱلجَواهِرِ ٱلَّتي أَهْداها لَها زَوْجُها — تِلْكَ

حَقيقَةٌ يُدْرِكُها أَيُّ إِنْسانٍ مَهْما كانَ غَبِيًّا — وَلٰكِنَّ ٱلسَّيِّدَ هارتْهاوْس لَمْ يَكُنْ بِٱلشَّخْصِ ٱلغَبِيِّ .

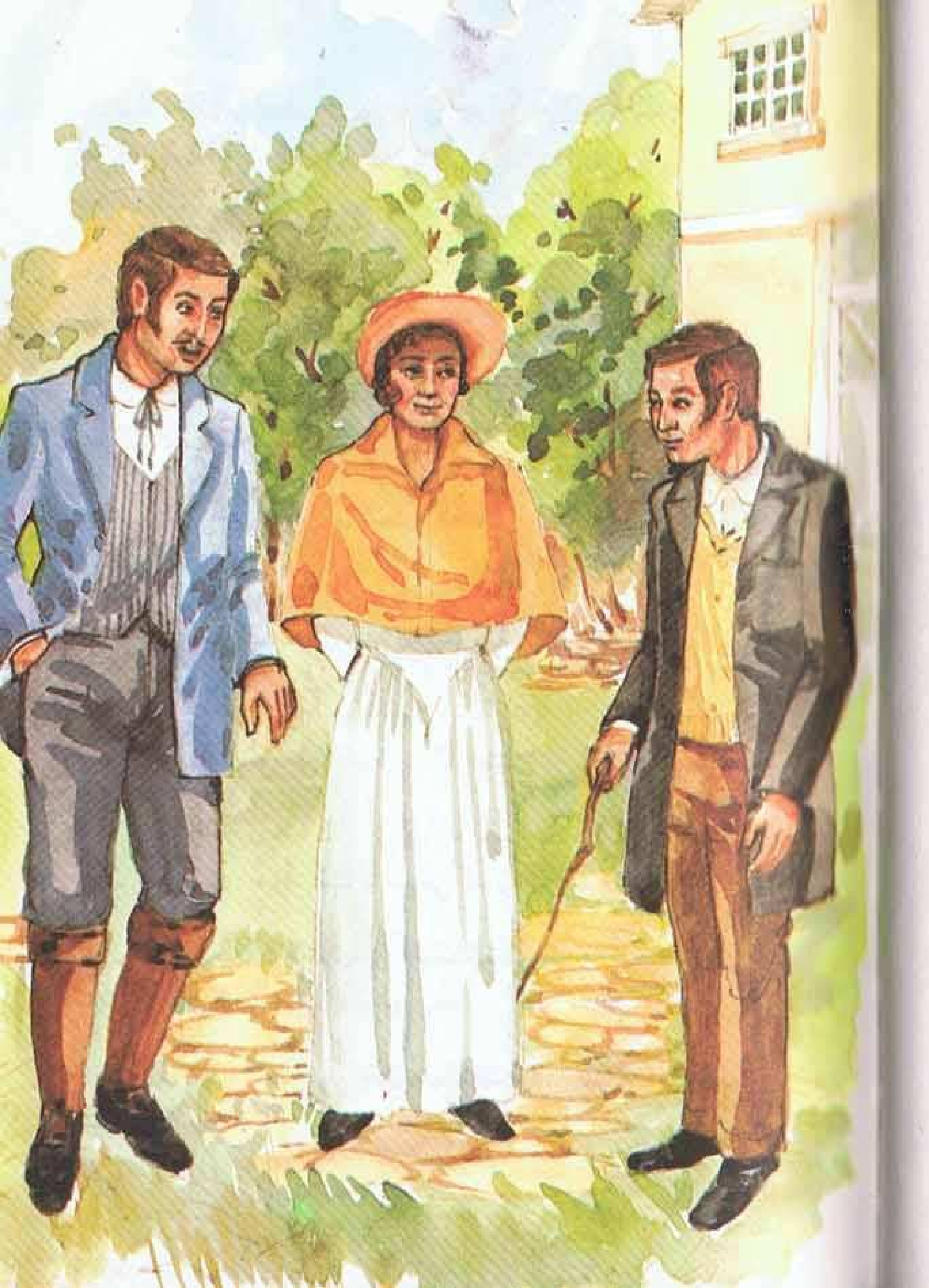
وَٱسْتَطْرَدَتْ لويزا قائِلَةً : « لَقَدْ أَعْطَيْتُهُ مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلتّاريخِ ، مَبْلَغًا كَبيرًا مِنَ ٱلنُّقودِ . وَمُنْذُ أُسْبوعَيْنِ طَلَبَ مِنّي مِئَةَ جُنَيْهٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعي ذٰلِكَ ٱلمَبْلَغُ ؛ وَلِهٰذا فَإِنَّني أَشْعُرُ بِٱلقَلَقِ مِنْ أَجْلِهِ يا سَيِّدُ هارتْهاوْس . لَمْ أَبُحْ بِهٰذِهِ ٱلأَسْرارِ لِأَحَدٍ سِواكَ . »

قالَ هارتْهاوْس بِهُدوءٍ : « لَمْ يَكُنْ تُوم حَكيمًا في تَصَرُّفاتِهِ ، وَلٰكِنْ مِنَ ٱلطَّبيعِيِّ أَنْ يَمُرَّ كُلُّ رَجُلٍ في حَياتِهِ بِفَتْرَةٍ مِنَ ٱلشَّطَطِ ، وَعَدَمِ ٱلتَّعَقُّلِ ؛ لِذا فَأَنا لا أَلومُهُ عَلى ذٰلِكَ ، وَإِنْ كُنْتُ أَجِدُهُ مُذْنِبًا لِسَبَبٍ آخَرَ . وَلَعَلَّهُ سَبَبٌ أَجِدُهُ أَكْثَرَ خُطورَةً وَأَهَمِّيَّةً ، وَهٰذا ما لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَغْفِرَهُ لَهُ . »

سَأَلَتْهُ : « لِماذا ؟ ماذا فَعَلَ ؟ أَرْجوكَ أَنْ تُخْبِرَني . »

أَجابَها : « لَقَدْ كُنْتِ أَمينَةً مَعي يا سَيِّدَةُ باوِنْدِرْبي ؛ لِذا سَأَكونُ أَمينًا مَعَكِ . إِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَغْفِرَ لِتوم مَسْلَكَهُ ٱلجافَّ مَعَكِ . كانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكونَ رَقيقًا مَعَكِ في كُلِّ كَلِمَةٍ يَقولُها ، وَفي كُلِّ نَظْرَةٍ مِنْ نَظَراتِهِ ، بَلْ وَفي كُلِّ عَمَلٍ يَقومُ بِهِ طَوالَ حَياتِهِ . فَأَنْتِ أَفْضَلُ أَصْدِقائِهِ ، كَما أَنَّ حُبَّكِ وَرِعايَتَكِ لَهُ يَفوقانِ ٱلوَصْفَ . فَماذا يُعْطيكِ مُقابِلَ ذٰلِكَ ؟ ماذا يُقَدِّمُ لَكِ ؟ لا شَيْءَ — عَلى ما أَعْتَقِدُ — سِوى كَلِماتِهِ ٱلجافَّةِ وَمَسْلَكِهِ ٱلقَبيحِ . »

خُيِّلَ لِلويزا في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَنَّ أَشْجارَ ٱلحَديقَةِ تَطْفو أَمامَ ناظِرَيْها ، وَٱمْتَلَأَتْ عَيْناها بِدُموعٍ كَأَنَّها جاءَتْ مِنْ بِئْرٍ عَميقَةٍ خَفِيَّةٍ في داخِلِها . وَلٰكِنَّ تِلْكَ ٱلدُّموعَ لَمْ تُخَفِّفْ عَنْها وَلَمْ تُرِحْها .



وَواصَلَ هارتْهاوْس حَديثَهُ قائِلًا : « أنا أيْضًا عَلى قَدْرٍ مِنَ الجَفاءِ يا سَيِّدَةُ باوندِرْبي . وَلَمْ أتَظاهَرْ يَوْمًا بِأنَّني شَخْصٌ فاضِلٌ يُقَدِّرُ الجَميلَ . وَلَعَلَّ في هٰذا ما يَجْعَلُني قادِرًا عَلى أنْ أتَبَيَّنَ الهُوَّةَ الَّتي تَرَدّى فيها تُوم ، تِلْكَ الهُوَّةَ الَّتي سَوْفَ أُحاوِلُ أنْ أُخْرِجَهُ مِنْها : سَأَجْعَلُهُ يَكُفُّ عَنِ المُقامَرَةِ . »

وَنَظَرَ السَّيِّدُ هارتْهاوْس نَحْوَ البَيْتِ فَلَمَحَ طَيْفَ شَخْصٍ هُناكَ ؛ فَأشارَ إلَيْهِ قائِلًا لِلويزا : « لا بُدَّ أنَّهُ أخوكِ ، فَهَيّا بِنا لِنُقابِلَهُ . »

ساعَدَها عَلى النُّهوضِ فَأمْسَكَتْ بِذِراعِهِ . وَعِنْدَما اقْتَرَبا مِنْ تُوم وَجَداهُ مُمْسِكًا بِعَصًا يَضْرِبُ بِها بَعْضَ الشُّجَيْراتِ ، وَما إنْ شاهَدَهُما حَتّى صاحَ : « أهْلًا بِكُما ! لَمْ أكُنْ أتَوَقَّعُ أنْ أجِدَكُما هُنا . »

فَقالَ هارتْهاوْس : « أظُنُّكَ كُنْتَ تَتَوَقَّعُ إحْدى فَتَياتِ كُوكْتاون ، وَخابَ رَجاؤُكَ لَمّا رَأيْتَنا . »

قالَ تُوم : « كَمْ أتَمَنّى أنْ تَقَعَ فَتاةٌ ثَرِيَّةٌ في حُبّي ، حَتّى وَإنْ كانَتْ تِلْكَ الفَتاةُ عَجوزًا أوْ قَبيحَةً فَإنَّني لَنْ أتْرُكَها أبَدًا . »

قالَ هارتْهاوْس : « إنَّكَ لا تَكُفُّ أبَدًا عَنِ التَّفْكيرِ في النُّقودِ يا تُوم . »

رَدَّ تُوم : « إنَّ هٰذا ما يَفْعَلُهُ كُلُّ إنْسانٍ ، حَتّى أُخْتي . أَلَيْسَ كَذٰلِكَ يا لُو ؟ »

أجابَتْهُ لويزا : « لَيْسَ دائِمًا يا تُوم . »

قالَ هارتْهاوْس : « يَبْدو أنَّ تُوم غَيْرُ سَعيدٍ اليَوْمَ ؛ وَلِهٰذا يَجِبُ ألّا نُزْعِجَهُ . »

قال توم : « إنني أعرف ما يدور بخلد أختي من أفكار ، يا سيد هارتهاوس ، كما أنها تعرف ذلك أيضا . »

قال هارتهاوس : « لا تصدقيه يا سيدة باوندربي . وإذا لم يكن أكثر أدبا فإنني سأبوح لك ببعض أفكاره نحوك . »

قال توم : « إنني أمتدحها عندما لا تبدي اكتراثا بالنقود ، وسأمتدحها كلما وجدت لذلك سببا مناسبا . ولكن هذا أمر لا يعنيك كثيرا يا سيد هارتهاوس ، كما أنني تعبت منه أيضا . »

مشى الثلاثة حتى وصلوا إلى البيت ، ودخلت لويزا ، ووضع هارتهاوس يده على كتف توم قائلا : « هيا بنا نسير قليلا يا توم ، فأنا أريد أن أتحدث إليك . »

وصلا إلى جدار منخفض في نهاية الحديقة فجلسا عليه ، ثم سأله هارتهاوس : « الآن أخبرني ما الأمر يا توم ؟ »

أجابه توم : « ليس معي نقود يا سيد هارتهاوس ، كما أنني واقع في مشكلة . »

قال هارتهاوس : « وأنا أيضا يا صديقي العزيز ليس معي نقود . »

قال توم : « ولكنك لا تعاني من أية مشكلة . وكان في إمكان شقيقتي أن تساعدني ، ولكنها لم تفعل . »

قال هارتهاوس : « إنك تتوقع الكثير منها . لقد أعطتك قدرا كبيرا من النقود ، وكم تريد الآن ؟ »

أجاب توم : « لقد فات الأوان يا سيد هارتهاوس . لا أريد شيئا الآن . كان في استطاعة لو أن تحصل لي على النقود من باوندربي العجوز . لقد تزوجته من أجلي . إلا أنها رفضت أن تطلب منه نقودا . إنها لو كانت لطيفة معه لأعطاها كل ما تطلبه ، ولكنها ليست لطيفة معه حتى لو كان ذلك من أجلي . »

كانت ثمة بركة ماء صغيرة في وسط الحديقة . وفجأة شعر هارتهاوس بالرغبة في أن يلقي بتوم الصغير في هذه البركة ، ولكنه تمالك مشاعره واحتفظ بهدوئه وقال : « حسنا يا توم سأقوم الآن بدور المصرفي بالنسبة لك . »

قال توم : « المصرفي ؟ ! أرجو ألا تحدثني عن هذا الموضوع . »

وتعجب هارتهاوس مما ظهر على وجه الجرو من مظاهر الإعياء المفاجئ .

فقال له : « عندما تقع في أية مشكلة يا توم ، أخبرني . أخبرني بكل شيء قبل فوات الأوان ، وقبل أن تزداد الأمور سوءا . وسأحاول أن أجد لك مخرجا سهلا . »

قال توم : « شكرا لك يا سيد هارتهاوس . إنك صديق مخلص . كم كنت أود لو أنني عرفتك من قبل . »

قال هارتهاوس : « ولكن يجب عليك أن تفعل شيئا من أجلي يا توم . عليك أن تكون أكثر رقة مع أختك ، وأظهر لها بكل وضوح أنك تحبها . »

أجابه : « سوف أفعل ذلك يا سيد هارتهاوس ، وسأبدأ ذلك على الفور هذا المساء . »

بِالفِعْلِ نَفَّذَ تُوم وَعْدَهُ ؛ إِذْ قالَ لِأُخْتِهِ في ٱللَّيْلَةِ ذاتِها وَقَبْلَ تَناوُلِ ٱلعَشاءِ : « أَرْجو أَنْ تَغْفِري لي يا لُو . أَنْتِ تَعْرِفينَ أَنَّني أُحِبُّكِ . وَما كُنْتُ أَوَدُّ قَطُّ أَنْ أَكونَ فَظًّا مَعَكِ . »

عَلَتِ ٱلابْتِسامَةُ ٱلجَميلَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ وَجْهَ لويزا كُلَّما رَأَتِ ٱلسَّيِّدَ هارتْهاوْس . وَكانَ يَقولُ في نَفْسِهِ : « هٰذا حَسَنٌ لِلْغايَةِ . إِنَّ ٱلمُقَدَّرَ سَيَكونُ . »

الفَصْلُ ٱلسّادِسَ عَشَرَ

لَمْ يَكُنْ هارتْهاوْس أَقَلَّ سَعادَةً صَبيحَةَ ٱليَوْمِ ٱلتّالي ، فَقَدْ كانَتِ ٱبْتِسامَةُ لويزا لَهُ تَسْطَعُ أَمامَ عَيْنَيْهِ في جَمالٍ وَرِقَّةٍ بالِغَيْنِ . وَبَدَتْ لَهُ عَيْناها ، كَما وَصَفَهُما لِنَفْسِهِ ، جَوْهَرَتَيْنِ بَرّاقَتَيْنِ . وَظَلَّ طَوالَ يَوْمِهِ يُكَرِّرُ ذٰلِكَ .

وَفي حَوالى ٱلسّادِسَةِ عادَ مِنْ أَحَدِ ٱلاجْتِماعاتِ . وَبَيْنَما كانَ يَقودُ حِصانَهُ إِلى ٱلإِسْطَبْلِ ظَهَرَ أَمامَهُ فَجْأَةً ٱلسَّيِّدُ باوندِربي ، وَصاحَ قائِلًا : « هَلْ بَلَغَكَ ٱلنَّبَأُ يا هارتْهاوْس ؟ »



رَدَّ هارتْهاوْس : « أَيُّ نَبَإٍ ؟ »

قالَ باوِنْدِرْبي : « لَقَدْ سَطا ٱللُّصوصُ عَلى ٱلبَنْكِ ٱلَّذي أَمْلِكُهُ . »

قالَ هارتْهاوْس : « لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ ذٰلِكَ صَحيحًا يا سَيِّدي ! »

قالَ باوِنْدِرْبي : « تِلْكَ هِيَ ٱلحَقيقَةُ . لَقَدْ سُرِقَ ٱلبَنْكُ أَثْناءَ ٱللَّيْلِ ، وَٱسْتَخْدَمَ ٱللُّصوصُ مِفْتاحًا مُصْطَنَعًا . »

سَأَلَهُ هارتْهاوْس : « كَمِ ٱلمَبْلَغُ ٱلمَسْروقُ ؟ »

أَجابَ باوِنْدِرْبي : « لَيْسَ هٰذا هُوَ ٱلمُهِمَّ يا رَجُل . لَمْ يُسْرَقِ ٱلكَثيرُ في ٱلواقِعِ ، وَلٰكِنَّهُ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يُسْرَقَ ما هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ . »

كَرَّرَ هارتْهاوْس سُؤالَهُ : « كَمِ ٱلمَبْلَغُ ٱلمَسْروقُ ؟ »

أَجابَ باوِنْدِرْبي : « لَمْ يُسْرَقْ أَكْثَرُ مِنْ مِئَةٍ وَخَمْسينَ جُنَيْهًا . وَلٰكِنَّ ٱلمَبْلَغَ لَيْسَ هُوَ ٱلمُهِمَّ ، إِنَّما ٱلمُهِمُّ هُوَ أَنَّ بَنْكي قَدْ سُرِقَ . »

أَيَّدَهُ هارتْهاوْس قائِلاً : « هٰذا صَحيحٌ بِطَبيعَةِ ٱلحالِ ، وَلٰكِنّي سَعيدٌ بِأَنَّ ٱللُّصوصَ لَمْ يَسْرِقوا ما هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ . »

قالَ باوِنْدِرْبي غاضِبًا : « شُكْرًا لَكَ . لَقَدْ كانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يَصِلَ ٱلمَبْلَغُ ٱلمَسْروقُ إِلى عِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ . لَوْ لَمْ يَحْدُثْ ما أَزْعَجَ ٱللِّصَّ وَقْتَ حُدوثِ ٱلسَّرِقَةِ ، فَأَنا يا سَيِّدي صاحِبُ ٱلبَنْكِ ٱلوَحيدِ في كُوكْتاون . »

وَصَلَتْ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ لويزا وَٱلسَّيِّدَةُ سبارْسيت وبيتْزر . وَٱسْتَأْنَفَ باوِنْدِرْبي

كَلامَهُ : « ها هِيَ ذي ٱبْنَةُ تُوم غرادْغرايند . لَقَدِ ٱنْهارَتْ وَسَقَطَتْ عَلى ٱلأَرْضِ ، عِنْدَما أَخْبَرْتُها بِما حَدَثَ . »

لاحَظَ ٱلسَّيِّدُ هارتْهاوْس ما بَدا عَلى وَجْهِ لويزا مِنْ شُحوبٍ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْها مادًّا ذِراعَهُ لَها . أَمّا باوِنْدِرْبي فَقَدْ أَمْسَكَ بِضيقٍ بِذِراعِ ٱلسَّيِّدَةِ سبارْسيت ، وَساروا جَميعًا مُتَّجِهينَ إِلى ٱلبَيْتِ .

سَأَلَ هارتْهاوْس باوِنْدِرْبي : « كَيْفَ حَدَثَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ ٱلفَظيعُ ؟ »

أَجابَهُ باوِنْدِرْبي : « هٰذا هُوَ ما كُنْتُ سَأُخْبِرُكَ بِهِ ، وَلٰكِنَّكَ لَمْ تَكُنْ مُهْتَمًّا إِلّا بِمَعْرِفَةِ مِقْدارِ ما سُرِقَ عَلى وَجْهِ ٱلتَّحْديدِ ! إِنَّ ما حَدَثَ هُوَ أَنَّنا أَغْلَقْنا ٱلبَنْكَ أَمْسِ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ كَعادَتِنا ، وَكانَ في غُرْفَةِ ٱلخِزانَةِ ٱلمُحَصَّنَةِ مَبْلَغٌ كَبيرٌ مِنَ ٱلمالِ . وَكانَ بِٱلخِزانَةِ ٱلصَّغيرَةِ ٱلَّتي بِمَكْتَبِ تُوم مَبْلَغُ مِئَةٍ وَخَمْسينَ جُنَيْهًا . »

تَدَخَّلَ بيتْزر مُصَحِّحًا : « بَلْ كانَ بِها مِئَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسونَ جُنَيْهًا وَسَبْعَةُ شِلِنات . »

وَكادَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي يَنْفَجِرُ غَيْظًا فَصاحَ قائِلًا : « لا تُقاطِعْني يا بيتْزر ! إِنَّني ما سُرِقْتُ إِلّا لِأَنَّكَ كُنْتَ تَنْعَمُ بِنَوْمِكَ . كانَ تُوم قَدْ أَغْلَقَ خِزانَتَهُ وَبِداخِلِها مِئَةٌ وَخَمْسونَ جُنَيْهًا ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ تَوَجَّهَ بيتْزر لِيَنامَ عَلى سَريرِهِ في مَوْقِعِهِ ٱلمُجاوِرِ لِغُرْفَةِ ٱلخِزانَةِ ٱلمُحَصَّنَةِ ، وَأَثْناءَ ٱللَّيْلِ تَمَكَّنَ لِصٌّ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ فَتْحِ ٱلخِزانَةِ ٱلصَّغيرَةِ ، وَسَرَقوا ما بِها مِنْ نُقودٍ . وَيَبْدو أَنَّ شَيْئًا ما قَدْ أَزْعَجَهُمْ أَثْناءَ ذٰلِكَ فَهَرَبوا مِنَ ٱلبابِ ٱلرَّئيسِيِّ ٱلَّذي كانَ لَدَيْهِمْ مِفْتاحٌ مُصْطَنَعٌ لَهُ ٱسْتَخْدَموهُ في إِغْلاقِهِ بَعْدَ خُروجِهِمْ مِنْهُ . وَقَدْ عُثِرَ صَباحَ ٱليَوْمِ عَلى هٰذا ٱلمِفْتاحِ في ٱلشّارِعِ . وَلٰكِنَّ بيتْزر لَمْ يُزْعِجْهُ شَيْءٌ ، وَٱسْتَمَرَّ في نَوْمِهِ حَتّى ٱلسّابِعَةِ صَباحًا عِنْدَما رَأى خِزانَةَ تُوم وَقَدْ فُتِحَ بابُها ،

وَكُسِرَ قُفْلُها ، وَسُرِقَتِ ٱلنُّقُودُ مِنْها . »

تَلَفَّتَ هارتْهاوْس حَوْلَهُ مُتَسائِلًا : « أَيْنَ تُوم ٱلآنَ ؟ »

أَجابَهُ باونْدِرْبي : « كانَ يُساعِدُ رِجالَ ٱلشُّرْطَةِ ، وَهُوَ ٱلآنَ يُنْجِزُ بَقِيَّةَ أَعْمالِهِ ٱلْيَوْمِيَّةِ بِٱلْبَنْكِ . »

عادَ هارتْهاوْس يَسْأَلُ : « هَلْ لَدى ٱلشُّرْطَةِ أَيَّةُ فِكْرَةٍ عَنْ هٰؤُلاءِ ٱللُّصوصِ ؟ »

اِنْفَجَرَ باونْدِرْبي صائِحًا : « بِطَبيعَةِ ٱلْحالِ يا سَيِّدي . إِنَّ جُوشْيا باونْدِرْبي إِذا ما سُرِقَ ، فَلا بُدَّ أَنْ تَكونَ لَدَيْهِمْ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْفِكْرَةِ ، إِلّا أَنَّها في طَيِّ ٱلْكِتْمانِ في ٱلْوَقْتِ ٱلْحاضِرِ ، وَلَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْها . إِنَّ ٱللِّصَّ واحِدٌ عَلى ٱلأَقَلِّ مِنَ ٱلْعُمّالِ . »

قالَ هارتْهاوْس بِتَكاسُلٍ : « آمُلُ أَلّا يَكونَ ذٰلِكَ ٱللِّصُّ هُوَ صَديقَنا بلاكْبُول . »

قالَ باونْدِرْبي : « إِنَّهُ هُوَ . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ حَذَّرْتُهُ عِنْدَما كانَ يُريدُ أَنْ يُنْهِيَ حَياتَهُ ٱلزَّوْجِيَّةَ . وَحَذَّرْتُهُ ٱلأُسْبوعَ ٱلْماضِيَ ... »

قالَتْ لويزا مُقاطِعَةً في صَوْتٍ خافِتٍ : « لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ بلاكْبُول هُوَ ٱللِّصَّ . »

صاحَ باونْدِرْبي قائِلًا : « إِنَّني أَعْرِفُ هٰؤُلاءِ ٱلنّاسَ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً ، وَقَدْ رَحَلَ بلاكْبُول عَنِ ٱلْمَدينَةِ إِلى حَيْثُ لا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَقَرَّهُ تَمامًا ، مِثْلَما فَعَلَتْ أُمّي عِنْدَما تَرَكَتْني وَأَنا طِفْلٌ صَغيرٌ . فَماذا فَعَلَ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ ؟ »

وَٱبْتَسَمَ باونْدِرْبي وَهُوَ يَقولُ لِهارتْهاوْس : « إِنَّ هٰذا سُؤالٌ تَعْرِفُ ٱلسَّيِّدَةُ

سبارْسِت ٱلإِجابَةَ عَنْهُ ، كَما يَعْرِفُ بِيتْزِر ذٰلِكَ أَيْضًا ، بَلْ وَيَعْرِفُها بَعْضُ جيرانِ ٱلْبَنْكِ . »

تَساءَلَ جيمس هارتْهاوْس : « ماذا فَعَلَ ؟ »

أَجابَ باونْدِرْبي : « لَقَدْ ظَلَّ يُراقِبُ ٱلْبَنْكَ لَيْلَةً تِلْوَ ٱلأُخْرى ، وَيَحُومُ حَوْلَ ٱلْمَكانِ يُراقِبُ وَيَنْتَظِرُ . »

قالَ هارتْهاوْس مُؤَيِّدًا : « هٰذا دَليلٌ واضِحٌ وَكافٍ . »

اِسْتَمَرَّ باونْدِرْبي في حَديثِهِ قائِلًا : « وَلٰكِنَّ بلاكْبُول لَيْسَ وَحْدَهُ ، فَهُناكَ أَيْضًا ٱمْرَأَةٌ عَجوزٌ رَآها ٱلنّاسُ تُراقِبُ مَنْزِلي وَتُراقِبُ ٱلْبَنْكَ ، وَكانَتْ تَقِفُ خارِجَ ٱلْمَنْزِلِ عِنْدَما ٱلْتَقَيْنا بِبلاكْبُول ٱلأُسْبوعَ ٱلْماضِيَ ثُمَّ ٱنْصَرَفا مَعًا . »

تَذَكَّرَتْ لويزا تِلْكَ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْعَجوزَ ٱلَّتي رَأَتْها في غُرْفَةِ بلاكْبُول ، وَلٰكِنَّ باونْدِرْبي أَضافَ : « يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَلْزَمَ ٱلْهُدوءَ لِبَعْضِ ٱلْوَقْتِ ، وَلٰكِنَّنا سَوْفَ نَقْبِضُ عَلَيْهِما . فَلَنْ يَسْتَطيعا أَنْ يَفِرّا مِنْ جُوشْيا باونْدِرْبي . »

قالَ هارتْهاوْس : « يَجِبُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِما ٱلْقانونُ أَقْسى عُقوبَةٍ . إِنَّ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ يَسْطُونَ عَلى ٱلْبُنوكِ يَسْتَحِقّونَ أَقْسى عِقابٍ . »

اِلْتَفَتَ باونْدِرْبي إِلى زَوْجَتِهِ قائِلًا : « إِنَّ ذٰلِكَ ٱلْمَوْضوعَ يا لو قَدْ أَصابَ ٱلسَّيِّدَةَ سبارْسِت بِٱلإِعْياءِ ، فَٱعْمَلي عَلى تَوْفيرِ أَسْبابِ ٱلرّاحَةِ لَها هُنا ، فَسَوْفَ تَقْضي مَعَنا عِدَّةَ أَيّامٍ . »

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « أَشْكُرُكَ كَثيرًا يا سَيِّدي ، وَلٰكِنْ لا حاجَةَ بِكَ لِأَنْ

تُزْعِجَ نَفْسَكَ بِشَأْنِ راحَتي ، فَأَقَلُّ ٱلقَليلِ يَكْفيني . »

بِهٰذا ٱتَّخَذَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت مِنْ مَنْزِلِ أُسْرَةِ باوِنْدِرْبي مُقامًا لَها . وَأَسْعَدَها أَنْ تُعاوِدَ إِبْداءَ مَشاعِرِ ٱلشَّفَقَةِ نَحْوَهُ ، وَكَذٰلِكَ لَعِبَ ٱلوَرَقِ مَعَهُ . وَصارَتْ تُعِدُّ لَهُ شَرابَهُ ٱلمُفَضَّلَ ٱلسّاخِنَ كُلَّ لَيْلَةٍ . كانَتْ تَرْعاهُ في ٱلحَقيقَةِ ، كَأَنَّها أُمُّهُ . وَلَمْ تُعِرْ لويزا تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةَ أَيَّ ٱهْتِمامٍ .

وَفي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ عادَ توم إِلى ٱلبَيْتِ مُتَأَخِّرًا ، وَكانَ كُلُّ مَنْ في ٱلبَيْتِ قَدْ أَوى إِلى فِراشِهِ ماعدا لويزا ٱلَّتي سَمِعَتْ وَقْعَ خُطُواتِهِ وَهُوَ يَصْعَدُ ٱلدَّرَجَ إِلى ٱلطّابَقِ ٱلعُلْوِيِّ ، فَلَحِقَتْ بِهِ في غُرْفَتِهِ بَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ . وَوَجَدَتْهُ قَدْ تَظاهَرَ بِٱلنَّوْمِ ، إِلّا أَنَّها أَحاطَتْهُ بِذِراعَيْها ، فَتَظاهَرَ بِأَنَّهُ ٱسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَقولُ : « ما هٰذا ؟ مَنْ هُناكَ ؟ ماذا حَدَثَ ؟ »

سَأَلَتْهُ لويزا : « هَلْ تَوَدُّ أَنْ تَقولَ لي شَيْئًا يا عَزيزي توم ؟ »

سَأَلَها بِدَوْرِهِ : « ماذا تَعْنينَ بِهٰذا يا لُو ؟ هَلْ كُنْتِ تَحْلُمينَ ؟ »

قالَتْ : « لا تُخْفِ شَيْئًا عَنّي يا عَزيزي توم ؛ فَمَهْما قُلْتَ فَلَنْ يُغَيِّرَ ذٰلِكَ مِنْ حُبّي لَكَ ، وَلٰكِنْ قُلْ لِيَ ٱلحَقيقَةَ . »

سَأَلَها : « ماذا تُريدينَ أَنْ تَعْرِفي ؟ »

اِحْتَضَنَتْهُ بِقُوَّةٍ قائِلَةً : « لَنْ أَلومَكَ أَبَدًا عَلى شَيْءٍ يا توم . وَسَوْفَ أُنْقِذُكَ مَهْما كانَ ٱلثَّمَنُ . هَلْ لَدَيْكَ ما تَوَدُّ أَنْ تَقولَهُ لي ؟ قُلْ نَعَمْ ، وَسَأَفْهَمُ أَنا كُلَّ شَيْءٍ . »

قالَ : « أَنا لا أَعْرِفُ ماذا تَقْصِدينَ يا لُو . أَنْتِ فَتاةٌ عَطوفٌ وَشُجاعَةٌ ،

وَلا شَكَّ أَنَّكِ تَسْتَحِقّينَ أَنْ يَكونَ لَكِ أَخٌ أَفْضَلُ مِنّي ، وَلٰكِنْ عودي إِلى فِراشِكِ ٱلآنَ ... عودي إِلى فِراشِكِ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تَكَشَّفَ شَيْءٌ جَديدٌ لِلشُّرْطَةِ ؟ »

أَجابَها : « لا ، لَيْسَ أَكْثَرَ مِمّا ذَكَرَهُ باوِنْدِرْبي ٱلعَجوزُ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ أَخْبَرْتَ أَحَدًا عَنْ زِيارَتِنا لِبلاكْبول في مَسْكَنِهِ ؟ »

أَجابَ : « لا ، فَإِنَّكِ رَغِبْتِ أَنْ يَظَلَّ ذٰلِكَ سِرًّا . »

قالَتْ : « نَعَمْ ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ عِنْدَئِذٍ أَنَّ هُناكَ مَنْ سَيَسْطو عَلى ٱلبَنْكِ . »

قالَ بِسُرْعَةٍ : « وَلا أَنا ، فَمِنْ أَيْنَ لي أَنْ أَعْرِفَ ؟ »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تَرى أَنَّهُ مِنْ واجِبِنا أَنْ نُبْلِغَ أَحَدًا بِأَمْرِ تِلْكَ ٱلزِّيارَةِ ؟ »

أَجابَها : « لا تَسْأَليني ٱلنَّصيحَةَ يا لُو . اِفْعَلي ما يَحْلو لَكِ ، فَقَدْ كانَتْ تِلْكَ ٱلزِّيارَةُ مِنْ بَناتِ أَفْكارِكِ . »

هَبَّتْ لويزا واقِفَةً وَهِيَ تَسْأَلُ : « هَلْ تَعْتَقِدُ يا توم أَنَّ بلاكْبول سَطا عَلى ٱلبَنْكِ ؟ »

أَجابَها : « لا أَعْرِفُ ، وَلَعَلَّهُ قَدْ فَعَلَ ذٰلِكَ . »

قالَتْ لويزا : « لَقَدْ كانَ يَبْدو لي شَخْصًا أَمينًا . »

قالَ : « لَقَدْ أَسْعَدَهُ أَنْ يَأْخُذَ نُقودًا . وَقَدْ تَحَدَّثْتُ إِلَيْهِ خارِجَ ٱلغُرْفَةِ ، وَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُ مِنْ حُسْنِ طالِعِهِ أَنْ يَحْصُلَ عَلى ٱلجُنَيْهَيْنِ ، وَهٰذا كُلُّ ما أَعْرِفُهُ . وَلَعَلَّهُ إِنْسانٌ صالِحٌ . »

سَأَلَتْهُ : « أَلا تَوَدُّ أَنْ تَقولَ لِي ٱلمَزيدَ يا تُوم ؟ »

أَجابَ : « لا شَيْءَ لَدَيَّ لِأَقولَهُ . أَ تُريدينَني أَنْ أَكْذِبَ ؟ »

قالَتْ : « لا ، أَنا لا أُريدُ ذٰلِكَ . »

قالَ : « حَسَنًا ! عودي إِذًا إِلى فِراشِكِ ، فَإِنَّني مُتْعَبٌ . تُصْبِحينَ عَلى خَيْرٍ يا لُو . »

وَما إِنِ ٱنْصَرَفَتْ حَتّى هَبَّ تُوم مِنْ فِراشِهِ بِهُدوءٍ وَأَغْلَقَ بابَ ٱلغُرْفَةِ ، ثُمَّ أَلْقى بِنَفْسِهِ عَلى ٱلسَّريرِ وَٱنْخَرَطَ فِي ٱلبُكاءِ .

الفَصْلُ ٱلسّابِعَ عَشَرَ

سُرْعانَ ما ٱحْتَلَّتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت مَكانَ لويزا في مَنْزِلِ أُسْرَةِ باوِنْدِرْبي ٱلرِّيفِيِّ . وَلَمْ تَجِدْ لويزا في ذٰلِكَ ما يُقْلِقُها ، وَكانَتْ تَقولُ لِلسَّيِّدَةِ سبارْسِت : « ٱلمُهِمُّ أَنَّكِ تَجِدينَ في رِعايَتِكِ لِلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي مُتْعَةً . »

كانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت تَرْعى شُؤونَ سَيِّدِها رِعايَةً طَيِّبَةً ، فَكانَتْ تُقَدِّمُ لَهُ ٱلطَّعامَ ، وَتُنَظِّفُ مَلابِسَهُ . وَكانَتْ تُناوِلُهُ قُبَّعَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ ، وَتُقَبِّلُ يَدَهُ هامِسَةً : « يا لَكَ مِنْ رَجُلٍ عَطوفٍ ... عَطوفٍ جِدًّا ! » وَما إِنْ يُديرُ ظَهْرَهُ لَها حَتّى تُلَوِّحَ بِقَبْضَتِها فِي ٱلهَواءِ قائِلَةً لِنَفْسِها : « أَيُّها ٱلمُهَرِّجُ إِنَّكَ لا تَسْتَحِقُّ إِلّا هٰذِهِ ٱلزَّوْجَةَ ، وَيُسْعِدُني أَنْ أَراكَ زَوْجًا لَها . »

اِزْدادَ ٱلتَّقارُبُ بَيْنَ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي وَبَيْنَ مُديرَةِ مَنْزِلِهِ ؛ وَنَتيجَةً لِذٰلِكَ ... اِزْدادَ ٱلتَّقارُبُ بَيْنَ لويزا وَٱلسَّيِّدِ هارْتْهاوْس .

وَفي ٱلعاشِرَةِ مِنْ صَباحِ أَحَدِ ٱلأَيّامِ قَدِمَ بيتْزَر مِنْ كُوكْتاون حامِلًا رِسالَةً تُفيدُ بِأَنَّ ٱلسَّيِّدَةَ غرادْغرائِند تُحْتَضَرُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ كانَ عَلى لويزا أَنْ تَتَوَجَّهَ إِلى سْتُون لُودْج عَلى ٱلفَوْرِ .

كانَتْ لويزا قَدْ زارَتْ بَيْتَها ٱلقَديمَ مَرَّتَيْنِ مُنْذُ زَواجِها ، فَقَدْ كانَ والِدُها في لَنْدَن في مُعْظَمِ ٱلأَوْقاتِ . وَلَمْ تَكُنِ ٱلزِّياراتُ تُريحُ ٱلسَّيِّدَةَ غرادْغرائِند . وَعِنْدَما

حضَرَتْ لويزا وَجَدَتِ ٱلبيتَ مُختلِفًا كثيرًا عمّا عهِدَتْهُ فيهِ ، فحرَّكَ فيها هٰذا ٱلتَّغييرُ ٱلإحساسَ بِٱلغَيْرَةِ . فقَدْ وَجَدَتْ بِٱلبيتِ مِنَ ٱلحُبِّ أكثَرَ مِمّا عرَفَتْ طوالَ حياتِها . وكانَ ٱلفضْلُ في ذٰلِكَ يَرْجِعُ إلى سِيسي جوب بِكلِماتِها ٱلحُلْوَةِ وَنظَراتِها ٱلرَّقيقَةِ ٱلَّتي غيَّرَتِ ٱلكثيرَ في سْتُون لُودج .

لَمْ تَكُنْ لويزا قَدْ بادَلَتْ سِيسي ٱلحَديثَ مُنْذُ زَواجِها ، وَلٰكِنَّ سِيسي ٱسْتَطاعَتْ أَنْ تَحْظى بِحُبِّ ٱلسَّيِّدَةِ غرادْغرايْند ، وَحُبِّ أَبْنائِها ٱلصِّغارِ ٱلَّذينَ أَحَبّوها حُبًّا جَمًّا ، فَقَدْ بَلَغَتْ جين غرادْغرايْند ٱلعاشِرَةَ أَوِ ٱلثّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها ، وَكانَ وَجْهُها يُماثِلُ وَجْهَ سِيسي في ٱلجَمالِ ، وَمَسْلَكُها يُشْبِهُ مَسْلَكَ سِيسي في ٱلرِّقَّةِ وَٱلعُذوبَةِ .

وَكانَ لَدى ٱلسَّيِّدَةِ غرادْغرايْند رِسالَةٌ تَوَدُّ أَنْ تُسَلِّمَها إلى زَوْجِها عِنْدَما يَعودُ إلى ٱلمَنْزِلِ ، فَطَلَبَتْ إلى لويزا أَنْ تَتَوَلّى ذٰلِكَ ، وَكانَ صَوْتُها ضَعيفًا جِدًّا عِنْدَما تَحَدَّثَتْ إلى ٱبْنَتِها .

قالَتْ : « لَقَدْ تَعَلَّمْتِ ٱلكَثيرَ يا لويزا ، كَما تَعَلَّمَ أَخوكِ ٱلكَثيرَ أَيْضًا . وَلٰكِنَّ هُناكَ شَيْئًا نَسِيَ والِدُكِ — أَوْ فاتَهُ — أَنْ يُعَلِّمَهُ لَكِ ، وَهٰذا شَغَلَ تَفْكيري كَثيرًا . »

وَٱزْدادَ صَوْتُها ضَعْفًا وَهِيَ تَقولُ : « لَقَدْ كانَ ذٰلِكَ يَشْغَلُ تَفْكيري عِنْدَما أَجِدُ سِيسي إلى جِواري وَلٰكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَذَكَّرَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ، وَقَدْ يَسْتَطيعُ والِدُكِ أَنْ يَتَذَكَّرَهُ ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ ذٰلِكَ إرْضاءً لِلّٰهِ . »

وَماتَتِ ٱلكَلِماتُ عَلى شَفَتَيْها . وَكانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِماتِ ٱلسَّيِّدَةِ غرادْغرايْند قَبْلَ أَنْ تَلْفِظَ أَنْفاسَها ٱلأَخيرَةَ ، في عَصْرِ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ وَقَبْلَ أَنْ يَعودَ زَوْجُها إلى مَنْزِلِهِ .

أَقامَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت مَعَ عائِلَةِ باوِنْدِرْبي بِضْعَةَ أَسابيعَ . وَكانَتْ طَوالَ فَتْرَةِ إقامَتِها تَتَخَيَّلُ وُجودَ سُلَّمٍ هائِلٍ يَنْتَهي إلى قاعِ هُوَّةٍ سَوْداءَ يَقْبَعُ فيها ٱلسَّيِّدُ هارْتْهاوْس مُنْتَظِرًا لويزا ، ٱلَّتي تَهْبِطُ هٰذا ٱلسُّلَّمَ مُنْحَدِرَةً نَحْوَ هُوَّةِ ٱلعارِ تِلْكَ .

وَفي إحْدى أَماسِيِّ ٱلصَّيْفِ ٱلدّافِئَةِ كانَتْ لويزا تَجْلِسُ إلى جِوارِ ٱلسَّيِّدِ هارْتْهاوْس في ٱلحَديقَةِ يُناقِشانِ مَوْضوعَ بلاكْبول ٱلَّذي كانَتِ ٱلشُّرْطَةُ تَبْحَثُ عَنْهُ . وَكانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت تُراقِبُهُما مِنْ نافِذَةِ غُرْفَتِها ، وَقَدِ ٱسْتَرْعى ٱنْتِباهَها أَنَّ وَجْهَ هارْتْهاوْس كادَ يُلامِسُ شَعْرَ لويزا ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَسْمَعَ حَديثَهُما .

سَأَلَتْ لويزا ٱلسَّيِّدَ هارْتْهاوْس : « ما رَأْيُكَ في بلاكْبول يا سَيِّدَ هارْتْهاوْس ؟ »

أَجابَها : « لَقَدْ تَكَلَّمَ كَثيرًا ، بَلْ لَعَلَّهُ أَفْرَطَ في ٱلكَلامِ . »

قالَتْ لويزا : « لَقَدْ تَرَكَ عِنْدي ٱنْطِباعًا بِأَنَّهُ إنْسانٌ شَريفٌ ، وَإنْ كُنْتُ لا أَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ ٱلرِّجالِ أَوِ ٱلنِّساءِ . »

قالَ هارْتْهاوْس : « يا عَزيزَتي لويزا ... » وَكانَ قَدْ بَدَأَ يُناديها بِذٰلِكَ ٱلإسْمِ « لَقَدْ كانَ بلاكْبول يَبْدو غاضِبًا جِدًّا ، كَما أَنَّهُ أَلْقى بِٱللَّوْمِ عَلى باوِنْدِرْبي لِما تُعانيهِ كوكْتاون مِنْ مَتاعِبَ . وَلَعَلَّهُ فَكَّرَ آنَذاكَ في بَنْكِ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي ، وَسَطا عَلَيْهِ كَوَسيلَةٍ سَهْلَةٍ لِلْحُصولِ عَلى ٱلمالِ . »

ظَلَّتْ لويزا صامِتَةً بَعْضَ ٱلوَقْتِ ، ثُمَّ قالَتْ : « إنَّني ما زِلْتُ أَذْكُرُ وَجْهَ بلاكْبول وَمَسْلَكَهُ ، وَلِذا فَإنَّني لا أُوافِقُكَ ٱلرَّأْيَ ، وَلٰكِنْ إذا وافَقْتُكَ فَإنَّ مُوافَقَتي مِنْ شَأْنِها أَنْ تُخَفِّفَ ٱلعِبْءَ عَنْ قَلْبي . »

قالَ : « إنَّ تُوم ٱلصَّغيرَ يُوافِقُني ٱلرَّأْيَ . هَيّا بِنا نَسيرُ قَليلًا . »

وَسارا في ٱلحَديقَةِ مَعًا ، وَقَدْ أَمْسَكَتْ لويزا بِذِراعِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ عِنْدَئِذٍ أَنَّها تَهْبِطُ وَتَهْبِطُ سُلَّمَ ٱلسَّيِّدَةِ سبارْسِت ، ٱلَّتي كانَتْ تُراقِبُ وَتَنْتَظِرُ وَتَأْمُلُ أَنْ تَرى لويزا وَقَدْ تَرَدَّتْ في تِلْكَ ٱلْهُوَّةِ .

عادَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت مَرَّةً أُخْرى إِلى شَقَّتِها ٱلكائِنَةِ فَوْقَ ٱلبَنْكِ ، وَلٰكِنَّها حَرَصَتْ دائِمًا عَلى أَنْ تَقْضِيَ بِٱنْتِظامٍ عُطْلَةَ نِهايَةِ ٱلأُسْبوعِ في ٱلبَيْتِ ٱلرّيفِيِّ . وَبَعْدَ مُرورِ أُسْبوعَيْنِ كانَ عَلى ٱلسَّيِّدِ باوندَرْبي أَنْ يَذْهَبَ إِلى ٱلمَدينَةِ في أَمْرٍ مِنْ أُمورِ عَمَلِهِ ، فَطَلَبَ مِنَ ٱلسَّيِّدَةِ سبارْسِت أَنْ تَحْرِصَ عَلى قَضاءِ عُطْلَةِ نِهايَةِ ٱلأُسْبوعِ في بَيْتِهِ ٱلرّيفِيِّ كَعادَتِها . فَشَكَرَتْهُ عَلى تِلْكَ ٱلدَّعْوَةِ ، لٰكِنَّها لَمْ تَذْكُرْ لَهُ شَيْئًا عَنْ ذٰلِكَ ٱلسُّلَّمِ ٱلهائِلِ ٱلَّذي خَلَقَتْهُ بِخَيالِها .

غادَرَ باوندَرْبي كوكْتاون صَباحَ يَوْمِ ٱلجُمُعَةِ ، فَدَعَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت — عَصْرَ ٱليَوْمِ نَفْسِهِ — توم ٱلصَّغيرَ لِيَتَناوَلَ مَعَها ٱلشّايَ . وَفي تَمامِ ٱلرّابِعَةِ ، وَبَعْدَ أَنِ ٱنْصَرَفَ مُوَظَّفو ٱلبَنْكِ ، أَغْلَقَ توم خِزانَتَهُ ، وَأَسْرَعَ إِلى ٱلطّابَقِ ٱلعُلْوِيِّ حَيْثُ تُقيمُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت .

سَأَلَتْهُ « لَقَدْ فَكَّرْتُ أَنَّكَ رُبَّما تُحِبُّ أَنْ تَسْتَمْتِعَ بِوَجْبَةٍ صَغيرَةٍ يا سَيِّدُ توم . أَخْبِرْني . كَيْفَ حالُ ٱلسَّيِّدِ هارْتهاوْس ؟ »

أَجابَها وَهُوَ يَأْكُلُ بِنَهَمٍ : « في أَحْسَنِ حالٍ عَلى ما أَظُنُّ . لَقَدْ كانَ غائِبًا طَوالَ ٱلأَيّامِ ٱلقَليلَةِ ٱلماضِيَةِ . »

قالَتْ : « إِنَّني مُعْجَبَةٌ بِهِ . هَلْ سَيَعودُ قَريبًا ؟ »

أَجابَها : « سَيَعودُ مَساءَ ٱلغَدِ ، وَسَوْفَ أَلْقاهُ في مَحَطَّةِ ٱلقِطارِ لِنَتَوَجَّهَ مَعًا إِلى

ٱلمَدينَةِ لِيَتَناوَلَ ٱلعَشاءَ . وَلَنْ يَقْضِيَ عُطْلَةَ نِهايَةِ ٱلأُسْبوعِ في ٱلبَيْتِ . »

قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت : « يَجِبُ عَلَيَّ ، لِسوءِ ٱلحَظِّ ، أَنْ أَقْضِيَ عُطْلَةَ نِهايَةِ ٱلأُسْبوعِ هُنا . فَهَلْ لَكَ أَنْ تُبَلِّغَ أُخْتَكَ ٱلرَّقيقَةَ ٱعْتِذاري . »

أَجابَها : « هٰذا إِنْ لَمْ أَنْسَ يا سَيِّدَةُ سبارْسِت ، وَلٰكِنْ لَيْسَ في هٰذا ما يُهِمُّ ؛ فَإِنَّكِ لَنْ تَخْطُري بِبالِ لو إِلّا عِنْدَما تَراكِ . »

بِهٰذِهِ ٱلكَلِماتِ ٱلرَّقيقَةِ عَبَّرَ ٱلجَرْوُ عَنْ شُكْرِهِ لِلسَّيِّدَةِ سبارْسِت عَلى دَعْوَتِها لَهُ لِتَناوُلِ ٱلشّايِ !

وَفي مَساءِ يَوْمِ ٱلسَّبْتِ وَضَعَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت قُبَّعَتَها عَلى رَأْسِها ، وَٱتَّشَحَتْ بِشالِها وَٱنْصَرَفَتْ مُسْرِعَةً إِلى مَحَطَّةِ ٱلقِطارِ . وَهُناكَ رَفَعَتِ ٱلشّالَ فَوْقَ قُبَّعَتِها عِنْدَما رَأَتْ توم ٱلَّذي لَمْ يَتَعَرَّفْ إِلَيْها . وَوَصَلَ ٱلقِطارُ إِلى ٱلمَحَطَّةِ وَأَعْقَبَهُ آخَرُ ، إِلّا أَنَّ ٱلسَّيِّدَ هارْتهاوْس لَمْ يَصِلْ . وَفي ٱلنِّهايَةِ ضاقَ توم بِٱلِانْتِظارِ فَغادَرَ ٱلمَحَطَّةَ .

وَقالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت في نَفْسِها : « لَيْسَ هٰذا إِلّا مِنْ تَخْطيطِ هارْتهاوْس . لَقَدْ أَرادَ أَنْ يُبْقِيَ ٱلأَخَ في ٱلمَدينَةِ حَتّى يَسْتَطيعَ ... آهٍ ! إِنَّ لويزا قَدْ هَبَطَتْ إِلى ٱلقاعِ ، لَقَدْ هَبَطَتِ ٱلسُّلَّمَ وَتَرَدَّتْ في ٱلهاوِيَةِ ، وَلا بُدَّ أَنَّ هارْتهاوْس مَعَها ٱلآنَ . »

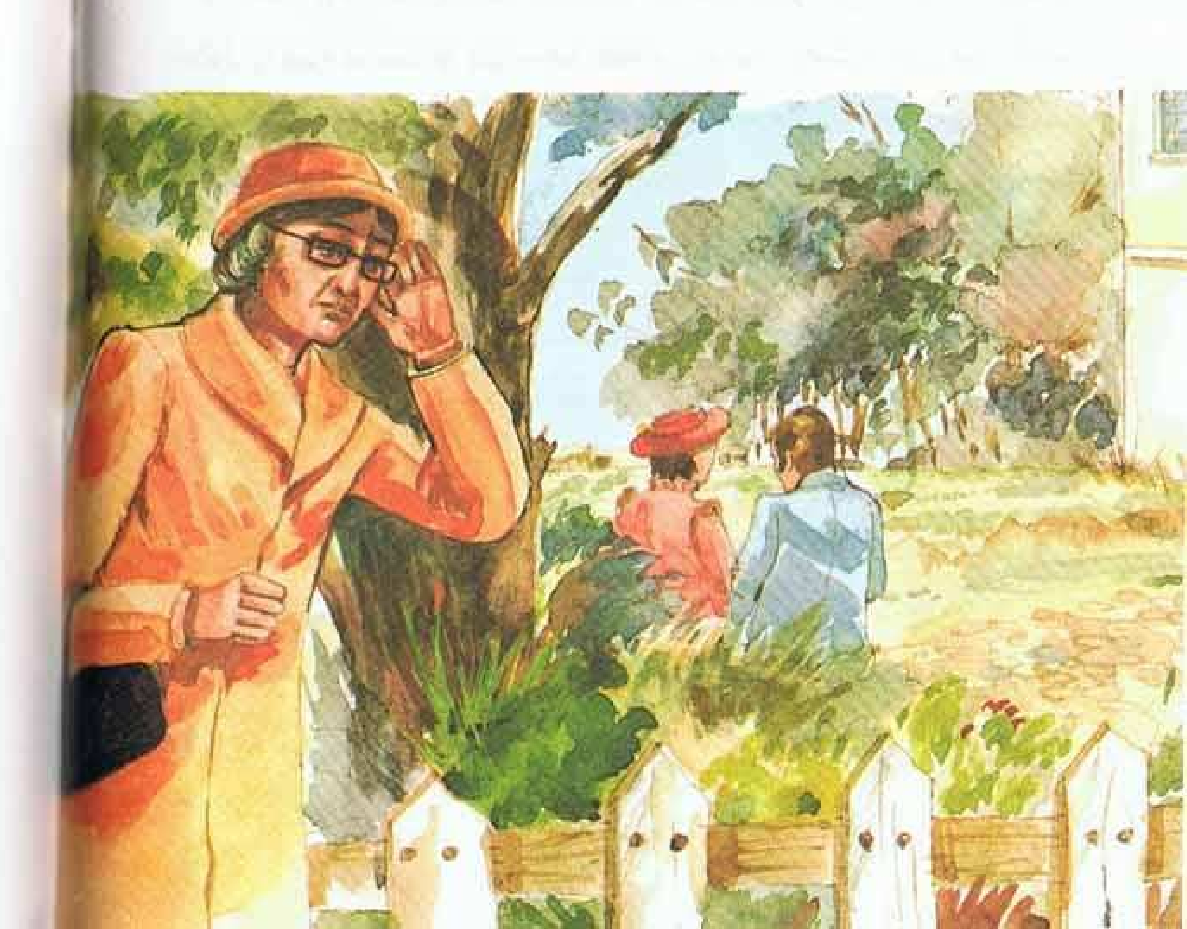
رَكِبَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت ٱلقِطارَ ٱلتّالِيَ ، وَبَعْدَ ساعَةٍ وَنِصْفِ ٱلسّاعَةِ كانَتْ تَعْبُرُ ٱلحَقْلَ مُتَّجِهَةً إِلى ٱلحَديقَةِ . وَكانَتْ نَوافِذُ ٱلبَيْتِ مَفْتوحَةً ، إِلّا أَنَّ ٱلسَّيِّدَةَ سبارْسِت سارَتْ في هُدوءٍ حَوْلَ ٱلحَديقَةِ وَكُلُّها عُيونٌ تَرْقُبُ وَآذانٌ تُنْصِتُ . وَلَمْ تَكُنْ تُريدُ أَنْ تَبْتَعِدَ عَنْ شُجَيْراتِ ٱلحَديقَةِ . وَأَخيرًا تَناهَتْ إِلى سَمْعِها أَصْواتُ

خافِتَةٍ فَمَيَّزَتْ صَوْتَهُ وَصَوْتَها . إِنَّها خُطَّةٌ لِإِبْعادِ ٱلأَخِ ، وَها هُما يَجْلِسانِ مَعًا فَوْقَ جِذْعِ شَجَرَةٍ بِٱلحَديقَةِ ، فَٱقْتَرَبَتْ مِنْهُما في هُدوءٍ ، وَلٰكِنْ ما هٰذِهِ ٱلضَّوْضاءُ ؟ إِنَّهُ ٱلحِصانُ ! حِصانُ هارِتْهاوْس ! إِذًا فَهُوَ لَمْ يَتَّجِهْ إِلى ٱلبَيْتِ ، وَإِنَّما رَكِبَ حِصانَهُ وَٱتَّجَهَ بِهِ نَحْوَها مُباشَرَةً . وَأَنْصَتَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت إِلى صَوْتَيْهِما ، فَسَمِعَتْ هارِتْهاوْس يَقولُ :

« وَلٰكِنَّكِ وَحْدَكِ يا أَعَزَّ ٱلنّاسِ ! ماذا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَ ؟ »

أَجابَتْهُ لويزا : « لَيْسَ هُنا . »

أَحاطَها هارِتْهاوْس بِذِراعِهِ قائِلًا : « أَيْنَ إِذًا يا عَزيزَتي ؟ »



قالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت في نَفْسِها : « آهٍ ... يا عَزيزَتي ... إِنَّكُما لا تَعْرِفانِ مَنْ يُراقِبُكُما . »

وَسَمِعَتْ لويزا تَقولُ : « لَيْسَ هُنا . يَجِبُ أَنْ تَتْرُكَني وَحْدي هُنا . »

قالَ : « يا عَزيزَتي لويزا يَجِبُ أَنْ نَلْتَقِيَ في مَكانٍ ما . لَقَدْ قَطَعْتُ ثَمانينَ كيلومِتْرًا عَلى ظَهْرِ جَوادي حَتّى أَلْقاكِ ، وَلا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتْرُكَكِ ٱلآنَ . »

قالَتْ : « بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ ذٰلِكَ . »

وَحاوَلَتْ أَنْ تَنْهَضَ وَلٰكِنَّ ذِراعَهُ مَنَعَتْها . وَسَمِعَتْهُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت يَقولُ : « إِنَّني أُحِبُّكِ يا لويزا ، وَلَيْسَ هُناكَ ما هُوَ أَهَمُّ مِنْ ذٰلِكَ . » وَكانَ صَوْتُهُ يَنْخَفِضُ أَحْيانًا لِيَصيرَ هَمْسًا ، وَكانَ يَتَوَسَّلُ إِلَيْها أَحْيانًا أُخْرى قائِلًا : « لا يُمْكِنُكِ أَنْ تَبْقَيْ هُنا وَحيدَةً بِدونِ صَديقٍ ، وَسَوْفَ أُغادِرُ هٰذا ٱلمَكانَ إِذا جِئْتِ مَعي . »

أَجابَتْهُ لويزا في صَوْتٍ خافِتٍ لَمْ تُمَيِّزْهُ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت ، وَلٰكِنَّها ٱعْتَقَدَتْ أَنَّهُما قَدِ ٱتَّفَقا عَلى ٱللِّقاءِ ؛ إِذْ كانَتْ قَدْ سَمِعَتْ كَلِمَةَ « ٱللَّيْلَة » في وُضوحٍ تامٍّ .

وَٱنْطَلَقَ هارِتْهاوْس بِحِصانِهِ بَعيدًا عَنِ ٱلإِسْطَبْلِ ، أَمّا ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت فَقَدْ تَبِعَتْ لويزا إِلى ٱلبَيْتِ ، وَكانَ ٱلمَطَرُ قَدْ بَدَأَ يَنْهَمِرُ خَفيفًا ، ثُمَّ ٱزْدادَ غَزارَةً ، فَتَوَقَّفَتْ تَحْتَ بَعْضِ ٱلأَشْجارِ لا تَعْرِفُ ماذا تَفْعَلُ . وَلٰكِنَّ لويزا ظَهَرَتْ فَجْأَةً مَرَّةً أُخْرى ، وَكانَتْ تَرْتَدي مِعْطَفًا ، فَقالَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت لِنَفْسِها : « سَوْفَ تَهْرُبُ مَعَهُ . لَقَدْ سَقَطَتْ بِٱلفِعْلِ في ٱلهُوَّةِ ! »

أَسْرَعَتْ لويزا إِلى مَحَطَّةِ ٱلقِطارِ تَتْبَعُها ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت عَبْرَ ٱلحَشائِشِ ٱلمُبْتَلَّةِ ، وَوَسْطَ ٱلظَّلامِ ٱلدّامِسِ وَٱلأَمْطارِ ٱلغَزيرَةِ . وَتَوَقَّفَتْ لويزا أَثْناءَ سَيْرِها ؛

فَتَوَقَّفَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت أَيْضًا ، وَعِنْدَما واصَلَتْ لويزا ٱلسَّيْرَ تَبِعَتْها ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت بِدَوْرِها وَهِيَ تُلَوِّحُ بِقَبْضَتِها في ٱلهَواءِ .

وَصَلا إِلى ٱلمَحَطَّةِ فَغَطَّتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت رَأْسَها بِٱلشّالِ . وَرَكِبَتِ ٱلسَّيِّدَتانِ ٱلقِطارَ ٱلمُتَّجِهَ إِلى كُوكْتاون . وَكانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت تُحَدِّثُ نَفْسَها قائِلَةً : « يَجِبُ أَنْ أَتَتَبَّعَها . تُرى أَيْنَ سَتُقابِلُهُ ؟ »

وَعِنْدَما وَصَلَ ٱلقِطارُ إِلى كُوكْتاون . كانَتِ ٱلمَدينَةُ غارِقَةً في مِياهٍ أَشْبَهَ بِمِياهِ ٱلفَيَضانِ ، وَٱنْدَفَعَ خَمْسونَ أَوْ سِتّونَ مِنْ رُكّابِ ٱلقِطارِ مُتَّجِهينَ إِلى ٱلعَرَباتِ ٱلَّتي ٱصْطَفَّتْ خارِجَ ٱلمَحَطَّةِ . وَتَطَلَّعَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت إِلى كُلِّ هٰذِهِ ٱلعَرَباتِ وَتَفَحَّصَتْها بَحْثًا عَنْ لويزا ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَجِدْها . فَقالَتْ في نَفْسِها : « إِنَّها لا تَزالُ في ٱلقِطارِ ، وَسَتَنْزِلُ في ٱلمَحَطَّةِ ٱلتّالِيَةِ حَيْثُ سَتُقابِلُهُ ! » وَعادَتْ بِسُرْعَةٍ نَحْوَ ٱلقِطارِ وَأَخَذَتْ تَجْري بِجانِبِهِ جيئَةً وَذَهابًا وَهِيَ تَنْظُرُ داخِلَ ٱلعَرَباتِ مِنْ خِلالِ نَوافِذِها ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَجِدْ لويزا . وَتَحَرَّكَ ٱلقِطارُ تارِكًا ٱلسَّيِّدَةَ سبارْسِت وَقَدْ بَلَّلَتْها ٱلمِياهُ ، وَتَمَلَّكَها ٱلغَضَبُ وَٱلضّيقُ بَعْدَ أَنْ خابَتْ آمالُها ، فَٱنْفَجَرَتْ باكِيَةً ، ثُمَّ قالَتْ : « لَقَدْ فَقَدْتُ كُلَّ أَثَرٍ لَها ! »

كانَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند يَقْضي عُطْلَةَ نِهايَةِ ٱلأُسْبوعِ في بَيْتِهِ ، وَكانَ يَرْقُبُ ٱلعاصِفَةَ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَتِهِ عِنْدَما فُتِحَ ٱلبابُ ؛ فَٱلْتَفَتَ بِسُرْعَةٍ لِيَرى لويزا أَمامَهُ تَخْلَعُ قُبَّعَتَها وَتُخاطِبُهُ قائِلَةً : « يَجِبُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ يا أَبي . »

قالَ : « لويزا ! ماذا حَدَثَ ؟ أَراكِ مُبْتَلَّةً . هَلْ كُنْتِ تَسيرينَ وَسْطَ هٰذِهِ ٱلعاصِفَةِ ٱلهَوْجاءِ ؟ »

أَجابَتْ : « نَعَمْ . » وَيَبْدو أَنَّها لَمْ تَلْحَظْ مَلابِسَها ٱلمُبْتَلَّةَ ، وَتَرَكَتْ مِعْطَفَها

يَسْقُطُ عَلى ٱلأَرْضِ وَقَدْ شَحَبَ لَوْنُها وَٱرْتَعَدَ جَسَدُها . وَشَعَرَ وَالِدُها بِٱلخَوْفِ عَلَيْها ، إِلّا أَنَّها مَدَّتْ يَدَها ٱلبارِدَةَ وَوَضَعَتْها عَلى ذِراعِهِ قائِلَةً : « لَقَدْ تَوَلَّيْتَ يا أَبي تَرْبِيَتي وَتَدْريبي مُنْذُ طُفولَتي . »

قالَ : « نَعَمْ يا لويزا . »

قالَتْ : « إِنَّكَ لَمْ تَمْنَحْني شَيْئًا يَنْفَعُني في حَياتي . أَيْنَ ذٰلِكَ ٱلحُبُّ ٱلَّذي كانَ مِنَ ٱلواجِبِ أَنْ يَمْلأَ قَلْبي ؟ إِنَّ قَلْبي خاوٍ . هَلْ تَذْكُرُ آخِرَ مَرَّةٍ تَحَدَّثْنا فيها في هٰذِهِ ٱلغُرْفَةِ ؟ »

لَمْ يَكُنِ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند مُسْتَعِدًّا لِسَماعِ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلكَلِماتِ ٱلَّتي قالَتْها ٱبْنَتُهُ ، فَأَجابَها دونَ تَفْكيرٍ : « نَعَمْ يا لويزا أَذْكُرُ ذٰلِكَ . »

قالَتْ : « كَمْ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّكَ ساعَدْتَني وَقْتَها . إِنَّني لا أَلومُكَ ٱلآنَ يا أَبي عَلى أَيِّ شَيْءٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ بِٱسْتِطاعَتِكَ يَوْمًا أَنْ تُعَلِّمَ ٱلآخَرينَ أَشْياءَ لا تَعْلَمُها أَنْتَ نَفْسُكَ . وَلٰكِنْ آهٍ ، لَوْ أَنَّكَ عَلَّمْتَني ٱلأَشْياءَ ٱلصَّحيحَةَ أَوْ لَمْ تُعَلِّمْني شَيْئًا عَلى ٱلإِطْلاقِ . لَكُنْتُ ٱليَوْمَ أَفْضَلَ وَأَسْعَدَ حالًا مِمّا أَنا فيهِ . »

أَحْنى ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند رَأْسَهُ عِنْدَ سَماعِهِ هٰذِهِ ٱلكَلِماتِ ، وَقالَ : « يا طِفْلَتِيَ ٱلمِسْكينَةَ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّكِ غَيْرُ سَعيدَةٍ . »

قالَتْ : « أَمّا أَنا فَكُنْتُ أَعْرِفُ ذٰلِكَ دائِمًا . فَكُلُّ ما تَعَلَّمْتُهُ كانَ خَطأً يا أَبي ، وَما كُنْتُ أَجِدُ ٱلسَّلْوى إِلّا في ... » وَصَمَتَتْ قَليلًا ثُمَّ قالَتْ : « في فِكْرَةٍ واحِدَةٍ ، وَهِيَ أَنَّ ٱلحَياةَ قَصيرَةٌ . »

قالَ مُشْفِقًا : « وَلٰكِنَّكِ صَغيرَةُ ٱلسِّنِّ يا لويزا ! »

قالَتْ : « نَعَمْ ، لَقَدْ دَبَّرتَ أَمْرَ زَواجي وَرَشَّحْتَ لي زَوْجًا . وَقَدْ قَبِلْتُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ ما يَسْتَحِقُّ ٱلْمُناقَشَةَ ؛ فَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّني لا أُحِبُّهُ . وَكُنْتَ تَعْرِفُ أَنْتَ ذٰلِكَ أَيْضًا ، وَكانَ هُوَ أَيْضًا يَعْرِفُهُ . لَقَدْ كُنْتُ آمُلُ أَنْ أَمُدَّ يَدَ ٱلْمُساعَدَةِ لِتوم ؛ لِأَنَّهُ كانَ يُشارِكُني في تَعاسَتي ، وَكانَ هُوَ ٱلشَّخْصَ ٱلْوَحيدَ ٱلَّذي يُمْكِنُني أَنْ أَشْعُرَ نَحْوَهُ بِأَحاسيسِ ٱلْحُبِّ وَٱلشَّفَقَةِ . لَقَدْ كانَ هُوَ ٱلسَّبَبَ وَٱلْمَهْرَبَ . وَلٰكِنَّ هٰذا لا يَعْني شَيْئًا ٱلآنَ ، وَإِنْ كانَ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ لَكَ أَنْ تُبْدِيَ بَعْضَ ٱلْعَطْفِ عَلى تُوم يا أَبي . »

وَأَخَذَها والِدُها بَيْنَ ذِراعَيْهِ قائِلًا : « ماذا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَ يا طِفْلَتي ؟ أُطْلُبي ما تَشائينَ . »



قالَتْ : « أُريدُ مُساعَدَتَكَ يا أَبي ، فَإِنَّ لي صَديقًا يَخْتَلِفُ عَنْ كُلِّ مَنْ عَرَفْتُهُمْ مِنَ ٱلرِّجالِ : فَهُوَ إِنْسانٌ عَطوفٌ لَهُ تَجارِبُهُ في ٱلْحَياةِ ، وَلا يَدَّعي ٱلْأَهَمِّيَّةَ ، وَيُشارِكُني بَعْضَ أَفْكاري ، وَيَهْتَمُّ بِأَمْري . »

قالَ ٱلسَّيِّدُ غرادغرايند وَهُوَ يَرْتَعِدُ : « يَهْتَمُّ بِكِ يا لويزا ! »

قالَتْ : « إِنَّهُ يَفْهَمُني يا والِدي ، بَلْ يَسْتَطيعُ أَنْ يَقْرَأَ أَفْكاري . لَقَدْ تَبَيَّنَ بِسُرْعَةٍ ٱلْحَقائِقَ ٱلَّتي أَحاطَتْ بِزَواجي . إِنَّني لَمْ أَرْتَكِبْ خَطَأً يا أَبي . وَقَدْ تَرْغَبُ في أَنْ تَسْأَلَني هَلْ أُحِبُّهُ أَمْ لا ؟ حَسَنًا ، إِنَّني لا أَعْرِفُ ، وَلٰكِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَقولَ لَكَ مِنَ ٱلْمُحْتَمَلِ أَنْ أُحِبَّهُ . » ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَيْها عَنْ كَتِفَيْ والِدِها ، وَبَذَلَتْ جُهْدًا هائِلًا لِتُنْهِيَ حَديثَها ، فَقالَتْ : « لَقَدْ أَخْبَرَني مَساءَ ٱلْيَوْمِ أَنَّهُ يُحِبُّني ، وَيَنْتَظِرُ أَنْ أُقابِلَهُ ، وَلا أَظُنُّ أَنَّني أَشْعُرُ بِٱلْأَسَفِ أَوْ بِٱلْخَجَلِ مِمّا أَفْعَلُ ، وَإِنْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَمْرًا واحِدًا هُوَ أَنَّ تَعْليمَكَ لي يا أَبي لَنْ يَكونَ فيهِ خَلاصي ، وَلَنْ يُنْقِذَني مِمّا أَنا فيهِ ، وَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَجِدَ سَبيلًا آخَرَ لِإِنْقاذي . »

وَعِنْدَما وَجَدَها تَتَهاوى عَلى ٱلْأَرْضِ ، أَمْسَكَها بِقُوَّةٍ ، وَلٰكِنَّها أَطْلَقَتْ صَرْخَةً مُرَوِّعَةً قائِلَةً : « سَأَموتُ إِنْ أَمْسَكْتَني ! دَعْني أَسْقُطْ ! دَعْني أَسْقُطْ ! »

أَرْقَدَها عَلى ٱلْأَرْضِ عِنْدَ قَدَمَيْهِ لِيَرى أَمامَ ناظِرَيْهِ كُلَّ كِبْرِياءِ قَلْبِهِ ، وَكُلَّ ما حَوَتْهُ أَفْكارُهُ مِنْ حَقائِقَ مُمَدَّدًا عَلى ٱلْأَرْضِ .

الفصل الثامن عشر

قضت لويزا ليلتها في ستون لودج ، وعندما استيقظت في الصباح وجدت نفسها في غرفتها القديمة . وكانت سيسي قد حملتها إلى فراشها بمساعدة الخادمة ، وقضت شطرًا من الليل بجوارها .

جاءت إليها شقيقتها الصغرى جين وأخذتا تتحدثان معًا .

سألتها جين : « هل أعجبتك غرفتك ؟ لقد حافظت سيسي على وضع الغرفة منذ أن تركت البيت . »

شعرت لويزا بما تتمتع به شقيقتها من رقة وعذوبة . وعندما جاء والدهما السيد غرادغرايند إلى الغرفة انصرفت جين ، وساد الغرفة مشهد حزين ؛ إذ أنحى السيد غرادغرايند باللائمة على نفسه بسبب ما تعرضت له ابنته من متاعب وصعاب في حياتها ، رغم أنه كان يعتقد دائمًا في صواب آرائه وأفكاره عن التربية .

سألها : « هل يمكن يا ابنتي العزيزة أن تتوافر لأي شخص الحكمة في اتجاهين أو مجالين مختلفين ؟ يعتقد البعض أن ذلك ممكن ، وأنه يمكن أن يكون للقلب ما للعقل من حكمة ، إلا أنني لم أومن بصحة ذلك الرأي ؛ ولعلي كنت مخطئًا في ذلك . »

ومد غرادغرايند يده ولمس خصلات شعر لويزا التي كانت تغطي وسادتها ،

وأضاف قائلا : « كثيرًا ما كنت أتغيب عن البيت ، ولكن أولادي كان لهم مدرسهم دائمًا ، وسار في تعليمهم على المنهج نفسه الذي سرت أنا عليه ، وكانت معهم سيسي بطبيعة الحال ولفترة طويلة . فهل تعتقدين يا عزيزتي أن جين أسعد حالا منك ؟ »

قالت لويزا : « إن إجابة هذا السؤال ترتسم على وجهها . فإن كانت قد استطاعت أن تتجنب ذلك الطريق الذي سلكته لوجب عليها أن تسجد لله شكرًا . »

قال والدها : « إنك يا صغيرتي وإن كنت لا تنحين باللوم علي ، إلا أنني ألوم نفسي . » وأحنى رأسه وهو يقول بهدوء : « يبدو أن الحب قد غير الكثير في هذا البيت ، فهناك أمور لم يفلح العقل في تغييرها ، وما كان باستطاعته أن يغيرها ، فتولى القلب تغييرها في هدوء . فهل تصدقين هذا ! إنني الآن أقر بذلك بكل تواضع . »

ولما وجدها أغمضت عينيها ، ولم تجبه عن تساؤله ، خرج من الغرفة في هدوء ، ولكن لويزا استرجعت في ذاكرتها ذلك اليوم الذي تحدثت فيه إلى والدها بشأن زواجها ، يوم أن كانت سيسي تجلس إلى جوار فراشها ، وتنظر إليها نظرات كلها إحساس بالشفقة ، وهي نظرات لا تستطيع أن تمحوها من ذاكرتها أو تغفرها لها ، والآن ها هي ذي النتيجة ، أن ابنة المهرج هي التي جلبت الحب إلى البيت .

وبينما هي غارقة في أفكارها شعرت بيد دافئة تلمس رقبتها ، ولكنها لم تفتح عينيها ، وإن كانت قد شعرت بالدموع تملأهما . وشعرت بمن يلمس بوجنتيه

ٱلمُبلَّلةِ وَجْنتَها ، فتظاهرتْ بأنَّها ٱستيقظتْ لتوِّها مِنَ ٱلنَّومِ لتجدَ سيسي أمامَها تقولُ : « أرجو ألّا أكونَ قدْ أزعجتُكِ . هلْ لي أنْ أبقى هنا معكِ ؟ »

أجابتْها لويزا : « ولٰكنَّ أُختي ستفتقدُكِ ، فأنتِ كُلُّ شيْءٍ بالنِّسبةِ إليْها . »

قالتْ سيسي : « كمْ أوَدُّ أنْ أكونَ شيْئًا بالنِّسبةِ إليْكِ أنتِ . »

نهضتْ لويزا مِنْ فراشِها ووقفتْ بجوارِهِ ، وسألتْها : « هلْ أرسلكِ والدي إلى هنا . »

أجابتْها : « لا ، لمْ يُرسِلْني ، ولٰكنَّهُ قالَ إنَّني أستطيعُ أنْ أجيءَ إليْكِ ، ولٰكنْ لعلَّكِ لا ترْغبينَ في بقائي . »

سألتْها لويزا : « هلْ كرِهْتِني يوْمًا إلى هٰذا ٱلحدِّ ؟ »

أجابتْها سيسي : « أرْجو ألّا يكونَ ذٰلكَ صحيحًا ، فقدْ أحببْتُكِ دائمًا ، وقدْ تغيَّرَ ٱلكثيرُ مِنْ طبْعِكِ قبْلَ أنْ تترُكي ٱلبيْتَ . ولمْ أدهشْ لذٰلكَ كثيرًا ، فقدْ كُنْتِ في غايةِ ٱلذَّكاءِ وٱلمهارةِ على حينِ كُنْتُ أنا غايةً في ٱلغباءِ . » وأضافتْ وقدْ علتِ ٱلحُمْرةُ وجْنتَيْها : « ولٰكنَّ ذٰلكَ لمْ يجرحْ مشاعري . »

كانتْ مشاعرُ سيسي قدْ جُرِحتْ بالفعْلِ ، وكانتْ لويزا تُدرِكُ ذٰلكَ ، فتناولتْ يدَ سيسي قائلةً : « إنَّني متكبِّرةٌ وقاسيةٌ ، وكثيرًا ما تملَّكَني ٱلغضبُ حتّى إنَّني كُنْتُ أظلِمُ ٱلآخرينَ بمَنْ فيهِمْ نفسي . ألا تجدينَ في هٰذا ما يدفعُكِ إلى كراهيَتي ؟ »

أجابتْها : « نعمْ . »

قالتْ لويزا : « كمْ يُحزِنُني يا سيسي أنْ أجِدَني قدْ بدأتُ مؤخَّرًا أُدرِكُ أبسطَ ٱلحقائقِ ! إنَّني في حاجةٍ إلى مَنْ يُعلِّمُني ٱلاحترامَ وٱلشَّرفَ وٱلحُبَّ . ألا تجدينَ في ذٰلكَ ما يجعلُكِ تكرهينَني ؟ »

أجابتْها سيسي : « نعمْ . »

ألقتْ لويزا بنفسِها عِندَ قدمَيْ سيسي وأمسكتْ بذيْلِ ثوْبِها قائلةً : « اغفِري لي يا سيسي ! ارْحميني وساعِديني ! اسْمحي لي أنْ أضعَ رأسي على قلبِكِ ٱلمُحِبِّ ! »

صاحتْ سيسي قائلةً : « بالطَّبْعِ يا عزيزتي ! » وضمَّتْها إلى صدْرِها .

بقيَ جيمس هارتْهاوْس منتظِرًا بالفُنْدُقِ ، لعلَّهُ يتلقّى رِسالةً مِنْ لويزا ، ولٰكنَّهُ لمْ يتلقَّ شيْئًا . وٱعتذرَ لتوم ٱلصَّغيرِ عِنْدما قابلَهُ يوْمَ ٱلأحدِ .

كانَ توم يشعُرُ بالقلقِ ، وشكا مِنْ أنَّ بيتزر بدأ يتتبَّعُهُ في كُلِّ مكانٍ ، وكانَ ٱلسَّيِّدُ باوندربي متغيِّبًا ، أمّا ٱلسَّيِّدةُ سبارْسِت فقدْ غادرتْ مدينةَ كوكتاون في عربةٍ بصورةٍ غامِضةٍ ، ولمْ يعرفْ أحدٌ أيْنَ ذهبتْ .

انْتابَ ٱلقلقُ ٱلسَّيِّدَ هارتْهاوْس مساءَ ٱلأحدِ ؛ إذْ خشيَ أنْ يكونَ هُناكَ مَنْ كشفَ علاقتَهُ بلويزا ، أوْ لعلَّ باوندربي قدْ عرفَ سِرَّهُما . وكانَ يتساءَلُ : أيجبُ عليْهِ أنْ يلتحِمَ في عِراكٍ معَ زوْجِ لويزا ؟ لٰكنَّهُ قالَ في نفْسِهِ : « إنَّني لا أُجيدُ ٱلمُلاكمةَ . »

وحاولَ أنْ يحتفِظَ بهُدوئِهِ ، فطالما تمالكَ نفْسَهُ إزاءَ ٱلعديدِ مِنَ ٱلصِّعابِ . ولِهٰذا لمْ يرَ في تِلْكَ ٱلمُشكِلةِ ٱلصَّغيرةِ ما يستحِقُّ أنْ يُفسِدَ عليْهِ عشاءَهُ ؛ فتناولَ

عشاءَهُ بشهيّةٍ ، ثُمّ آستَغرقَ في قراءةِ كتابٍ إلى أنْ جاءهُ أحدُ خدمِ الفُنْدُقِ قائلاً : « ثمّةَ سيّدةٌ ترْغبُ في مُقابلتِكَ يا سيّدي . »

هبَّ واقفًا بسُرْعةٍ وهُوَ يقولُ : « ترْغبُ في مُقابلتي ؟ أدْخِلْها يا رجُلُ . »

دخلتِ الغُرفةَ فتاةٌ لمْ يسْبقْ أنْ رآها هارتْهاوْس منْ قبْلُ ، وكانتْ ترْتدي ملابسَ بسيطةً ، وكانتْ على قدْرٍ وافرٍ منَ الجمالِ والهُدوءِ . سألتْهُ : « هلْ أنتَ السّيّدُ هارتْهاوْس ؟ »

أجابَها : « نعمْ . » ثُمّ همَسَ لنفْسِه : « إنّ عيْنيْها منْ أجْملِ ما رأيْتُ في حياتي . »



قالتْ : « إنّ رِسالتي إليْكَ سِرّيّةٌ يا سيّدي ، فهلْ أعْتمِدُ عليْكَ في الحِفاظِ على سِرّيّتِها ؟ »

أجابَها : « في آستِطاعتِكَ ذلكَ . »

قالتْ : « لعلّكَ الآنَ قدِ آستَنتجْتَ سبَبَ وُجودي هُنا . »

قالَ هارتْهاوْس مُحدّثًا نفْسهُ مرّةً أُخرى : « ولَها صوْتٌ جميلٌ أيضًا . » ثُمّ قالَ لَها : « إنّني قلِقٌ على إحدى السّيّداتِ منْذُ أمْسِ ، فهلْ قدِمْتِ مِنْ عِنْدِها ؟ »

أجابَتْهُ : « نَعَمْ . »

سألَها : « وأيْنَ هِيَ الآنَ ؟ »

أجابَتْ : « إنّها في بيْتِ والِدِها . فقدْ ذهبَتْ هُناكَ ليْلةَ أمْسِ على عجَلٍ أثْناءَ العاصِفةِ ، وأنا أعيشُ في هٰذا البيْتِ ، وقدْ قضيْتُ ليْلتي معَها ، ويُمْكِنُني أنْ أؤكّدَ يا سيّدي أنّكَ لنْ تراها مرّةً أُخرى . »

تنفّسَ هارتْهاوْس نفَسًا عميقًا في مُحاولةٍ منْهُ لأنْ يُمْعِنَ تفْكيرَهُ فيما يسْمَعُ ؛ فهٰذِهِ الفتاةُ رغْمَ صِغرِ سِنّها قالتِ الحقيقةَ ، كما تفْهَمُها دونَ آدّعاءٍ أوْ مُواربةٍ .

قالَ لَها : « كمْ يُدْهِشُني ذلِكَ ! هلْ كلّفتْكِ تلْكَ السّيّدةُ بنقْلِ هٰذِهِ الرّسالةِ اليائسةِ إليّ ؟ »

أجابَتْهُ : « لا ، إنّها لمْ تفْعلْ ذلِكَ . »

قالَ : « إذًا فليْستْ تلْكَ رغْبتَها . وربّما سأراها مرّةً أُخرى . »

قالَتْ لَهُ : « لَيسَ هُناكَ أدنى أمَلٍ في ذٰلِكَ يا سَيِّدي ، وَعلَيْكَ أنْ تُصدِّقَ ما أقولُهُ . »

قالَ : « عَلَيَّ أنْ أُصدِّقَ ؟ وَلٰكِنّي لا أُريدُ وَلا أسْتَطيعُ أنْ أُصدِّقَ ... »

قاطعَتْهُ سيبسي قائِلَةً : « تِلْكَ هِيَ الحَقيقَةُ : لا أمَلَ في أنْ تَراها إطْلاقًا . »

حاوَلَ هارتْهاوْس أنْ يَبْتَسِمَ لَها ، وَلٰكِنَّ ابْتِسامَتَهُ ضاعَتْ هَباءً ، فَقَدْ كانَ تَفْكيرُها مَشْغولًا بَعيدًا عَنْهُ ، فَقالَ لَها : « حَسَنًا ! يَبْدو أنَّكِ واثِقَةٌ بِما تَقولين . وَلٰكِنَّ هٰذِهِ السَّيِّدَةَ لَمْ تُرْسِلْكِ إلَيَّ ... وَهٰذا صَحيحٌ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أجابَتْهُ : « إنَّ حُبّي لَها هُوَ الَّذي أتى بي إلى هُنا ، وَحُبَّها لي هُوَ الَّذي يَقودُ خُطايَ . فَأنا عَرَفْتُ كُلَّ ما يَدورُ بِعَقْلِها وَبِقَلْبِها . لَقَدْ حَكَتْ لي عَنْ زَواجِها ، وَحَكَتْ لَكَ أيْضًا لِأنَّها وَثِقَتْ بِكَ . »

شَعَرَ هارتْهاوْس بِالألَمِ يَلْمِسُ قَلْبَهُ فَقالَ : « لَعَلَّ أولٰئِكَ الَّذينَ يَثِقونَ بي غَيْرُ حُكَماءَ ؛ فَوالِدُ هٰذِهِ السَّيِّدَةِ آلَةٌ ، وَأخوها جَرْوٌ ، وَزَوْجُها دُبٌّ . فَإذا كُنْتُ قَدْ سَبَّبْتُ لَها المَتاعِبَ ، فَكُلُّ ما أسْتَطيعُ قَوْلَهُ إنَّني ما أرَدْتُ يَوْمًا الإساءَةَ إلَيْها بِأيِّ شَكْلٍ مِنَ الأشْكالِ . وَالآنَ أراكِ تَلومينَني يا سَيِّدَتي الشّابَّةَ ، وَهٰذا يَعْني أنَّني قَدِ ارْتَكَبْتُ خَطأً ، وَقَدْ أقْبَلُ ذٰلِكَ مِنْكِ وَإنْ كُنْتُ لا أقْبَلُهُ مِنْ أيِّ شَخْصٍ آخَرَ . وَلا أعْتَقِدُ أنَّ صِفاتي سَوْفَ تَتَغَيَّرُ ، وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ أنْ أُعَوِّدَ نَفْسي عَلى ذٰلِكَ المَوْقِفِ الجَديدِ ، وَهُوَ أنَّني قَدْ لا أرى تِلْكَ السَّيِّدَةَ مَرَّةً أُخْرى . »

قالَتْ سيبسي بِمَزيجٍ مِنَ الرِّقَّةِ وَالحَزْمِ : « يَجِبُ عَلَيْكَ أنْ تُصْلِحَ ما أفْسَدْتَهُ بِأنْ تُغادِرَ هٰذِهِ المَدينَةَ . لا تَعُدْ إلَيْها مَرَّةً أُخْرى . وَلَيْسَ هٰذا عَلَيْكَ بِكَثيرٍ ، كَما

أنّه لَيسَ في ذٰلِكَ ما يَكْفي ، وَلٰكِنَّهُ شَيْءٌ ما وَإنْ كانَ ضَروريًّا ، وَهٰذا سِرٌّ بَيْني وَبَيْنَكَ يا سَيِّدُ هارتْهاوْس . غادِرْ كوكْتاون اللَّيْلَةَ وَلا تَعُدْ إلَيْها أبَدًا . »

قالَ : « وَلٰكِنّي ... وَلٰكِنّي هُنا في مُهِمَّةٍ عامَّةٍ ، وَقَدْ يَكونُ ذٰلِكَ غَباءً مِنّي وَلٰكِنّي سَأدْخُلُ البَرْلَمانَ ، وَتِلْكَ هِيَ الحَقيقَةُ . »

قالَتْ : « عَلَيْكَ أنْ تَرْحَلَ اللَّيْلَةَ يا سَيِّدُ هارتْهاوْس . »

قالَ : « فَكِّري في العارِ ! » وَتَوَقَّفَ هُنَيْهَةً ثُمَّ سَألَ : « وَلٰكِنْ إذا ذَهَبْتُ فَهَلْ يَظَلُّ سَبَبُ مُغادَرَتي طَيَّ الكِتْمانِ ؟ »

أجابَتْهُ : « سَأثِقُ بِكَ يا سَيِّدي ، وَسَتَثِقُ بي . »

راحَ هارتْهاوْس يَذْرَعُ الغُرْفَةَ جيئَةً وَذَهابًا بِضْعَ دَقائِقَ ، ثُمَّ عادَ إلى سيبسي ضاحِكًا قائِلًا : « إنَّ المُقَدَّرَ سَيَكونُ ؛ وَهٰذا هُوَ ما سَيَكونُ . لَقَدْ هَزَمْتِني يا سَيِّدَتي الشّابَّةَ ! وَالآنَ هَلْ لي أنْ أعْرِفَ اسْمَ خَصْمي . »

سَألَتْهُ : « اِسْمي أنا يا سَيِّدي ؟ » ثُمَّ اتَّجَهَتْ نَحْوَ البابِ .

أجابَ : « نَعَمْ ، وَهُوَ الإسْمُ الوَحيدُ الَّذي أوَدُّ أنْ أعْرِفَهُ اللَّيْلَةَ . »

قالَتْ : « سيبسي جوب . »

سَألَها : « هَلْ أنْتِ مِنْ أقارِبِ السَّيِّدَةِ ؟ »

أجابَتْ : « لا ، إنَّني ابْنَةُ مُهَرِّجٍ مِنْ مُهَرِّجي السّيرْكِ ، تَرَكَني وَالِدي وَأخَذَني السَّيِّدُ غرادْغرايْند رَحْمَةً بي ، وَأعيشُ في بَيْتِهِ مُنْذُ ذٰلِكَ التّاريخِ . » وَغادَرَتِ

ٱلغُرفَة .

تَهاوى ٱلسَّيِّدُ هارتْهاوْس جالِسًا وَهُوَ يَقولُ لِنَفسِهِ : « إنَّ هٰذا ما يَكْتَمِلُ بِهِ ٱلعارُ . ٱبنَةُ مُهَرِّجٍ بِٱلسِّيرْكِ ! وَها هِيَ ذي قَدْ أَفْلَحَتْ في أَنْ تَجْعَلَ هارتْهاوْس خاتَمًا في إِصْبَعِها ٱلصَّغيرِ . »

تَرَكَ هارتْهاوْس رِسالَةً صَغيرَةً لِأَخيهِ قالَ فيها : « أَخي ، لَقَدْ ضِقْتُ ذَرْعًا بِكُوكْتاون ، فَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ إلى مِصْرَ . وَسَوْفَ أَكْتُبُ إِلَيْكَ مَرَّةً أُخرى مِنَ ٱلقاهِرَةِ .

جيم . »

بَعْدَ ذٰلِكَ بِساعَةٍ واحِدَةٍ رَكِبَ هارتْهاوْس وَخادِمُهُ ٱلقِطارَ ٱلمُتَّجِهَ إلى لَنْدن .

الفَصْـلُ ٱلتاسِـعَ عَشَـرَ

تَبَيَّنَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت أَنَّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي مَوْجودٌ في لَنْدن ؛ فَسافَرَتْ إِلَيْهِ صَباحَ يَوْمِ الأَحَدِ . وَٱلتَقَتْ بِهِ في ٱلفُنْدُقِ ٱلَّذي يَنْزِلُ بِهِ ، وَأَبْلَغَتْهُ بِأَنَّ زَوْجَتَهُ قَدْ هَرَبَتْ مَعَ ٱلسَّيِّدِ هارتْهاوْس . وَفي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ مَساءِ ٱللَّيْلَةِ نَفْسِها ؛ عادَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي وَٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت إلى مَدينَةِ كُوكْتاون ، وَٱتَّجَها مُباشَرَةً إلى سْتُون لُودْج ، وَٱقْتَحَما غُرْفَةَ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند .

صاحَ باوِنْدِرْبي : « يا غرادْغرايْند ، لَدى ٱلسَّيِّدَةِ سبارْسِت ما تَوَدُّ أَنْ تَقولَهُ لَكَ عَنِ ٱبْنَتِكَ ٱلذَّكِيَّةِ . »

دَهِشَ غرادْغرايْند ، وَقالَ لَهُ : « لَقَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ خِطابًا لَيْلَةَ أَمْسِ . وَيَبْدو أَنَّكَ لَمْ تَتَسَلَّمْهُ بِطَبيعَةِ ٱلحالِ ... »

قاطَعَهُ باوِنْدِرْبي صائِحًا : « إِنَّهُ لَيْسَ وَقْتَ خِطاباتٍ يا سَيِّدي ! أَخْبِريهِ يا سَيِّدَتي ! أَخْبِريهِ بِما قُلْتِهِ لي ! »

كانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت تُعاني مِنَ ٱلمَرَضِ مُنْذُ لَيْلَةِ ٱلعاصِفَةِ ، وَعِنْدَما حاوَلَتِ ٱلكَلامَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْها إِلَّا أَصْواتٌ ضَعيفَةٌ ، فَغَضِبَ باوِنْدِرْبي وَصاحَ : « إِسْمَعْ يا تُوم غرادْغرايْند ! لَقَدْ سَمِعَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت حَديثًا دارَ بَيْنَ ٱبْنَتِكَ وَبَيْنَ صَديقِكَ جيمس هارتْهاوْس . فَقَدْ سَمِعَتْ ... »

قالَ غرادْغرانْد مُقاطِعًا : « أَنا أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، وَلا داعِيَ لِأَنْ تُعيدَهُ على مَسْمَعي . »

صاحَ باونْدِرْبي بِدَهْشَةٍ : « أَنْتَ تَعْرِفُ ! وَهَلْ تَعْرِفُ أَيْضًا أَيْنَ ٱبْنَتُكَ ٱلآنَ ؟! »

أَجابَهُ : « بِكُلِّ تَأْكيدٍ . إِنَّها هُنا . »

قالَ : « هُنا ؟! »

قالَ غرادْغرانْد : « أَرْجو أَلّا تَصْرُخَ يا باونْدِرْبي . لقد هَرَعَتْ لويزا إِلى هُنا عِنْدَما ٱسْتَطاعَتْ أَنْ تَجِدَ لِنَفْسِها مَهْرَبًا مِنْ هارتْهاوْس ، وَسارَتْ وَسْطَ ٱلعاصِفَةِ إِلى ٱلبَيْتِ . وَهِيَ ٱلآنَ مَريضَةٌ مُنْذُ لَيْلَةِ أَمْسِ . »

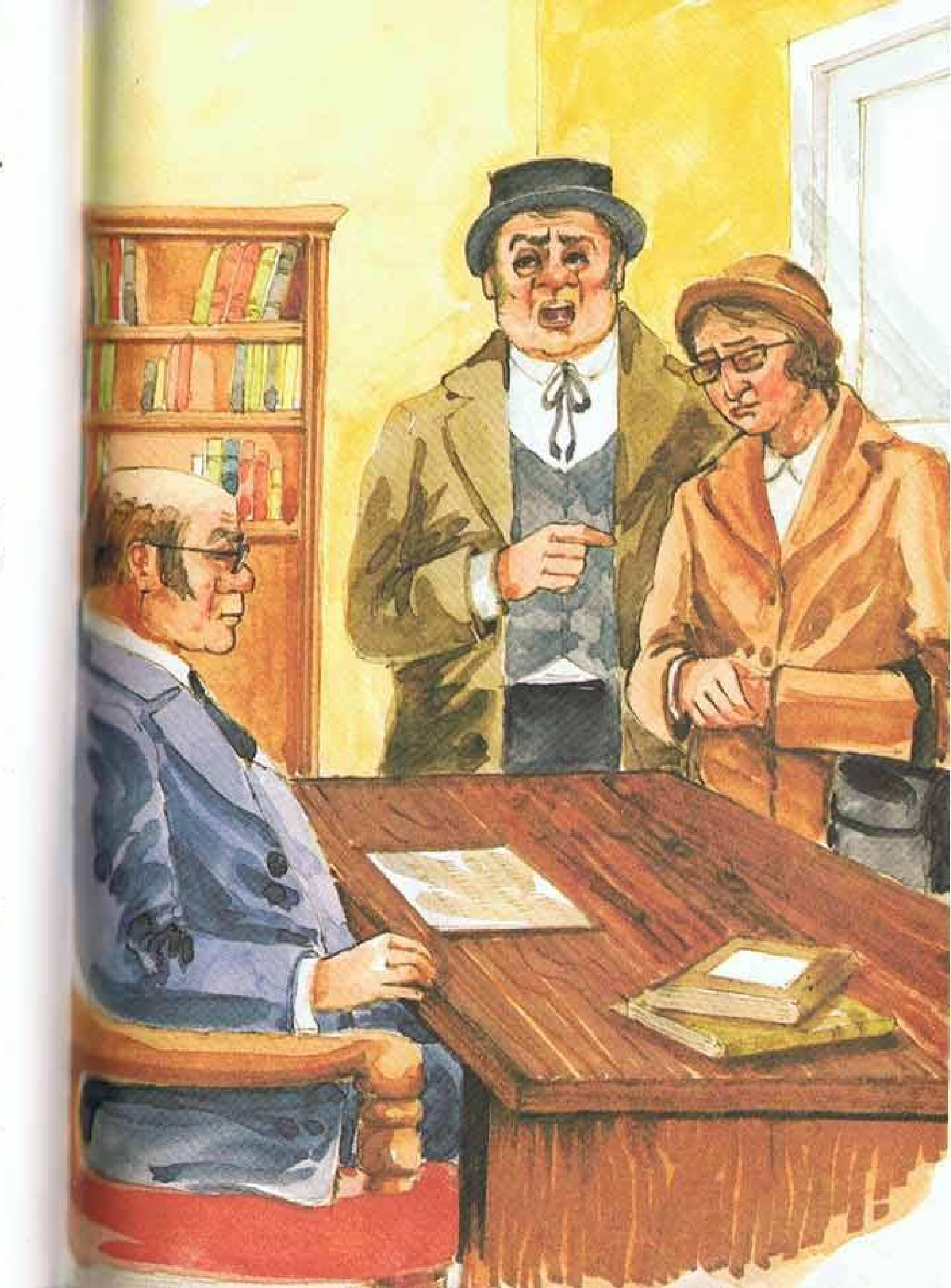
إِسْتَدارَ باونْدِرْبي غاضِبًا نَحْوَ ٱلسَّيِّدَةِ سبارْسيت وَقالَ لَها : « الآنَ يا سَيِّدَتي سَوْفَ يُسْعِدُنا أَنْ نَسْمَعَ ٱعْتِذارَكِ ؛ فَإِنَّ قِصَّتَكِ مُخْتَلَقَةٌ . »

بَكَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسيت قائِلَةً : « يا سَيِّدي ! يا سَيِّدي ! إِنَّني أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَقولَ شَيْئًا ؛ فَأَنا مَريضَةٌ . »

قالَ لَها باونْدِرْبي : « حَسَنًا يا سَيِّدَتي . إِنَّ ٱلعَرَبَةَ لا تَزالُ واقِفَةً بِٱلبابِ ، وَمِنَ ٱلأَفْضَلِ لَكِ أَنْ تَعودي بِها إِلى شَقَّتِكِ ، وَتَأْوي إِلى فِراشِكِ بَعْدَ حَمّامٍ ساخِنٍ . »

صَحِبَها باونْدِرْبي إِلى ٱلعَرَبَةِ وَعادَ وَحْدَهُ . وَقالَ لِغرادْغرانْد بِخُشونَةٍ : « أَرْجو أَنْ تُوَضِّحَ لي كُلَّ شَيْءٍ ٱلآنَ يا غرادْغرانْد . »

قالَ غرادْغرانْد : « يُؤْسِفُني أَنَّنا لَمْ نَفْهَمْ لويزا فَهْمًا صَحيحًا . »



قالَ باوِنْدِرْبي : « لا تَقُلْ نَحْنُ يا غرادْغرايْند ، فَقَدْ كُنْتُ أَفْهَمُها دائِمًا . »

قالَ غرادْغرايْند : « إِذًا فَأَنا لَمْ أَسْتَطِعْ ذٰلِكَ ، وَقَدْ أَخْطَأْتُ في تَرْبِيَتِها . »

أَجابَهُ : « إِنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ بِالتَّأْكيدِ . فَأَنا لا أَثِقُ بِأَيَّةِ طَريقَةِ تَرْبِيَةٍ سِوى اللَّطَماتِ يا سَيِّدي ، وَالضَّرَباتِ القاسِيَةِ بِالْعَصا . »

قالَ غرادْغرايْند : « وَلٰكِنَّ هٰذا غَيْرُ مُمْكِنٍ تَطْبيقُهُ عَلى ٱمْرَأَةٍ شابَّةٍ يا باوِنْدِرْبي . »

سَأَلَهُ باوِنْدِرْبي بِغَباءٍ : « وَلِماذا غَيْرُ مُمْكِنٍ ؟ »

أَجابَهُ غرادْغرايْند : « لا أَهَمِّيَّةَ لِكُلِّ هٰذا ٱلْآنَ ، فَعَلَيْنا أَنْ نُحاوِلَ إِصْلاحَ ما نَجَمَ عَنْ ذٰلِكَ مِنْ ضَرَرٍ . أُريدُ أَنْ تُساعِدَني ؛ فَأَنا حَزينٌ مِنْ أَجْلِ لويزا . »

قالَ باوِنْدِرْبي : « لَنْ أَعِدَكَ بِشَيْءٍ يا غرادْغرايْند . »

قالَ غرادْغرايْند : « أَوَدُّ أَنْ تَتْرُكَ لويزا مَعي بَعْضَ ٱلْوَقْتِ . فَٱلَّذي سَتَلْقاهُ مِنْ حُبٍّ وَرِعايَةٍ ، سَيُحَقِّقُ أَفْضَلَ ٱلنَّتائِجِ ؛ فَقَدْ كانَتْ دائِمًا طِفْلَتِيَ ٱلْأَثيرَةَ . »

سَأَلَ باوِنْدِرْبي وَقَدِ ٱحْمَرَّ وَجْهُهُ : « أَ تَوَدُّ أَنْ تُبْقِيَها هُنا ؟ »

أَجابَهُ غرادْغرايْند : « يُمْكِنُنا أَنْ نُسَمِّيَ وُجودَها هُنا زِيارَةً ، كَما أَنَّ سيسي — أَقْصِدُ سيسيليا جوب — تَفْهَمُ لويزا ، وَلويزا تَثِقُ بِها . »

قالَ باوِنْدِرْبي : « اِسْمَعْ يا غرادْغرايْند . أَنا جوشْيا باوِنْدِرْبي مِنْ كوكْتاون ، وَٱلزَّواجُ بي شَرَفٌ يَبْدو أَنَّ ٱبْنَتَكَ لا تَسْتَحِقُّهُ . وَلٰكِنْ أَخْبِرْني ماذا يُمْكِنُ أَنْ تُحَقِّقَ

تِلْكَ ٱلزِّيارَةُ ؟ »

أَجابَهُ غرادْغرايْند : « لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ بِٱلْفِعْلِ . إِنَّ لويزا غَيْرُ سَعيدَةٍ ، وَآمُلُ أَنْ تُساعِدَني عَلى إِسْعادِها . فَهَلْ تَجِدُ في طَلَبي هٰذا شَيْئًا مِنَ ٱلْمُغالاةِ ؟ إِنَّكَ أَكْبَرُ مِنْها سِنًّا ، وَٱلْفَرْقُ بَيْنَكُما كَبيرٌ ، وَأَنْتَ قَبِلْتَ ... »

قاطَعَهُ باوِنْدِرْبي بِغَضَبٍ قائِلًا : « أَعْرِفُ هٰذا ، وَذٰلِكَ شَأْني وَحْدي ! »

قالَ غرادْغرايْند : « إِنَّنا جَميعًا قَدْ أَخْطَأْنا يا باوِنْدِرْبي ، وَنَسْتَطيعُ ٱلْآنَ أَنْ نُصَحِّحَ ما وَقَعَ مِنْ خَطَإٍ . وَجَميلٌ مِنْكَ أَنْ تُوافِقَ عَلى خُطَّتي هٰذِهِ . »

قالَ باوِنْدِرْبي : « إِنَّني لا أُوافِقُ عَلى ذٰلِكَ يا غرادْغرايْند . وَلٰكِنَّني لَنْ أَتَشاجَرَ مَعَكَ ، وَمِنَ ٱلْأَفْضَلِ لِصَديقِكَ هارْتهاوْس هٰذا أَنْ يُغادِرَ كوكْتاون قَبْلَ أَنْ أَجِدَهُ في طَريقي . وَيَجِبُ أَيْضًا — بِطَبيعَةِ ٱلْحالِ — أَنْ تَعودَ ٱبْنَتُكَ إِلى مَنْزِلي ، وَسَأَنْتَظِرُها حَتّى ظُهْرِ ٱلْغَدِ ، فَإِنْ لَمْ تَأْتِ فَيُمْكِنُها أَنْ تَبْقى هُنا إِلى ٱلْأَبَدِ . »

قالَ غرادْغرايْند : « أَرْجوكَ يا باوِنْدِرْبي ، بَلْ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تُعيدَ ٱلتَّفْكيرَ في هٰذا ٱلْأَمْرِ . »

قالَ باوِنْدِرْبي : « لا يا سَيِّدي ! إِنَّ جوشْيا باوِنْدِرْبي لا يَأْخُذُ قَرارًا ثُمَّ يَعْدِلُ عَنْهُ . هٰذا كُلُّ ما أَوَدُّ أَنْ أَقولَهُ . طابَتْ لَيْلَتُكَ ! »

اِنْصَرَفَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي عائِدًا إِلى مَنْزِلِهِ في كوكْتاون . وَلَمْ تَعُدْ إِلَيْهِ لويزا في ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي . وَعِنْدَ ٱلظُّهْرِ تَمامًا أَصْدَرَ باوِنْدِرْبي أَوامِرَهُ لِخَدَمِهِ ؛ فَوَضَعوا مَلابِسَها في عَدَدٍ مِنَ ٱلصَّناديقِ أُرْسِلَتْ إِلى سْتون لودْج . وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ بَعْدَ ذٰلِكَ حَتّى عَرَضَ ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي مَنْزِلَهُ ٱلرّيفِيَّ لِلْبَيْعِ .

كانَ لِهٰذا ٱلتَّغْيِيرِ في حياةِ باوِنْدِرْبي ما أتاحَ لَهُ مَزيدًا مِنَ ٱلوَقْتِ لِمُباشَرَةِ أعْمالِهِ . فَقَدْ أَصَرَّ عَلى أَنْ يَتَوَصَّلَ إلى أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ سَطَوْا عَلى ٱلبَنْكِ ، وَصارَ يَحُثُّ رِجالَ ٱلشُّرْطَةِ عَلى بَذْلِ ٱلمَزيدِ مِنَ ٱلجَهْدِ في هٰذا ٱلمَوْضوعِ .

اِنْقَطَعَتْ أَخْبارُ ستيفن بلاكْبُول ، وَظَلَّ أَمْرُ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةِ ٱلعَجوزِ سِرًّا غامِضًا ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي عَرَضَ مُكافَأَةً قَدْرُها عِشْرونَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَجِدُ بلاكْبُول . وَأَثارَ هٰذا قَلَقَ راشيل عَلى حينِ أَسْعَدَ سلاكْبريدْج رَئيسَ نِقابَةِ ٱلعُمّالِ . فإذا ثَبَتَ أَنَّ بلاكْبُول لِصٌّ لَأَصْبَحَ سلاكْبريدْج عَلى صَوابٍ في كُلِّ شَيْءٍ . وَعِنْدَما عَلِمَتْ راشيل بِخَبَرِ تِلْكَ ٱلمُكافَأَةِ أَسْرَعَتْ إلى مَنْزِلِ باوِنْدِرْبي .

وَصَلَ إلى سْتُون لُودْج ذاتَ لَيْلَةٍ ثَلاثَةُ ضُيوفٍ هُمْ : ٱلسَّيِّدُ باوِنْدِرْبي ، وَراشيل ، وَتُوم غرادْغرايْند ٱلصَّغيرُ . وَعِنْدَ وُصولِهِمْ رافَقَتْهُمْ سيسي إلى غُرْفَةِ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند ٱلَّذي كانَ يَتَحَدَّثُ إلى ٱبْنَتِهِ لويزا . وَما إنْ دَخَلوا حَتّى قَبَعَ تُوم ٱلصَّغيرُ في رُكْنٍ مُظْلِمٍ مِنَ ٱلغُرْفَةِ يُجاوِرُ ٱلبابَ . أَمّا باوِنْدِرْبي فَقالَ لِغرادْغرايْند : « أَرْجو أَلّا أَكونَ قَدْ أَزْعَجْتُكَ ؛ فَقَدْ دارَ حَديثٌ بَيْني وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلشّابَّةِ . » وَأَشارَ إلى راشيل . « وَيَرْفُضُ ٱبْنُكَ تُوم أَنْ يَقولَ شَيْئًا ، وَلَعَلَّ ٱلسَّيِّدَةَ باوِنْدِرْبي تَسْتَطيعُ أَنْ تَقولَ لَنا ٱلحَقيقَةَ . »

وَقَفَتْ راشيل أَمامَ لويزا قائِلَةً : « لَقَدْ سَبَقَ أَنْ تَقابَلْنا ذاتَ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلُ يا سَيِّدَتي . »

سَعَلَ تُوم ٱلصَّغيرُ ، وَلٰكِنَّ راشيل كَرَّرَتْ قَوْلَها : « لَقَدْ تَقابَلْنا مِنْ قَبْلُ ؛ أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

سَعَلَ تُوم مَرَّةً أُخْرى ، أَمّا لويزا فَأَجابَتْ : « بَلى ... لَقَدِ ٱلْتَقَيْنا . »

سَأَلَتْها راشيل : « هَلْ لَكِ أَنْ تَذْكُري أَيْنَ ٱلْتَقَيْنا ؟ وَمَنْ كانَ مَوْجودًا في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ ؟ »

أَجابَتْها لويزا : « لَقَدِ ٱلْتَقَيْنا في غُرْفَةِ بلاكْبُول ، وَكانَ ذٰلِكَ بَعْدَ مُغادَرَتِهِ مَنْزِلَ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي ، وَقَدْ رَأَيْتُكِ هُناكَ مَعَهُ ، وَكانَتْ مَعَكُما سَيِّدَةٌ عَجوزٌ ، وَكانَ مَعي أَخي . »

عِنْدَئِذٍ سَأَلَ باوِنْدِرْبي تُوم : « لِماذا لَمْ تُخْبِرْني بِذٰلِكَ يا تُوم ٱلصَّغيرُ ؟ »

أَجابَهُ تُوم : « لِأَنَّني وَعَدْتُ أُخْتي بِأَلّا أَفْعَلَ ذٰلِكَ . »

عادَتْ راشيل تُوَجِّهُ أَسْئِلَتَها إلى لويزا فَقالَتْ لَها : « هَلْ لَكِ أَيَّتُها ٱلسَّيِّدَةُ ٱلطَّيِّبَةُ أَنْ تَذْكُري سَبَبَ مَجيئِكِ إلى غُرْفَةِ ستيفن ؟ »

أَجابَتْ لويزا : « لَقَدْ شَعَرْتُ بِٱلأَسَفِ مِنْ أَجْلِهِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَمُدَّ لَهُ يَدَ ٱلمُساعَدَةِ . »

قالَ باوِنْدِرْبي : « أَشْكُرُكِ يا سَيِّدَتي ! . أَتَخَلَّصُ أَنا مِنَ ٱلرَّجُلِ ، ثُمَّ أَجِدُكِ تُساعِدينَهُ . »

سَأَلَتْ راشيل لويزا : « ما هُوَ ٱلمَبْلَغُ ٱلَّذي قَدَّمْتِهِ لَهُ ؟ »

أَجابَتْ : « قَدَّمْتُ لَهُ أَرْبَعَةَ جُنَيْهاتٍ ، لَمْ يَأْخُذْ مِنْها سِوى جُنَيْهَيْنِ . »

نَظَرَتْ راشيل إلى باوِنْدِرْبي بِأَنَفَةٍ ، وَلٰكِنَّهُ صاحَ قائِلًا : « نَعَمْ يا سَيِّدَتي ٱلشّابَّةَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُصَدِّقَ ٱلآنَ بَعْضَ ذٰلِكَ ٱللَّغْوِ ٱلَّذي أَخْبَرْتِني بِهِ . »

بَدَأَتْ راشِيل تَبْكي ، ثُمَّ قالَتْ لِلويزا : « إِنَّ ستيفن بلاكْبول شابٌّ أَمينٌ ، وَلٰكِنَّ كُلَّ مَنْ في كُوكْتاون يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَطا على ٱلْبَنْكِ . وَهٰذا غَيْرُ صَحيحٍ ، وَأَنا أَعْرِفُ ذٰلِكَ . »

قالَتْ لِويزا : « إِنَّني في غايَةِ ٱلأَسَفِ . »

قالَتْ راشيل : « سَوْفَ يَعودُ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ، وَقَدِ ٱضْطُرَّ إِلى أَنْ يَتَسَمّى بِٱسْمٍ آخَرَ حَتّى يَسْتَطيعَ أَنْ يَجِدَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا . وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، وَسَوْفَ يَعودُ لِيُثْبِتَ أَنَّهُ لَيْسَ بِلِصٍّ . »

قالَ باوِنْدِرْبي ضاحِكًا : « أُذْكُري لَنا ٱسْمَهُ ٱلْجَديدَ ! أَخْبِرينا أَيْنَ هُوَ ! »

صاحَتْ راشِيل : « لَيْسَ هٰذا مِنَ ٱلْعَدْلِ في شَيْءٍ ! إِنَّ ستيفن لَمْ يَرْتَكِبْ ذَنْبًا ؛ لِذا فَإِنَّني إِنْ ذَكَرْتُ لَكَ ذٰلِكَ فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يُحْضِرونَهُ . أَلا تَفْهَمُ ذٰلِكَ ؟ لا داعِيَ لِمُطارَدَتِهِ ، فَسَوْفَ يَعودُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ . »

قالَتْ لويزا : « إِنَّني أُشْفِقُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْماقِ قَلْبي . »

بَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ غادَرَ كُلٌّ مِنْ باوِنْدِرْبي وَتُوم ٱلْمَنْزِلَ ، وَطَوالَ ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ لَزِمَ كُلٌّ مِنَ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند وَسيسي ٱلصَّمْتَ .

وَٱلْتَفَتَتْ سيسي نَحْوَ راشِيل وَسَأَلَتْها : « هَلْ يَعْرِفُ ستيفن لِماذا يُسيءُ ٱلنّاسُ ٱلظَّنَّ بِهِ ؟ »

أَجابَتْ راشِيل : « لَقَدْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّ بَعْضَ ٱلنّاسِ قَدْ شاهَدوهُ وَهُوَ يُراقِبُ ٱلْبَنْكَ ، وَإِنْ كُنْتُ لا أَجِدُ سَبَبًا لِذَهابِهِ هُناكَ ، خُصوصًا وَأَنَّ مَنْزِلَهُ لَيْسَ قَريبًا مِنَ ٱلْبَنْكِ . »

اِقْتَرَحَتْ سيسي أَنْ تَذْهَبَ مَساءَ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي إِلى مَنْزِلِ راشِيل لِتَتَأَكَّدَ مِنْ عَوْدَةِ ستيفن . وَوافَقَ ٱلْجَميعُ عَلى ذٰلِكَ ، وَٱنْصَرَفَتْ راشِيل عائِدَةً إِلى بَيْتِها .

وَبَعْدَ ٱنْصِرافِ راشِيل سَأَلَ غرادْغرايْند ٱبْنَتَهُ : « هَلْ تَعْتَقِدينَ يا عَزيزَتي لويزا أَنَّ بلاكْبول قَدْ سَطا عَلى ٱلْبَنْكِ ؟ »

أَجابَتْهُ : « لا يا والِدي ، إِنَّني واثِقَةٌ بِأَنَّهُ رَجُلٌ أَمينٌ . »

قالَ : « هٰذا ما تَظُنُّهُ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةُ أَيْضًا . وَلٰكِنْ هَلْ يَعْرِفُ ٱللِّصُّ ٱلْحَقيقِيُّ ما يَقولُهُ ٱلنّاسُ ٱلآنَ ؟ أَيْنَ هُوَ ذٰلِكَ ٱللِّصُّ ٱلْحَقيقِيُّ ؟ مَنْ يَكونُ ؟ »

لاحَظَتْ لويزا تِلْكَ ٱلنَّظْرَةَ ٱلَّتي ٱرْتَسَمَتْ في عَيْنَيْ سيسي ، وَٱلَّتي رَأَتْها مِنْ قَبْلُ : إِنَّها نَظْرَةٌ تَحْمِلُ مَعانِيَ ٱلْحُبِّ وَٱلشَّفَقَةِ . وَجَلَسَتْ لويزا إِلى جِوارِ والِدِها .

اِنْقَضى ٱلْيَوْمُ ٱلتّالي ، وَيَوْمانِ بَعْدَهُ دونَ أَنْ يَصِلَ بلا[illegible] . في ٱلْيَوْمِ ٱلرّابِعِ ذَهَبَتْ راشِيل إِلى مَنْزِلِ باوِنْدِرْبي ثانِيَةً . وَرَغْمَ أَنَّها كانَتْ [illegible] بلاكْبول ثِقَةً كامِلَةً ، فَإِنَّها أَفْضَتْ بِٱسْمِهِ ٱلْجَديدِ وَبِعُنْوانِهِ إِلى ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي ، و [illegible] ستيفن في مَدينَةٍ تَبْعُدُ عَنْ كُوكْتاون أَكْثَرَ مِنْ تِسْعينَ كيلومِتْرًا .

ذَهَبَ بَعْضُ ٱلرِّجالِ لِيَأْتوا بِستيفن ، وَبَقِيَ تُوم ٱلصَّغيرُ بِجِوارِ ٱلسَّيِّدِ باوِنْدِرْبي ، وَكانَ شَديدَ ٱلِانْفِعالِ إِلى حَدِّ ٱلْمَرَضِ ، وَكانَ يَقْرِضُ أَظْفارَهُ بِأَسْنانِهِ . وَلٰكِنَّ ٱلرِّجالَ عادوا بِدونِ ستيفن ، وَقالوا لا بُدَّ أَنَّهُ تَلَقّى رِسالَةً مِنْ راشِيل ، فَأَسْرَعَ بِٱلْفِرارِ في ٱلْحالِ . وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ أَيْنَ ذَهَبَ .

اِنْقَضى أُسْبوعٌ آخَرُ دونَ أَنْ يَظْهَرَ ستيفن . وَيَبْدو أَنَّ تُوم ٱسْتَجْمَعَ قِسْطًا مِنْ

ٱلشَّجاعَةِ فَأَخَذَ يَقولُ لِلنّاسِ : « إِنَّ بلاكْبُول هُوَ ٱللِّصُّ بِطَبيعَةِ ٱلحالِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ ٱللِّصَّ فَلِماذا لَمْ يَعُدْ ؟! »

أَيْنَ بلاكْبُول ؟ لِماذا لَمْ يَعُدْ ؟

أَخَذَتْ أَصْداءُ هٰذِهِ ٱلأَسْئِلَةِ تَتَرَدَّدُ في أُذُنَيْ تُوم ٱلصَّغيرِ طُوالَ ٱللَّيْلِ .

الفَصْـــلُ ٱلعِشْـــرونَ

لَمْ يَعُدْ ستيفِن بلاكْبُول ، وَجَدَّتِ ٱلشُّرْطَةُ في ٱلبَحْثِ عَنْهُ . وَدَأَبَتْ سيسي عَلى ٱلذَّهابِ مَساءَ كُلِّ يَوْمٍ تَقْريبًا لِزِيارَةِ راشيل في مَنْزِلِها ، وَكانَتْ تَعودُ دونَ أَخْبارٍ عَنْ ستيفِن . وَأَسْعَدَ راشيل أَنَّ سيسي كانَتْ تَثِقُ بِها وَبِستيفِن ؛ فَقَدْ جَلَبَتْ سيسي مَعَها ٱلحُبَّ وَٱلعَزاءَ ، وَسُرْعانَ ما أَصْبَحَتِ ٱلمَرْأَتانِ صَديقَتَيْنِ حَميمَتَيْنِ .

وَكانَتْ راشيل تُرافِقُ سيسي شَطْرًا مِنْ طَريقِ عَوْدَتِها بَعْدَ زِيارَتِها .

وَفي إِحْدى ٱلمَرّاتِ شاهَدَتْهُما ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت تَسيرانِ مَعًا في ٱلشّارِعِ ، فَأَسْرَعَتْ في ٱليَوْمِ ٱلتّالي لِزِيارَةِ راشيل وَقْتَ تَناوُلِ ٱلغَداءِ ، وَوَجَّهَتْ إِلَيْها بَعْضَ ٱلأَسْئِلَةِ ٱلَّتي حاوَلَتْ راشيل ٱلإِجابَةَ عَنْها . وَفي صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي — وَكانَ يَوْمَ ٱلجُمْعَةِ — غادَرَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت كُوكْتاون بِٱلقِطارِ .

وَفي ٱلمَساءِ تَوَجَّهَتْ سيسي إِلى مَنْزِلِ راشيل كَعادَتِها ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَجِدْ عِنْدَها أَيَّ أَخْبارٍ عَنْ ستيفِن . وَعَقِبَ ٱلزِّيارَةِ سارَتا مَعًا لِبَعْضِ ٱلوَقْتِ ، ثُمَّ ٱتَّفَقَتا عَلى أَنْ تَلْتَقِيا صَباحَ يَوْمِ ٱلأَحَدِ ٱلتّالي ، وَكانَتْ سيسي حَريصَةً عَلى صِحَّةِ صَديقَتِها ؛ لِذا فَكَّرَتْ أَنْ تَصْطَحِبَها في نُزْهَةٍ بِٱلرّيفِ عَسى أَنْ يُفيدَها ٱلهَواءُ ٱلنَّقِيُّ . وَفي ٱلسّاعَةِ ٱلسّابِعَةِ غادَرَتْ سيسي وَراشيل ٱلمَنْزِلَ وَٱتَّجَهَتا صَوْبَ سْتُون لُودْج سَيْرًا عَلى ٱلأَقْدامِ .

كانَ في ٱلشّارِعِ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ ٱلعَرَباتِ ؛ لِأَنَّ أَحَدَ ٱلقِطاراتِ وَصَلَ لِتَوِّهِ إِلى

ٱلْمَحَطَّةِ . وَبَيْنَما كانَتْ راشيل وَسيسي تَمُرّانِ أَمامَ مَنْزِلِ باوِنْدِرْبي شاهَدَتا إِحْدى ٱلْعَرَباتِ تَقِفُ بِٱلْبابِ ، وَتَقْفِزُ مِنْها ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت ٱلَّتي ما إِنْ لَمَحَتْهُما حَتّى صاحَتْ : « يا لَها مِنْ فُرْصَةٍ عَظيمَةٍ ! يَجِبُ أَنْ تَشْهَدا هٰذا ٱلْمَنْظَرَ . » ثُمَّ صاحَتْ تُخاطِبُ شَخْصًا داخِلَ ٱلْعَرَبَةِ : « أُخْرُجي ! أُخْرُجي وَإِلّا جَذَبْتُكِ وَأَخْرَجْتُكِ بِٱلْقُوَّةِ . »

تَجَمَّعَ ٱلنّاسُ بِٱلشّارِعِ لِيَشْهَدوا سَيِّدَةً مُسِنَّةً تَخْرُجُ مِنَ ٱلْعَرَبَةِ وَقَدْ أَمْسَكَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت بِتَلابيبِها ، وَهِيَ تَقولُ لِلنّاسِ : « لا تَلْمِسوها ! إِنَّها تَخُصُّني وَحْدي ! » ثُمَّ صاحَتْ تُخاطِبُ ٱلسَّيِّدَةَ : « أُدْخُلي ٱلْمَنْزِلَ وَإِلّا أَدْخَلْتُكِ بِٱلْقُوَّةِ . »

دَخَلَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت وَمَعَها ٱلسَّيِّدَةُ ٱلْعَجوزُ مَنْزِلَ باوِنْدِرْبي ، كَما دَخَلَتْ راشيل وَسيسي وَعَدَدٌ غَفيرٌ مِنَ ٱلنّاسِ . وَتَعَرَّفَتْ راشيل إِلى تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةِ : كانَتِ ٱلسَّيِّدَةَ بِغْلَر . عِنْدَئِذٍ أَدْرَكَتْ راشيل سَبَبَ ٱلْأَسْئِلَةِ ٱلَّتي وَجَّهَتْها إِلَيْها ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت .

وَقَفَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت مُمْسِكَةً بِتَلابيبِ ٱلسَّيِّدَةِ بِغْلَر ، ٱلَّتي قالَتْ بِضْعَ كَلِماتٍ بِهُدوءٍ ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّيِّدَةَ سبارْسِت أَجابَتْها : « لا ، لَنْ أَتْرُكَكِ لِحالِ سَبيلِكِ . » ثُمَّ صاحَتْ بِصَوْتٍ عالٍ تُنادي ٱلسَّيِّدَ باوِنْدِرْبي ، وَما إِنْ دَخَلَ باوِنْدِرْبي ٱلْغُرْفَةَ حَتّى ٱرْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ أَماراتُ ٱلدَّهْشَةِ ، كَما ٱرْتَسَمَتِ ٱلدَّهْشَةُ أَيْضًا عَلى وَجْهَيْ كُلٍّ مِنَ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايند وَتوم ٱللَّذَيْنِ كانا مَعَهُ .

سَأَلَ باوِنْدِرْبي : « ماذا بِكِ يا سَيِّدَةُ سبارْسِت ؟ »

أَجابَتْهُ بِفَخْرٍ : « لَقَدْ وَجَدْتُ يا سَيِّدي ٱلشَّخْصَ ٱلَّذي تَبْحَثُ عَنْهُ . إِنَّها صَديقَةُ



بلاكْبول ، وَقَدْ رَفَضَتْ أَنْ تَأْتِيَ مَعي وَلٰكِنَّني ... » ثُمَّ دَفَعَتِ ٱلسَّيِّدَةَ بِغْلَر إِلى ٱلْأَمامِ . وَعِنْدَئِذٍ ٱصْطَبَغَ وَجْهُ باوِنْدِرْبي بِٱللَّوْنِ ٱلْأَحْمَرِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى ٱللَّوْنِ ٱلْأَزْرَقِ ، وَصاحَ قائِلًا : « ما مَعْنى هٰذا كُلِّهِ يا سَيِّدَةُ سبارْسِت ؟ »

أَجابَتْهُ : « إِنَّها ٱلسَّيِّدَةُ ٱلْعَجوزُ يا سَيِّدي . »

صاحَ باوِنْدِرْبي : « إِنَّ هٰذا ٱلْأَمْرَ يَخُصُّني وَحْدي ، فَلِماذا تَدُسّينَ أَنْفَكِ في شُؤوني ٱلْعائِلِيَّةِ ؟ »

تَهاوَتِ ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت في ضَعْفٍ عَلى أَحَدِ ٱلْكَراسِيِّ ، وَأَخَذَتْ تَفْرُكُ يَدَيْها ، في ٱلْوَقْتِ ٱلَّذي بَدَأَتْ فيهِ ٱلسَّيِّدَةُ بِغْلَر تَرْتَعِشُ وَقالَتْ باكِيَةً :

« يا عزيزي جوشيا ! يا ولدي العزيز ! لم يكن ذلك خطئي ، فقد أوضحت الأمر لهذه السيدة مرات ومرات . وكنت أعرف أن الأمر لن يروقك . ولكنها أكرهتني على أن آتي إلى هنا . »

سألها باوندربي : « لماذا سمحت لها أن تأتي بك ؟ لماذا لم تمنعيها أو تلطميها ؛ فتسقطي أسنانها ؟ »

أجابته السيدة بغلر : « لقد كادت تستدعي رجال الشرطة يا ولدي العزيز ، وهذا ما لم أكن أريده يا جوشيا . لقد حافظت على وعدي لك دائما . وعشت حياتي في هدوء أراقبك عن بعد وأعجب بك . ولم أكن أحضر إلى كوكتاون إلا مرة واحدة أو مرتين كل عام ، ولم أخبر أحدا على الإطلاق بأنني أمك . »

أخذ كل من في الغرفة ينصت لكلامها ، وراح السيد باوندربي يذرع الغرفة جيئة وذهابا غاضبا ، وانخرطت السيدة سبارسيت في البكاء .

والتفت السيد غرادغرايند نحو السيدة بغلر قائلا : « ما هذا اللغو الذي تقولينه يا سيدتي ؟ ! لقد ألقت والدة باوندربي به على قارعة الطريق عندما كان طفلا ، وكانت قاسية عليه كل القسوة ، حتى إنه تولى تربية نفسه بنفسه . »

قالت السيدة بغلر متسائلة : « أنا كنت قاسية ! وألقيت به على قارعة الطريق ! فليغفر الله لك يا سيدي . إن لك خيالا شريرا . »

لم يسبق للسيد غرادغرايند أن توهم أو تخيل شيئا في حياته ؛ لذا أدهشه ما سمعه فهل كذب باوندربي على الجميع ؟ ثم سأل السيدة بغلر : « ألم يتول ابنك تربية نفسه بنفسه منذ كان طفلا صغيرا . »

أجابته : « لم يحدث شيء من ذلك يا سيدي . إننا لم نكن أثرياء ، ولكن عندما توفي زوجي ، وجوشيا في الثامنة من عمره ، أرهقت نفسي في العمل حتى أستطيع أن أدخله المدرسة . ووجدت في العمل متعة يا سيدي ؛ لأنني كنت أحب ابني . وبعد أن وفقت في إيجاد عمل له التحق به ، واجتهد في عمله أيضا . وهو الآن رجل ثري من الوجهاء ، وإنني لفخورة به ؛ فهو لم ينسني قط يا سيدي . إنه يدفع لي ثلاثين جنيها كل عام ، وفي هذا الكفاية ، بل وأكثر مما أحتاج . ولا يزال لي متجري بالقرية وهي التي وعدته أن أقيم بها دائما ؛ لأن جوشيا كان يرغب في ألا أتدخل في حياته ، وقد حافظت على وعدي له . ولم أبادله الحديث طوال عشرين عاما ، وما كنت لآتي إلى هنا لولا تلك المرأة ، ولهذا فأنت مخطئ في تفكيرك يا سيدي . لقد كنت دائما خير أم لولدي ، وهذا ما يمكن أن يقوله هو بنفسه . »

ما إن سمع الحاضرون الخطبة المطولة التي ألقتها السيدة بغلر حتى هتفوا لها وصفقوا ، في الوقت الذي التزم فيه السيد غرادغرايند الصمت ، وازداد السيد باوندربي غضبا ، حتى بدا وكأنه يوشك على الانفجار ، ثم لوح بذراعيه في الهواء ، وصاح :

« لقد سمعتم ما فيه الكفاية عن شؤوني الخاصة ، ولعله من الأفضل لكم جميعا أن تغادروا بيتي ؛ فأنا لن أتطرق لأي شيء بالشرح أو الإيضاح . أما بالنسبة لتوم غرادغرايند الذي سيصاب بخيبة أمل لما سمع فإنني أقول له إن والدتي لم تعاون أحدا في السطو على بنكي . طابت ليلتكم جميعا ! »

فتح السيد باوندربي الباب ليخرج منه الناس ، ومرت ساعة عرف بعدها أهالي كوكتاون الحقيقة ، وعرفوا أن باوندربي كاذب فيما قاله ، وأن له أما حنونا محبة ،

وأنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ سِوى رَجُلٍ بَدينٍ كَذّابٍ غَضوبٍ ، حَتّى ٱلسَّيِّدَةُ سبارْسِت فَقَدْ بَدَتْ أَكْثَرَ ٱحْتِرامًا وَشَرَفًا مِنْ جوشْيا باونْدِرْبي .

لَمْ تَعُدِ ٱلسَّيِّدَةُ بِغْلَر لُغْزًا يُحَيِّرُ أَحَدًا ، وَهٰذا يَعْني أَنَّهُ أُتيحَتْ لِبلاكْبول فُرْصَةٌ أَفْضَلُ ، لٰكِنْ كانَ لَدى لويزا وَسيسي وراشيل مَخاوِفُ . فَإِذا تَمَكَّنَ ستيفن مِنْ إِثْباتِ بَراءَتِهِ ، دَلَّ ذٰلِكَ عَلى وُجودِ شَخْصٍ آخَرَ مُذْنِبٍ ؛ فَدَليلُ بَراءَةِ ستيفن يُدينُ شَخْصًا آخَرَ . وَكانَتْ راشيل تَعْتَقِدُ أَنَّ هٰذا ٱلشَّخْصَ عَمِلَ عَلى ٱلْحَيْلولَةِ دونَ عَوْدَةِ ستيفن إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَتَلَهُ .

أَمّا مَخاوِفُ سيسي وَلويزا فَكانَتْ مُرْتَبِطَةً ٱرْتِباطًا غامِضًا بِتوم ٱلصَّغيرِ . وَلٰكِنَّهُما خَشِيَتا ٱلإِفْصاحَ عَنْها . أَوْ عَنِ ٱلأَفْكارِ ٱلَّتي كانَتْ تَدورُ في رَأْسَيْهِما ، رَغْمَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُما كانَتْ تُدْرِكُ ما يَدورُ في رَأْسِ ٱلأُخْرى . وَفي ٱلْوَقْتِ نَفْسِهِ ٱزْدادَ توم ٱلْتِصاقًا بِٱلسَّيِّدِ باونْدِرْبي ، أَمّا ستيفن ٱلَّذي كانَ ٱلْجَميعُ في ٱنْتِظارِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَعُدْ .

وَفي يَوْمِ ٱلأَحَدِ رَكِبَتْ سيسي وَراشيل ٱلْقِطارَ حَتّى إِحْدى ٱلْمَحَطّاتِ ٱلْواقِعَةِ بِٱلرّيفِ ، في مَكانٍ يَتَوَسَّطُ ٱلطَّريقَ بَيْنَ كوكْتاون وَٱلْمَنْزِلِ ٱلرّيفِيِّ ٱلَّذي كانَ يَمْلِكُهُ باونْدِرْبي . كانَ يَوْمًا صَحْوًا مُشْرِقًا مِنْ أَيّامِ ٱلْخَريفِ . وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَتا مِنَ ٱلْقِطارِ سارَتا مَعًا وَسْطَ ٱلْحُقولِ ، وَفي دُروبٍ تُظَلِّلُها ٱلأَشْجارُ تَتَمَتَّعانِ بِهُدوءِ ٱلرّيفِ وَخُضْرَتِهِ ، وَقَدْ حَرَصَتا عَلى تَجَنُّبِ تِلْكَ ٱلْمَباني ٱلسَّوْداءِ ٱلْخالِيَةِ ٱلْمُجاوِرَةِ لِمَناجِمِ ٱلْفَحْمِ ٱلْمَهْجورَةِ . وَعِنْدَ ٱلظَّهيرَةِ جَلَسَتا لِتَسْتَريحا .

قالَتْ سيسي : « إِنَّ هٰذا ٱلْمَكانَ هادِئٌ جِدًّا ، فَٱلنّاسُ لا يَسْلُكونَ هٰذِهِ ٱلدُّروبَ ٱلآنَ . » وَبَيْنَما كانَتْ تَتَكَلَّمُ لاحَظَتْ وُجودَ سورٍ قَديمٍ مَكْسورٍ عَلى مَسافَةِ بِضْعَةِ أَمْتارٍ ؛ فَنَهَضَتْ مِنْ مَكانِها وَذَهَبَتْ لِتُلْقِيَ نَظْرَةً ثُمَّ قالَتْ : « لا بُد أَنَّ شَخْصًا

حَطَّمَهُ حَديثًا! تَعالَي يا راشيل ! هُناكَ قُبَّعَةٌ مُلْقاةٌ عَلى ٱلْحَشائِشِ ! »

ٱلْتَقَطَتْ راشيل ٱلْقُبَّعَةَ مِنْ عَلى ٱلأَرْضِ وَهِيَ تَرْتَعِشُ ، وَنَظَرَتْ بِداخِلِها وَقَرَأَتِ ٱسْمَ ستيفن بلاكْبول فَصَرَخَتْ : « يا لَلْفَتى ٱلْمِسْكينِ ! لَقَدْ لَقِيَ حَتْفَهُ ! لا بُدَّ أَنَّهُ مُلْقًى هُنا يا سيسي ! »

نَظَرَتا حَوْلَهُما دونَ أَنْ تَتَحَرَّكا ، وَلٰكِنَّهُما لَمْ تَجِدا شَيْئًا يَخُصُّ ستيفن ، فَقالَتْ سيسي : « سَأَمْشي قَليلًا . »

وَهَمَّتْ بِأَنْ تَتَحَرَّكَ مِنْ مَكانِها ، فَإِذا بِراشيل تُطْلِقُ صَرْخَةً عالِيَةً ، وَتُمْسِكُها مِنْ ذِراعَيْها وَتَجْذِبُها إِلى ٱلْوَراءِ . وَنَظَرَتا داخِلَ حُفْرَةٍ سَوْداءَ أَمامَهُما تَكادُ تَخْتَفي بَيْنَ ٱلْحَشائِشِ ٱلطَّويلَةِ ٱلْكَثيفَةِ ، وَصاحَتْ راشيل : « يا إِلٰهي ! إِنَّهُ مُلْقًى في ٱلْقاعِ ! هُناكَ ! وَٱنْفَجَرَتْ في ٱلْبُكاءِ بِصَوْتٍ عالٍ عِدَّةَ دَقائِقَ ، وَوَقَفَتْ سيسي أَمامَها لا تَدْري ماذا تَفْعَلُ ، وَأَخيرًا قالَتْ : « يَجِبُ أَنْ نُفَكِّرَ يا عَزيزَتي راشيل في ستيفن ؛ فَقَدْ يَكونُ حَيًّا . يَجِبُ أَنْ نَجْلُبَ ٱلْعَوْنَ بِسُرْعَةٍ . »

قالَتْ راشيل : « نَعَمْ ، نَعَمْ ! أَسْرِعي في جَلْبِ ٱلْعَوْنِ . »

تَوَجَّهَتْ سيسي إِلى حافَةِ ٱلْحُفْرَةِ وَصاحَتْ تُنادي ستيفن ، وَٱسْتَمَرَّتْ في نِدائِها أَكْثَرَ مِنْ عِشْرينَ مَرَّةً ، وَلٰكِنْ ما مِنْ مُجيبٍ ، فَقالَتْ : « يَجِبُ أَلّا نُضَيِّعَ مَزيدًا مِنَ ٱلْوَقْتِ يا راشيل . عَلَيْنا أَنْ نَذْهَبَ في ٱتِّجاهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ طَلَبًا لِلْعَوْنِ . وَأَبْلِغي كُلَّ مَنْ تُقابِلينَهُ بِما حَدَثَ ؛ فَلا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ ٱلرِّجالُ إِلى هُنا بِحِبالٍ . وَيَجِبُ أَنْ نَبْعَثَ بِرِسالَةٍ إِلى كوكْتاون . فَنَحْنُ في حاجَةٍ إِلى طَبيبٍ . أَسْرِعي يا راشيل ! فَكِّري في ستيفن ! وَعَلَيْكِ أَنْ تَسْلُكي هٰذا ٱلدَّرْبَ ، أَمّا أَنا فَسَأُواصِلُ ٱلسَّيْرَ إِلى ٱلأَمامِ . »

في حَوالى ٱلخامِسَةِ مَساءً تَمَّ إخْراجُ ستيفِن مِنَ ٱلحُفْرَةِ وَهُوَ مُهَشَّمُ ٱلجَسَدِ وَلٰكِنَّهُ كانَ حَيًّا . وَجاءَ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ كُلٌّ مِنْ لويزا وغرادْغرايْند ، وَجاءَ أَيْضًا ٱلسَّيِّدُ باونْدِرْبي وَمَعَهُ ٱلجَرْوُ وَطَبيبٌ .

أَعْطى ٱلطَّبيبُ ستيفِن دَواءً قَوِيًّا ، فَٱسْتَطاعَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِضْعَ دَقائِقَ ، وَعَرَفوا مِنْهُ أَنَّهُ كانَ في طَريقِهِ إلى مَنْزِلِ ٱلسَّيِّدِ باونْدِرْبي سَيْرًا عَلى ٱلأَقْدامِ قادِمًا مِنْ مَكانِ عَمَلِهِ ، حتّى يُثْبِتَ لِلْجَميعِ أَنَّهُ لَمْ يَسْطُ عَلى ٱلبَنْكِ ، إلّا أَنَّهُ أَثْناءَ ٱجْتِيازِهِ تِلْكَ ٱلبُقْعَةَ ٱلخَطِرَةَ مِنَ ٱلرّيفِ لَيْلًا سَقَطَ في ٱلحُفْرَةِ .

اِنْحَنَتْ راشيل فَوْقَهُ وَهُوَ مُلْقًى عَلى ٱلحَشائِشِ وَقالَتْ لَهُ : « إِنَّكَ تَشْعُرُ بِآلامٍ شَديدَةٍ يا فَتايَ ٱلعَزيزَ ! هَلِ ٱلأَمْرُ في غايَةِ ٱلسّوءِ ؟ »

أَجابَها : « لَقَدْ كانَتِ ٱلآلامُ فَظيعَةً يا راشيل ، إلّا أَنَّها أَخَفُّ كَثيرًا ٱلآنَ . إِنَّهُ ٱلتَّخَبُّطُ يا فَتاتي ... ٱلتَّخَبُّطُ في كُلِّ شَيْءٍ . أُنْظُري هُناكَ يا راشيل وَتَطَلَّعي إلى ٱلسَّماءِ . هَلْ تَرَيْنَ ذٰلِكَ ٱلنَّجْمَ ؟ »

تَطَلَّعَ ٱلجَميعُ إلى ٱلسَّماءِ وَرَأَوْا بِها نَجْمًا مِنْ نُجومِ ٱللَّيْلِ ٱلسّاطِعَةِ . وَواصَلَ ستيفِن كَلامَهُ فَقالَ : « لَقَدْ كُنْتُ أَتَطَلَّعُ إلى هٰذا ٱلنَّجْمِ خِلالَ وُجودي بِٱلحُفْرَةِ يا راشيل ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ هٰذا ٱلنَّجْمَ قَدْ صارَحَني بِٱلحَقيقَةِ . فَعِنْدَما تَسَلَّمْتُ رِسالَتَكِ تَذَكَّرْتُ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةَ ٱلشّابَّةَ وَشَقيقَها . »

وَجاءَتْ لويزا وَٱنْحَنَتْ إلى جِوارِ ستيفِن ٱلَّذي ٱسْتَمَرَّ في كَلامِهِ : « لَقَدِ ٱعْتَقَدْتُ أَنَّهُما خَطَّطا مَعًا لِهٰذِهِ ٱلجَريمَةِ . وَكُنْتُ مُسْرِعًا في طَريقي لِأُوَجِّهَ ٱلاتِّهامَ إِلَيْهِما عِنْدَما سَقَطْتُ في هٰذِهِ ٱلحُفْرَةِ . وَلٰكِنْ لَمّا تَطَلَّعْتُ إلى ٱلنَّجْمِ تَبَيَّنَتْ لِيَ ٱلأُمورُ بِجَلاءٍ وَوُضوحٍ . »



اِلْتَفَتَ وَنَظَرَ في عَيْنَيْ لويزا وَقالَ : « إِنَّني أَفْهَمُكِ ٱلآنَ يا سَيِّدَتي . فَلْيَجْزِكِ ٱللهُ خَيْرَ ٱلجَزاءِ . هَلْ يُمْكِنُكِ أَنْ تَحْمِلي رِسالَةً مِنّي إلى والِدِكِ ؟ »

كانَتْ لويزا تَرْتَعِدُ وَهِيَ تَقولُ : « أَبي هُنا . » وَأَقْبَلَ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند عِنْدَما نادَتْهُ ؛ فَقالَ لَهُ ستيفِن :

« أَنا لا أَعْتَقِدُ يا سَيِّدي أَنَّ أَمامي وَقْتًا طَويلًا ؛ لِذا عَلَيْكَ أَنْ تُثْبِتَ بَراءَتي . إِنَّ ٱسْمي وَسُمْعَتي بَيْنَ يَدَيْكَ ٱلآنَ . »

قالَ غرادْغرايْند : « وَكَيْفَ أُثْبِتُ ذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ ستيفِن : « سَيُعَرِّفُكَ ٱبْنُكَ بِكُلِّ شَيْءٍ . إِنَّني لا أَتَّهِمُ أَحَدًا بِٱلسَّرِقَةِ ، وَلَنْ أَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ في حَقِّ أَحَدٍ . وَلٰكِنَّ ٱلَّذي حَدَثَ هُوَ أَنَّ ٱبْنَكَ تَكَلَّمَ مَعي يَوْمًا ،

وَهُوَ يَعْلَمُ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذي كُنْتُ مِنْ أَجْلِهِ أَنْتَظِرُ أَمامَ ٱلبَنْكِ ، وَأَرْجو أَنْ يَذْكُرَهُ لَكَ . »

في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ٱنْصَرَفَتْ سيسي مِنْ وَسَطِ ٱلجَمْعِ ٱلمُلْتَفِّ حَوْلَ ستيفن . وَٱتَّجَهَتْ إِلى حَيْثُ يَقِفُ ٱلسَّيِّدُ باوندِربي وَتوم ، ثُمَّ هَمَسَتْ بِشَيْءٍ في أُذُنِ توم .

كانَ بَعْضُ ٱلرِّجالِ ٱلَّذينَ أَنْقَذوا ستيفن قَدْ أَعَدّوا لَهُ فِراشًا وَأَرْقَدوهُ عَلَيْهِ ، وَقامَ ٱلطَّبيبُ بِلَفِّهِ بِبَعْضِ ٱلمَعاطِفِ وَٱلأَغْطِيَةِ ، وَحَمَلَهُ أَرْبَعَةُ رِجالٍ عَبْرَ ذٰلِكَ ٱلدَّرْبِ . قالَ ستيفن لِراشيل : « أَمْسِكي بِيَدي يا عَزيزَتي راشيل ؛ فَإِنَّنا نَسْتَطيعُ ٱللَّيْلَةَ أَنْ نَمْشِيَ مَعًا دونَ خَجَلٍ . »

قالَتْ راشيل : « سَأُمْسِكُ بِيَدِكَ يا ستيفن ، وَسَأَظَلُّ إِلى جِوارِكَ . »

قالَ : « بارَكَكِ ٱللهُ ! هَلْ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تُغَطّوا وَجْهي ؟ »

حَمَلَهُ ٱلرِّجالُ وَساروا بِهِ في هُدوءٍ ، وَكانَتْ راشيل مُمْسِكَةً بِيَدِهِ . وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ستيفن بَعْدَ ذٰلِكَ . وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ ٱلمَوْكِبُ إِلى مَحَطَّةِ ٱلقِطارِ كانَتِ ٱلحَياةُ قَدْ فارَقَتْهُ ، وَصارَتْ يَدُهُ بارِدَةً .

وَلَمْ يَكُنْ توم في هٰذا ٱلمَوْكِبِ .

الفَصْلُ ٱلحادي وَٱلعِشْرونَ

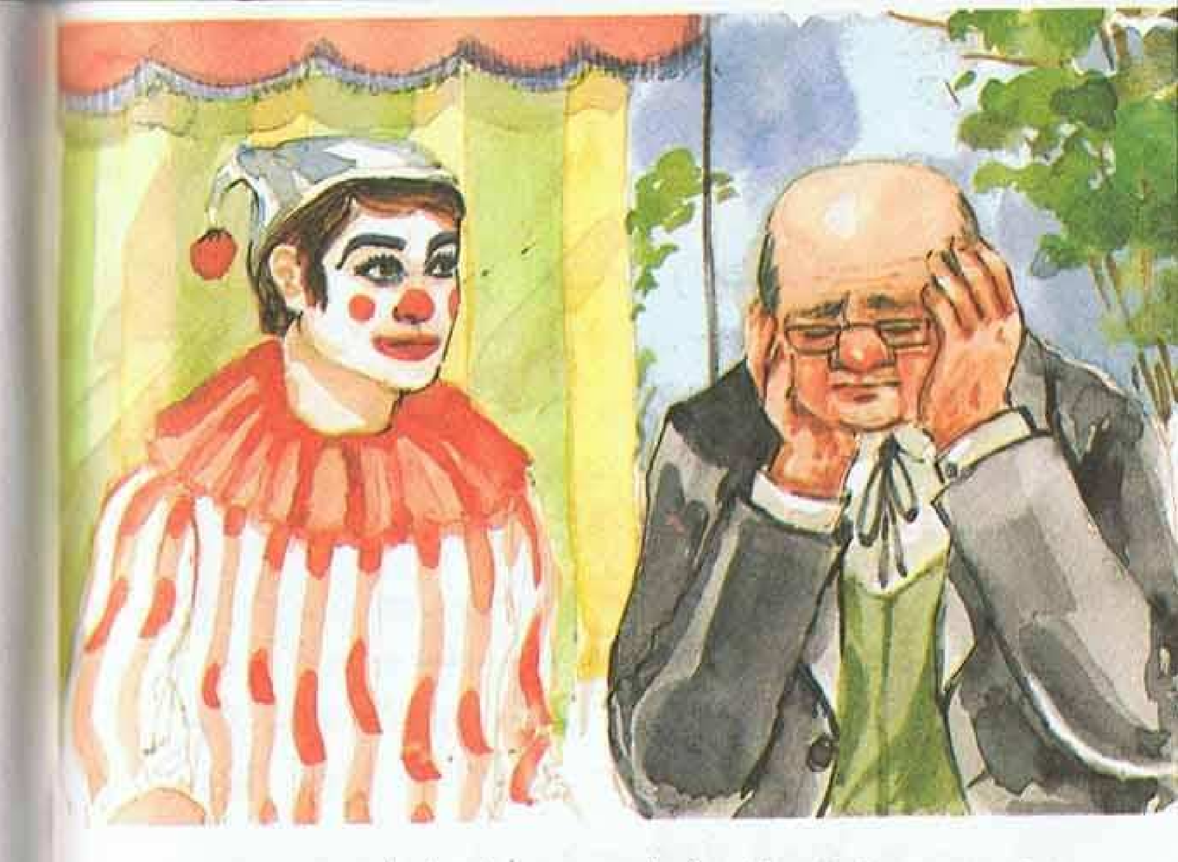
لَمْ يُشاهَدْ توم غرادْغرايْند بَعْدَ ذٰلِكَ في كوكْتاون . فَفي مَساءِ يَوْمِ ٱلأَحَدِ عَمِلَ توم بِنَصيحَةِ سيسي وَسافَرَ إِلى مَدينَةِ ليفَرْبول ٱلَّتي تَبْعُدُ حَوالى خَمْسينَ كيلومِتْرًا عَنْ كوكْتاون ، وَهُناكَ عَثَرَ عَلى سيرْكِ سْلاري حَيْثُ ٱلْتَقى بِٱلسَّيِّدِ سْلاري ، وَسَلَّمَهُ رِسالَةً مِنْ سيسي . وَلَمْ يُوَجِّهِ ٱلسَّيِّدُ سْلاري إِلَيْهِ أَيَّةَ أَسْئِلَةٍ ، وَٱكْتَفى بِأَنْ قالَ لَهُ إِنَّهُ ٱعْتِرافًا مِنْهُ بِعَطْفِ ٱلسَّيِّدِ غرادْغرايْند ، وَرِعايَتِهِ لِسيسي ؛ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَمُدُّ يَدَ ٱلمُساعَدَةِ لِٱبْنِهِ توم . وَمِنْ ثَمَّ أَعْطى توم زِيًّا مِنْ أَزْياءِ ٱلمُهَرِّجينَ بِٱلسيرْكِ لِيُعاوِنَهُمْ .

وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ وَصَلَ إِلى ٱلسيرْكِ ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند وَلويزا وَسيسي ، وَتَحَدَّثوا إِلى ٱلسَّيِّدِ سْلاري ، وَشَرَحوا لَهُ خُطَّتَهُمُ ٱلَّتي أَعَدّوها لِهُروبِ توم إِلى أَمْريكا عَلى ظَهْرِ إِحْدى ٱلسُّفُنِ ، ٱلَّتي كانَ مِنَ ٱلمُقَرَّرِ أَنْ تُغادِرَ ليفَرْبول في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ . وَوافَقَ ٱلسَّيِّدُ سْلاري عَلى ٱلخُطَّةِ ، وَأَحْضَرَ توم إِلى ٱلخَيْمَةِ ، وَتَرَكَهُ مَعَهُمْ وَٱنْصَرَفَ .

وَعِنْدَما رَأى ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند ٱبْنَهُ في مَلابِسِ ٱلمُهَرِّجينَ دَفَنَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَأَلَهُ باكِيًا : « لِماذا ... لِماذا فَعَلْتَ ذٰلِكَ ؟ »

سَأَلَهُ توم بِغَباءٍ : « ماذا فَعَلْتُ ؟ ! »

قالَ لَهُ والِدُهُ : « لِماذا سَرَقْتَ ٱلبَنْكَ ؟ لَقَدْ أَعْياني هٰذا ٱلخَبَرُ . »



قالَ تُوم : « كانَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّعَ ذٰلِكَ . لَقَدْ جَعَلْتَني أَعْمَلُ بِٱلْبَنْكِ ، وَعِنْدَما يَعْمَلُ خَمْسونَ شَخْصًا بِٱلْبَنْكِ ، فَلا بُدَّ أَنْ يَسْرِقَ أَحَدُهُمُ ٱلنُّقودَ ، وَتِلْكَ إِحْدى حَقائِقِكَ ٱلشَّهيرَةِ ٱلَّتي كَرَّرْتَها مِئَةَ مَرَّةٍ عَلى مَسْمَعي ، وَكُنْتَ تَجِدُ دائِمًا راحَتَكَ في ٱلْحَقائِقِ . حَسَنًا ، إِذًا فَلْتَجِدْ راحَتَكَ في هٰذِهِ ٱلْحَقيقَةِ أَيْضًا . »

حَنى غرادْغرايْند رَأْسَهُ قائِلًا : « يَجِبُ أَنْ تُغادِرَ إِنْجِلْتِرا ٱللَّيْلَةَ ، وَأَعْطاهُ خِطابًا وَقالَ لَهُ : « إِلَيْكَ ٱلتَّذْكِرَةَ ، وَبَعْضَ ٱلنُّقودِ ، وَآمُلُ أَنْ تُوَفَّقَ في عَمَلِ شَيْءٍ نافِعٍ . لَقَدْ كانَتْ جَريمَتُكَ شَنيعَةً ، وَكانَتْ نَتائِجُها وَخيمَةً . وَلٰكِنْ مُدَّ لي يَدَكَ يا وَلَدِيَ ٱلْمِسْكينَ . وَلْيُسامِحْكَ ٱللهُ كَما سامَحْتُكَ . »

وَٱنْخَرَطَ تُوم في ٱلْبُكاءِ عَلى حينَ مَدَّتْ لَهُ لويزا ذِراعَيْها ، وَلٰكِنَّهُ صاحَ فيها

قائِلًا : « لا ! لَيْسَ أَنْتِ ! لَنْ أَمَسَّكِ ! إِنَّ كُلَّ ما حَدَثَ كانَ نَتيجَةَ خَطَئِكِ ، فَأَنْتِ لَمْ تَهْتَمّي بي قَطُّ . »

اِنْفَجَرَتْ لويزا باكِيَةً ، وَفي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ قَدِمَ سْلاري ، وَقالَ : « عَلَيْنا أَنْ نُسْرِعَ ؛ فَٱلْمَسافَةُ بَيْنَنا وَبَيْنَ ٱلْميناءِ أَكْثَرُ مِنْ تِسْعَةِ كيلومِتْراتٍ ، وَلَنْ تَنْتَظِرَنا ٱلسَّفينَةُ . »

خَرَجوا جَميعًا ، ثُمَّ جاءَ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِ ٱلْخَيْمَةِ وَقَدِ ٱرْتَسَمَتِ ٱبْتِسامَةٌ عَلى وَجْهِهِ ٱلنَّحيفِ ٱلأَبْيَضِ ، وَكانَ هٰذا ٱلرَّجُلُ هُوَ بيتْزَر . قالَ :

« لَقَدْ تَتَبَّعْتُ خُطاكُمْ مِنْ كوكْتاون ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ ما تَقولونَ . وَيُؤْسِفُني أَنْ أَتَدَخَّلَ في خُطَطِكُمْ ، وَلٰكِنْ يَجِبُ عَلى ٱلسَّيِّدِ تُوم ٱلصَّغيرِ أَنْ يَأْتِيَ مَعي . لَقَدْ كانَتِ ٱلظُّنونُ تُراوِدُني دائِمًا بِأَنَّهُ هُوَ ٱلَّذي سَطا عَلى ٱلْبَنْكِ ، وَقَدْ تَأَكَّدْتُ ٱلآنَ مِنْ صِحَّةِ ظُنوني . »

اِرْتَعَدَ جَسَدُ غرادْغرايْند وَقالَ لَهُ مُتَوَسِّلًا : « أَ لَيْسَ لَكَ قَلْبٌ حَنونٌ يا بيتْزَر ؟ »

أَجابَهُ : « بَلى ، يا سَيِّدي إِنَّ كُلَّ ٱلأَحْياءِ مِنَ ٱلْبَشَرِ لَهُمْ قُلوبٌ حَنونَةٌ ، وَهٰذِهِ حَقيقَةٌ يَعْرِفُها ٱلْجَميعُ ، فَٱلْقَلْبُ داخِلَ ٱلْجِسْمِ هُوَ ... »

قاطَعَهُ صائِحًا : « نَعَمْ ، نَعَمْ يا بيتْزَر ، وَلٰكِنْ أَلا تَأْخُذُكَ بِنا شَفَقَةٌ ؟ أَلا يُهِمُّكَ أَمْرُنا ؟ أَمْ لَعَلَّكَ تُفَكِّرُ في مُكافَأَةٍ ما ؟ »

أُجابَهُ بيتْزَر : « شَفَقَةٌ ! إِنَّ ٱلْعُقَلاءَ لا يُفَكِّرونَ إِلّا في ٱلْحَقائِقِ يا سَيِّدي ، وَأَنا لا أَكْرَهُ تُوم ٱلصَّغيرَ ، وَلٰكِنّي سَوْفَ آخُذُ مَكانَهُ بِٱلْبَنْكِ . »

سَأَلَهُ غرادْغرايْند : « هَلْ لي أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ شَيْئًا ؟ كَمْ مِنَ ٱلْمالِ ... ؟ »

قاطعهُ بيتّرز قائلا : « يؤسفني أنْ أقاطعك يا سيّدي ، ولكنّي لو قبلتُ منك نقودًا لكنتُ مذنبًا بدوري . إنّني أفضّل أنْ آخذ مكان توم . »

كان سلاري يسمعُ هذه المناقشة فاغر الفم دهشًا ، ثمّ ابتسم خلسةً لسيسي وقال للسيّد غرادغرايند : « حسنًا يا سيّدي . إنّ الأمر بالغ الخطورة ، ولم أكنْ أعرف أنّ ابنك سطا على بنكٍ . إنّني أتّفق مع هذا السيّد فيما يقولهُ وأنا آسف لهذا ؛ ولكنْ يجبُ أنْ يعود ابنك إلى كوكتاون . »

والتفت إلى بيتّرز قائلا : « إنّني لا أستطيعُ أنْ أفعل الكثير يا سيّدي ، ولكنّ حصاني وعربتي على أهبةِ الإستعداد وسأوصلكما إلى المحطّة . وسآمر بعربةٍ أخرى ليركبها السيّد غرادغرايند والسيّدتان ثمّ تسير خلفنا . »

قال بيتّرز : « هذا جميلٌ ، وشكرًا لك يا سيّد سلاري . إنّني ما كنتُ أعرف أنّ أهل السيرك يطيعون القانون . »

قال سلاري : « إنّنا نطيعُ القانون طبعًا يا سيّدي ، ولكنْ هل يضايقك أنْ أصطحب كلبي معي ؟ فالحصانُ يرفضُ أنْ يذهب إلى أيّ مكانٍ بدون الكلب . ولهذا يجبُ عليّ أنْ آخذهُ معنا . »

قال بيتّرز : « يستطيعُ الكلبُ أنْ يساعد في حراسةِ هذا اللصّ الكذّاب . »

ووصلوا إلى العربةِ وركبها توم وبيتّرز والكلبُ . وقال سلاري لبيتّرز : « أستأذنك دقيقةً واحدةً حتى أصطحبَ السيّدَ غرادغرايند والسيّدتين إلى خيمتي لينتظروا وصول عربتهم . »

ولمّا دخلوا الخيمةَ أسرعَ السيّدُ سلاري بشرحِ خطّتهِ للسيّدِ غرادغرايند فقال : « يمكنك أنْ تعتمدَ عليّ يا سيّدي ؛ فقدْ درّبتُ هذهِ الحيواناتِ بنفسي : فالحصانُ لنْ يصلَ أبدًا إلى المحطّةِ ؛ لأنّهُ سيصابُ بالهياجِ عندما نصلُ إلى مكانٍ ما بالطّريقِ ، وسوفَ أتظاهرُ عندئذٍ بأنّني فقدتُ السيطرةَ عليهِ ، وستكونُ قدِ اقتربنا منَ الميناءِ ، وعندئذٍ سنقذفُ بابنك خارجَ العربةِ على حينَ يمسكُ الكلبُ بسروالِ بيتّرز وأقفُ أنا دونَ أنْ أفعلَ شيئًا ؛ ومنْ ثمّ سنتمكّنُ منْ أنْ نضعَ ابنكَ على متنِ السّفينةِ المسافرةِ . »

وفّقَ السيّدُ سلاري في العثورِ على ملابسَ مناسبةٍ لتوم الصّغيرِ ، وأخذَ معهُ قطعةً منَ القماشِ وزجاجةَ زيتٍ ليستخدمَها في تنظيفِ وجهِ توم وإزالةِ الأصباغِ عنهُ ، وقادَ العربةَ وسطَ الظّلامِ الّذي كانَ قدْ خيّمَ على المكانِ .

أمّا غرادغرايند ولويزا وسيسي فقدْ شعروا جميعًا بالإمتنانِ لسلاري ، وقضوا ليلتهمْ في أحدِ الفنادقِ . وعادَ السيّدُ سلاري مصطحبًا كلبهُ في حوالى الرّابعةِ صباحَ اليومِ التّالي ، وكانَ توم على سطحِ السّفينةِ في طريقهِ إلى أمريكا . أمّا بيتّرز فكانَ في طريقِ عودتهِ إلى كوكتاون وحيدًا .

أقامَ السيّدُ غرادغرايند حفلًا في الفندقِ لكلّ العاملينَ بالسيركِ ، وقدْ أسعدَ سيسي أنْ تلتقي مرّةً أخرى بكلّ أصدقائها القدامى ، وأثناءَ العشاءِ همسَ السيّدُ سلاري إلى السيّدِ غرادغرايند قائلا :

« لقدْ توفّي والدُ سيسي ، ولا أعرفُ متى ولا أينَ توفّي ، ولكنّي واثقٌ بأنّهُ قدْ ماتَ . »

سألهُ غرادغرايند : « كيفَ عرفتَ ذلكَ ؟ »

أَجابَهُ سْلارِي : « كانَ لِأَبيها كَلْبٌ يُدْعى مِرِيلِغِز ، وَقَدْ عادَ هٰذا ٱلكَلْبُ إِلى ٱلسِّيرْكِ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكانَ في حالَةٍ سَيِّئَةٍ جِدًّا بَعْدَ أَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ ، وَلا بُدَّ أَنَّهُ سارَ مَسافَةً طَويلَةً قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنا . وَما إِنْ وَصَلَ إِلى ٱلسِّيرْكِ حَتّى راحَ يَشُمُّ ٱلأَطْفالَ واحِدًا بَعْدَ ٱلآخَرِ ، وَكَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ طِفْلَةٍ مُعَيَّنَةٍ يَعْرِفُها حَتّى وَصَلَ إِلَيَّ ، وَحاوَلَ أَنْ يَقِفَ عَلى رِجْلَيْهِ ٱلخَلْفِيَّتَيْنِ ، وَلٰكِنَّهُ سَقَطَ وَماتَ بَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ . إِنَّ ذٰلِكَ ٱلكَلْبَ يا سَيِّدي ما كانَ لِيَتْرُكَ صاحِبَهُ جوب لَوْ كانَ عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ . »

قالَ غرادْغرايْند : « إِنَّني لا أُوافِقُكَ ٱلرَّأْيَ ، فَإِنَّ سيسي لا تَزالُ تَأْمُلُ أَنْ يَعودَ والِدُها يَوْمًا ، وَلا تُراوِدُها أَيُّ شُكوكٍ في أَنَّهُ ما زالَ يُحِبُّها . »

قالَ سْلارِي : « دَعْها تَسْتَمِرَّ في آمالِها وَفي حُبِّها يا سَيِّدي . فَإِنَّ ذٰلِكَ سَيَجْعَلُ حَياتَها أَكْثَرَ سَعادَةً . »

وَلٰكِنْ ماذا حَمَلَ ٱلمُسْتَقْبَلُ في طَيّاتِهِ لِشَخْصِيّاتِ هٰذِهِ ٱلقِصَّةِ ؟ ماذا سَنَرى لَوْ نَظَرْنا إِلى ٱلمُسْتَقْبَلِ ؟

لَقَدْ ظَلَّ باوِنْدِرْبي غاضِبًا مِنَ ٱلسَّيِّدَةِ سبارْسِت ، وَضاقَتْ هِيَ بِهِ ذَرْعًا ، وَبَعْدَ أُسْبوعَيْنِ فَقَطْ أَعادَها إِلى عائِلَتِها ٱلثَّرِيَّةِ ، وَلٰكِنَّها قالَتْ لَهُ قَبْلَ أَنْ تَتْرُكَهُ : « يَجِبُ عَلَيْكَ يا سَيِّدي أَنْ تَعْمَلَ بِٱلسِّيرْكِ ؛ فَأَنْتَ في ٱلحَقيقَةِ مُهَرِّجٌ ، وَٱلسِّيرْكُ هُوَ ٱلمَكانُ ٱلمُلائِمُ لَكَ . »

وَكُلَّما تَقَدَّمَ ٱلعُمْرُ بباوِنْدِرْبي ٱزْدادَ وَجْهُهُ ٱحْمِرارًا ، وَٱزْدادَ غَضَبًا مِنْ كُلِّ صَغيرَةٍ وَكَبيرَةٍ . وَبَعْدَ مُرورِ خَمْسِ سَنَواتٍ عَلى تِلْكَ ٱلأَحْداثِ كانَ يَسيرُ ذاتَ يَوْمٍ في ٱلشّارِعِ مُتَّجِهًا إِلى ٱلبَنْكِ عِنْدَما ٱنْفَجَرَ شَيْءٌ في داخِلِهِ ، وَماتَ في ٱلشّارِعِ . إِنَّهُ لَمْ يَنْشَأْ في ٱلشّارِعِ ، وَلٰكِنَّهُ — في حَقيقَةِ ٱلأَمْرِ — ماتَ فيهِ .

أَمّا غرادْغرايْند فَقَدْ تَغَيَّرَ تَغَيُّرًا مَلْحوظًا ؛ إِذْ حَلَّ ٱلحُبُّ وَٱلأَمَلُ في حَياتِهِ مَحَلَّ ٱلحَقائِقِ وَٱلأَرْقامِ . وَتَمَتَّعَ مَعَ أَوْلادِهِ ٱلثَّلاثَةِ ٱلصِّغارِ بِحَياةٍ أَسْعَدَ بِكَثيرٍ مِنَ ٱلحَياةِ ٱلَّتي عاشَتْها شَقيقَتُهُمْ لويزا ، وَأَخوهُمْ توم ٱلصَّغيرُ . وَنَشَرَ غرادْغرايْند خِطابًا أَعْلَنَ فيهِ عَلى ٱلمَلَإِ بَراءَةَ ستيفِن بلاكْبول ، وَأَنَّ ٱلمُذْنِبَ ٱلحَقيقِيَّ هُوَ ٱبْنُهُ توم .

ماذا أَخْفى ٱلمُسْتَقْبَلُ لِلويزا ؟

لَقَدْ عاشَتْ حَياةً رَقيقَةً . وَتَلَقَّتْ مِنْ توم خِطابًا يَلْتَمِسُ فيهِ مِنْها ٱلصَّفْحَ وَقالَ لَها في خِطابِهِ : « إِنَّني لَأُضَحّي بِكُنوزِ ٱلدُّنْيا كُلِّها مِنْ أَجْلِ أَنْ أَرى وَجْهَكِ مَرَّةً أُخْرى . » وَلٰكِنَّ ٱلقَدَرَ شاءَ أَلّا تَرى وَجْهَهُ مَرَّةً أُخْرى ، فَقَدْ ماتَ بِٱلحُمّى في أَحَدِ ٱلمُسْتَشْفَياتِ .

وَلٰكِنْ هَلْ تَزَوَّجَتْ لويزا مَرَّةً أُخْرى ؟ هَلْ أَنْجَبَتْ أَطْفالًا ؟

لا لَمْ يَشَأْ لَها ٱلقَدَرُ ذٰلِكَ .

هَلْ كانَ لَها أَصْدِقاءُ ؟ نَعَمْ كانَ لَها أَصْدِقاءُ ؛ فَقَدْ كانَتْ راشيل أَعَزَّ أَصْدِقائِها . وَٱسْتَمَرَّتْ راشيل في عَمَلِها بِمَصْنَعِ ٱلنَّسيجِ طَوالَ حَياتِها ، وَعاشَتْ حَياةً سَعيدَةً ، وَكانَتْ دائِمًا طَيِّبَةً حَنونًا . وَكانَتِ ٱلشَّخْصَ ٱلوَحيدَ في كوكْتاون ٱلَّذي أَحَبَّ زَوْجَةَ ستيفِن وَأَشْفَقَ عَلَيْها .

كانَ لِلويزا صَديقَةٌ أُخْرى هِيَ سيسي ، ٱلَّتي ظَلَّتْ دائِمًا إِلى جِوارِها وَمَعَها أَبْناؤُها . وَكانَ لِسيسي مَنْزِلٌ تُحيطُ بِهِ ٱلزُّهورُ ، وَتَمْلَأُهُ ٱلصُّوَرُ وَٱلكُتُبُ وَٱلقِصَصُ ، وَقَدْ زُيِّنَتْ جُدْرانُهُ وَأَرْضِيَّتُهُ بِٱلصُّوَرِ ٱلخَيالِيَّةِ ٱلجَميلَةِ . لَقَدْ كانَ بَيْتُها مَكانًا مَمْلوءًا بِٱلحُبِّ وَبِكُلِّ أَسْبابِ ٱلمُتَعِ . حَتّى ٱلسَّيِّدُ غرادْغرايْند كانَ يُحاوِلُ أَنْ يَسْتَمْتِعَ بِهٰذِهِ ٱلأَشْياءِ ٱلَّتي أَحَبَّتْها لويزا بِدَوْرِها حُبًّا جَمًّا .

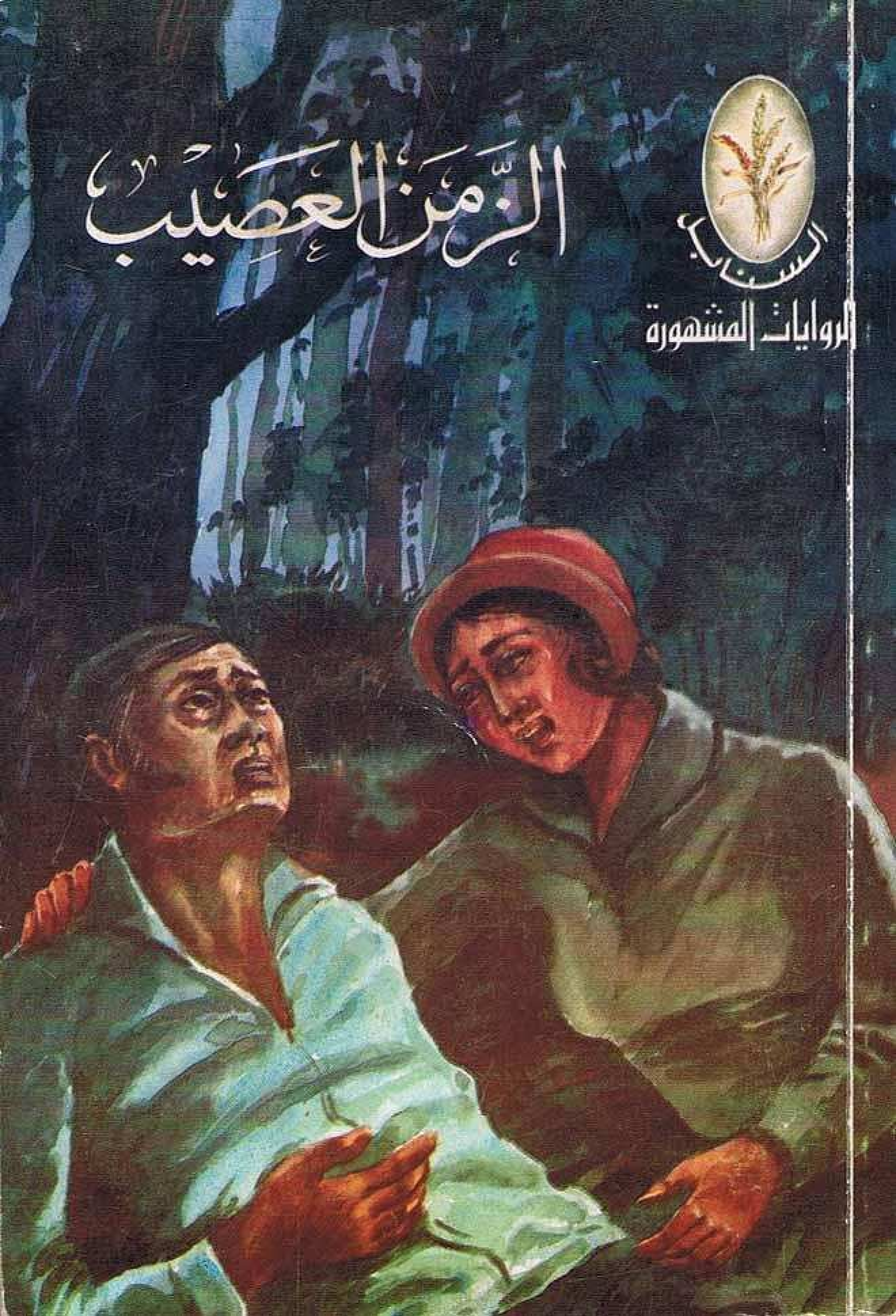
١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي-الجيزة

الطبعة الأولى ١٩٨٩

رقم الإيداع ١٩٨٩/٢٧٦٠
الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧-١٤٤٦-٢٢-٢

رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198110

طبع بمطابع أخبار اليوم


الزمن العصيب
لبنان
الروايات المشهورة